المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية وآدابها
قسم البلاغة والنقد

الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمّادي صمّود
الأصول والامتدادات

رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في البلاغة والنقد

إعداد الطالبة:
غادة محمد ذاكر الزبيدي
الرقم الجامعي: ٤٤٢٧٠١٧٦

إشـراف الأستاذة الدكتورة:
سعاد فريح صالح الثقفي
أستاذ البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية – جامعة أم القرى

١٤٤٤هـ – ٢٠٢٣م

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٤/٠٢/١٢
Ali Fattani
إخراج وتنسيق الفطاني

فاتحة كل خير ..
وتمام كل نعمة ..

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات
١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

الإهـــــداء

كنت أسترق السمع من خلف باب حجرتها كل منتصف ليل؛
فلا أسمع إلا ابتهالات تتضمن اسمي في كل مرة . .
إلى جنة الدنيا . . أمي

وهو تخطو مستندًا على عكازه خمس مرات كل يوم في طريقه إلى مسجده . .
كنت أثق أن الله سيؤتيه سؤله إذ يردد: الله يوفقك يا بوك . .
إلى باب الجنة . . أبي

في كل مرة ضاقت بي السبل وجدتهم عن يميني وعن شمالي . .
عدتي وعتادي . . إلى إخوتي وأخواتي

وحين يغلبني التعب، أغلق دفتري فأجد مساحة من السكينة رغم الصخب، إلى
أجزاء من قلبي تعيش بقربي . . إلى راكان، و ذوق، و فارس

أهدي جهدي.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

ملخص الدراسة

عنوان الدراسة: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمّادي صمّود (الأصول والامتدادات).

الدرجة: الدكتوراه، **التخصص:** البلاغة والنقد.

فكرة الدراسة: النظر في أصول التصورات البلاغية والنقدية التي قام عليها مشروع حمّادي صمّود والبحث عن امتداداتها.

هدف الدراسة: استغلال مشروع صمّود البلاغي والنقدي؛ للإسهام في صياغة النظرية البلاغية الجديدة التي ترتبط بأصولها التراثية وتمتد فروعها إلى النظريات الخطابية الجديدة.

محتوى الدراسة: احتوت مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول تتبعها خاتمة. وقائمة المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات. وقدمت الدراسة هذه المادة العلمية في ضوء المنهج الاستقرائي.

أما الفصل الأول: فبحث السياق الثقافي وأصول الاتجاه البلاغي المؤطر لمشروع حمّادي صمّود. فعالج مرجعيات الفكر وأصول التفكير، وحدد مفاهيم مشروعه.

الفصل الثاني: ناقش سؤال المنهج ومقولات قراءة حمّادي صمّود التي توزعت بين مقولات تراثية، ومقولات أسلوبية، ومقولات حجاجية.

الفصل الثالث: فحص مسارات الاتجاه النقدي الذي توزع في قراءة صمّود بين النظري والتطبيقي، فكشف عن مقتضيات القراءة النقدية.

أما الخاتمة فحوت نتائج الدراسة، منها: أن توجهات صمّود البلاغية والنقدية نتاج فضاء أكاديمي ومعرفي متصل بثقافة متعددة الجوانب، وأن أدبية الخطاب قابعة في اللغة ومفهوم الجمال مندس في أحشاء النص، وأن معالجته التطبيقية لنصوص الشابي وغيره كانت قراءة للنصوص الأدبية العربية في ضوء المكتسبات والأدوات التحليلية المستقاة من النقد الغربي، بعد قولبتها في قالب عربي، وأن الاتجاهات النقدية عنده متصلة بتصوراته حول الأسلوبية النقدية، وقضايا الشعرية ومتسقة مع اتجاه المزاوجة بين التراث والحداثة مما يجعل مشروعه لبنة في مشروع بلاغي أوسع، يرفد البلاغة العربية بما يمكن انتقاؤه من مقولات تراثية، وما يمكن اكتسابه من معارف عصرية.

الطالبة غادة محمد ذاكر الزبيدي

المشرفة أ.د سعاد فريح صالح الثقفي

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

Abstract

Title of the Research: Rhetorical and Critical Trends in Hammadi Sammoud's Work (Origins and Extensions)

Degree: PhD **Specialty**: Rhetoric and Criticism

Idea of the study: To examine the origins of the rhetorical and critical concepts developed by Hammadi Sammoud and explore their extensions.

Objective of the research: To utilize Sammoud's rhetorical and critical project to contribute to the development of a new rhetorical theory that is connected to its heritage roots and extends to new discourse theories.

Content of the research: The study consists of an introduction, a preface, three chapters, and a conclusion. It also includes a list of sources, references, and an index of topics. The study was conducted within the framework of an inductive methodology

Chapter 1 discussed the cultural context and the origins of the rhetorical approach that frames Hammadi Sammoud's project. It addressed the references of thought and the principles of thinking, and identified the concepts of his project.

Chapter 2 discussed the question of methodology and the statements of Hammadi Sammoud's reading, which were divided into traditional, stylistic, and argumentative statements.

Chapter 3 examined the paths of the critical approach that are distributed in Sammoud's reading between theoretical and practical aspects, and revealed the requirements of the critical reading.

The conclusion of the study included several findings, among them: that the orientations of rhetorical and critical resistance are the product of an academic and cognitive space connected to a multi-faceted culture, and that the literature of discourse is embedded in language, and the concept of beauty is intertwined within the depths of the text. Furthermore, the practical treatment of texts by Al-Shabbi and others was a reading of Arabic literary texts in light of the acquired analytical tools and achievements derived from Western criticism, after molding them in an Arabic mold. The critical orientations are linked to his perceptions of critical style and poetic issues, and are consistent with the trend of merging heritage with modernity, making his project a cornerstone in a broader rhetorical project that enriches Arabic rhetoric with what can be selected from traditional sayings and acquired from modern knowledge.

Researcher	Supervisor
Ghada Muhammad Zakir Al-Zubaidi	**Dr. Suad Fareeh Saleh Al-Thaqafi**

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

المقدمـــــة

المقدمـــــــــة

اللهم تَسُرْ وأَعِنْ، واكْتُبْنا عندك من أُولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم، وبعدُ..

فقد حظي الدرس البلاغي العربي بالعديد من الإسهامات الجادة منذ نهاية السبعينيات إلى الوقت الحالي؛ إذ باتت مهمة تطوير البلاغة العربية هاجسًا يؤرّق أجيالًا متواصلةً من الباحثين العرب. استفادت تلك الإسهامات إلى حدّ كبير من تيار البلاغة المعاصرة، خاصةً فيما يتعلق بمنجزات الدرس اللغوي الحديث؛ فلقد انعكست آثاره على العديد من آليّات التّأويل والتّحليل، واستطاع أن يربط حاضر البلاغة العربية بماضيها، عن طريق الاتّصال المباشر بالتراث البلاغي والنقدي في أمهات كتبه؛ لإعادة فحص خصوصياته، وهنا أمكن للبلاغة العربية أن تُثبِتَ أن لها مفهومًا مرنًا يمكن أن يتواءم ومستجدات المعرفة الإنسانية عامةً، والمعرفة اللغوية خاصةً، تتجلى هذه المرونة في توسّع مجالات الدرس البلاغي، واحتضانه الخطابات المختلفة، وفي مقدرته على استيعاب المناهج بأنواعها، بدءًا من بلاغة أرسطو، ووصولًا إلى التداوليات الحديثة، ونظريات تحليل الخطاب، إن هذه الفضاءات البلاغية الواسعة اقتضت التّأطير النّظري الذي استفاد من تلاقح الثقافات، ففتح آفاقًا متعددةً لمجالات البلاغة الجديدة.

بناءً على ما سبق، فقد جاءت محاولات إعادة قراءة البلاغة العربية؛ لتقدم صورةً متكاملةً لهذه البلاغة بروافدها، ومنطلقاتها، ومقولاتها، وتمهد الطريق للباحث العربي؛ حتى يستفيد من التراث البلاغي، ويقدمه بصورة معاصرة لا تحرف مضامينه، ثم كانت ثمار تلك الجهود متباينةً تبعًا للتباين في الرؤى، والتصورات، وطرائق التعامل، فحاول بعضها أن يرسم للبلاغة العربية صورةً لا تختلف عن شكلها في مظانها، خوفًا من الوقوع في مزالق تُفقِد العلمَ أصله وماهيّته، فبقي في حدود التّصورات التي أصّلها الأوائل بوصف البلاغة أداةً لتحليل النصوص المبنيّة على

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

مقاصد مسبقة، لا تنفكّ عن اللغة الأدبية المعدولة عن الكلام العادي، وحاول بعضها الآخر أن يستأنس بالمناهج الحديثة التي غالبًا ما تكون قادمةً عن طريق المثاقفة، وصلة الباحث بالآخر، وفي ذلك تنوّعت ثمار البحث أيضا، وتعددت أدوات الباحثين كلّ حسب ما أُتِيح له من وعي، وفهم، وإدراك للأسس الفكرية والجمالية التي نهض عليها ذلك الوافد. وشكّلت هذه الجهود على مختلف مستوياتها، لبنةً ساعدت على الخروج بالدرس البلاغي إلى منعرجاتٍ حاسمة، كان من شأنها أن تغيّر طبيعة التّناول البلاغي والنقدي، ولا يخفى أنّه كلّما تغيّرت المعطيات والفروض، أُلزم الباحث بإعادة قراءة التراث، وتأويل ما كان منه بعيدًا عن هذه المعطيات؛ بُغيةَ ربط القديم والحديث بعلاقة منظّمة سليمة، بعيدة عن التّعسف أو الإسقاط.

ولعلّ من أبرز الإسهامات الجادة، التي ارتأت الباحثة أن تقف عندها: إسهامات الأستاذ حمّادي صمّود، من خلال تصوّراته البلاغيّة، ومواقفه النّقديّة؛ حيث تُعَدُّ ظاهرةً جديرةً بالدرس، وقراءةً متينةً تتطلّب الغوص في كُنهها، قامت على أساسين عبَّر عنهما الدارسون في مناسبات مختلفة، وهما: الاتصال بالتراث، والمنظور الحداثي اللساني، تشكّلت هذه التّصورات بدءًا في مشروعه (التّفكير البلاغي عند العرب)، الذي يمكن أن يُعَدَّ نواةً للدراسات البلاغية المعاصرة، مرورًا بإشرافه على الحلقة الدّراسيّة التّونسيّة المهتمة بقضايا الشعرية، وقد جاءت استجابةً لهيمنة الدراسات البنيوية والشعرية على الساحة الفرنسية، أشرف فيها حمّادي صمّود على عملية نقل القضايا من الحقل الغربي إلى الحقل العربي، وتتبع تأثيرها في الخطاب النّقدي العربي، وهذا يجعل الباحثة تقدِّم فرضيةً مؤداها: أنّ الوسط العلمي والفكري الذي احتضن مشاريع حمّادي صمّود في هذه الفترة، وبنى واقعًا معرفيًّا جديدًا، هو في حقيقته ملتقى تيارات فكرية عالمية متصارعة، وعقول أصيلة تحاول التمسك بالموروث، وتعزّز الانتماء الحضاري والثقافي. ومن الشعرية إلى الحلقة الجديدة التي دارت معظم بحوثها حول نظريّة الحجاج في البلاغة العربية، وصولًا إلى الدّراسات الجادّة المتفرقة التي ناقش فيها العديد من القضايا البلاغية، والنقدية، والأدبية، تنظيرًا،

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات
١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

وتطبيقًا.

بناءً على ما سبق، فقد قدمت الباحثة إلى اختيار هذا الموضوع تدفعها رغبة في سدّ الفجوة المعرفية، من خلال البحث عن جملة التوجهات التي أطرت الواقع المعرفي في مشروع حمّادي صمّود، وعزيمة تروم تحليل ذلك البناء المعرفي، ومناقشته؛ لاعتقادها أن هذا الواقع يشكّل أولى عتبات مساءلة قضايا التراث البلاغي والنقدي، ولأنه يعمل على تقديم الكثير من إمكانات التفكير في الخطاب، وتحليله، ونقده، من خلال أدوات البلاغة، وقد أخذت الباحثة على عاتقها مهمةَ فحص هذه الرؤية، والكشف عنها في أصولها، وامتدادتها، وتوجهات فكر صاحبها، وآرائه البلاغية، ومواقفه النقدية.

وقد عمدت هذه الرسالة إلى دراسة الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمّادي صمّود في أصولها، وامتداداتها، تدفعها إلى ذلك جملة من الأسباب، أهمها:

- الوقوف على مشروع بلاغيّ نقدي يهدف إلى إعادة قراءة البلاغة العربية؛ للكشف عن قيمته وفاعليته، وما يمكن أن يقدمه من إضافة علمية تخدم الدرس البلاغي، والدرس النقدي.
- يُعَدُّ حمّادي صمّود أكثر الدارسين العرب المعاصرين الذين أسسوا لبلاغة معاصرة ترتكز على قراءة التراث، وتزاوج بينه وبين الدراسات اللغوية والنقدية الحديثة في مختلف قضاياها وإشكالاتها.
- الرغبة في الكشف عن مراحل أساسية، وتحولات معرفية انتقلت عبرها الرؤية البلاغية والنقدية عند حمّادي صمّود، ومعرفة أبرز المنطَلَقات التي انطلقت منها هذه الرؤية، ورصد المقولات التي بُنيت عليها في الخطابين البلاغي والنقدي العربيين.
- الميل إلى فحص الخطابات التي تبدي توازنًا بين إدراك القديم الأصيل، والوعي بالحديث المعاصر، والبحث عن السؤال الجوهري، والقيمة المهيمنة في ذلك

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الخطاب؛ رغبةً في تكوين خلفية معرفية متينة، تنطلق منها الباحثة إلى فضاءات البحث البلاغي والنقدي.

• جِدَّة الموضوع؛ حيث لا توجد دراسة علمية أُفرِدَت -حسب اطلاعي- لبحث تصورات حمّادي صمّود البلاغية والنقدية، في أصولها، وامتداداتها.

بناء على ما سبق، فإن أهمية الدراسة تكمن في النقاط الآتية:

• متابعة حركة البحث المتسارعة في مجال الدراسات البلاغية والنقدية، تحقيقا وتحليلا، وكشفا عن الأنساق، وفحص مدى فاعليتها عند التطبيق.

• الوقوف على أحد التمظهرات الحديثة للبلاغة العربية، من خلال النظر في جملة المعطيات التراثية أو الحديثة المستخدمة، والسعي إلى بلورة بنية النظرية البلاغية المعاصرة.

• معالجة جملة من المفاهيم البلاغية والنقدية التي شغلت حيزا في المنظومة المعرفية، من خلال رؤية حمّادي صمّود. والإسهام في قراءة البلاغة العربية عبر رؤية تقوم على أسس متينة ومعمقة للمادة البلاغية وفق شرطها التاريخي والحضاري.

• فحص مظاهر التداخل المعرفي والتمازج العلمي ما أمكن، بين البلاغة والعلوم المجاورة؛ لأن البلاغة حسب رؤية حمّادي صمّود لا تقف عند حدود دراسة آليات التأثير والتأثر، بل تتجاوز ذلك لدراسة المتغيرات التي استحدثت، ويمكن أن تنعكس على معطيات النص والخطاب وعلاقتهما بالواقع وبالمتخاطبين.

• يتناول مشروع حمّادي صمّود بعض القضايا النقدية المعاصرة التي تتعلق تحديدا بالقصيدة العربية المعاصرة، إضافة إلى طرحه بعض قضايا الأدب والمعلوماتية وما تثيره من أسئلة جوهرية تتصل بواقع الأدب في زمن الذكاء

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات
١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

الاصطناعي. وفحص هذه الرؤية يسهم في دفع الدرس البلاغي والنقدي إلى صفوف العلوم المتقدمة.

•ثمة خيطٌ يشدّ القضايا التي طرحها حمّادي صمّود ويؤلف بينها رغم تنوعها، يمكن القول إنها توسع في قضايا مشروعه الأم (التفكير البلاغي عند العرب)، وهي كما يقول محاولة لمواصلة الجهد، وإدمان النظر في قضايا أمهات، سبق أن طرحها، ولم تكن ظروف إنجاز المشروع الأول لتسمح بالتوسع فيها.

وحاولت الدراسة أن تحقق جملة من الأهداف، من أهمها:

•الإسهام في صياغة مفهوم للبلاغة يتجاوز النظام اللغوي إلى فضاء الخطاب، من خلال مداومة النظر والتنقيب في مشروع حمّادي صمّود والاستفادة من أصوله وامتداداته في إثراء المكتبة البلاغية العربية.

•تجاوز منهجية وصف الواقع البلاغي والنقدي العربي إلى صناعته، من خلال فحص ظاهرة علمية أسهمت في وضع اللبنات الأولى لبلاغة عربية لا تتنكر للقديم ولا تنبهر بالحديث.

•استغلال النسق البلاغي العربي بحمولاته ومعطياته في بناء نظرية معرفية تمتد جذورها في أرض التراث وتصل فروعها إلى الخطابات الحديثة بأنواعها.

•تقديم صورة منظمة عن النسق البلاغي العربي، تهدف إلى ربط الباحثين - وطلبة الدراسات العليا تحديدا- بتراثهم ووصلهم بحضارتهم، والمساعدة على إدراك مستجدات الساحة البلاغية والمعرفية من خلال رصد ومناقشة أنموذج حمّادي صمّود وواقعه المعرفي.

أما مشكلة هذه الدراسة فتكمن في تصور مؤداه، أن ثمة محركات وموجهات فكرية تؤثر في مسار الدرس البلاغي والدرس النقدي، تروم توجيههما توجيها يؤسس مجرى مغايرا؛ يلتقط التيارات الحديثة ولا ينعتق من القديم. ويمثل حمّادي صمّود أنموذجا له أثره في توجيه مسارات الدرسين. فقد رام حمّادي صمّود الخروج عن دائرة التوظيف الأدبي إلى مجالات أخرى لا يقل فيها حضور المجال

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

البلاغي عن الأدبي، مؤكدا أن من أهم وظائف البلاغة اليوم تجسير الهوّة وتقليص المسافة بين البلاغة والخطاب.

من جانب آخر إنّ هذه المحاولة تؤكد تلازم التراث والحداثة، حيث يحملهما الفكر (لا عن اختيار ورضى إنما عن وجود وصيرورة تاريخ)، فمزج القديم والحديث أمر لازم خارج عن اختيار الباحث، ويمثل هذا الإشكال فجوة معرفية أتاحت للباحثة فرصة البحث والتفتيش في نظام الخطاب البلاغي والنقدي وما ينضوي تحته من وسائل وأدوات ومنهجيات في التعامل مع الخطاب عند حمّادي صمّود.

وتأسيسا على ما سبق، فقد حاولت الدراسة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ماهي المرجعيات الفكرية المؤطرة لمشروع حمّادي صمّود؟
- ماهي المنطلقات المعرفية التي انطلقت منها رؤية حمّادي صمّود؟
- كيف يمكن تصنيف المراحل الفكرية ورسم تشكلات المسار المعرفي التي مرّت بها رؤية حمّادي صمّود البلاغية والنقدية؟
- ما نوع العلاقة التي تربط بين البلاغة والنقد، وكيف يمكن وصف هذه العلاقة وتقييمها حسب رؤية حمّادي صمّود، ثم حسب معطيات الدرس النقدي والبلاغي الحديث؟
- ماهي المكونات المعرفية لبنية النظرية الأدبية عند العرب حسب تصور حمّادي صمّود؟
- ما العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبية الحديثة حسب رؤية حمّادي صمّود، أتقوم على التكامل أم على التوريث كما ذهب بعض النقاد المعاصرين؟
- ما الفرق في نظر حمّادي صمّود بين البلاغة العربية والخطابة الأرسطية، وما السبب المعرفي الذي دفع حمّادي صمّود إلى التمييز بين هذين المفهومين؟

ومع كثرة الدراسات التي تناولت ملامح تجديد البلاغة العربية، والدراسات التي بحثت الاتجاه الأسلوبي، والاتجاه الحجاجي في مشروع حمّادي صمّود، إلا أنها لم

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

تخرج عن حدود هذين الاتجاهين، ومن هنا فإن الدراسة حاولت ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، سد الفجوة المعرفية في هذا النطاق. ومن هذه الدراسات:

•(حمّادي صمّود وآخر أحفاد الرومنطيقيين: قراءة في "من تجليات الخطاب الأدبي")، عادل خضر، بحث نُشر في مجلة المسار، اتحاد الكتاب التونسيين، ٢٠٠٠م.

بينت هذه الدراسة أن المفاهيم التي أسس عليها حمّادي صمّود خطابه، هي مفاهيم تدور في فلك النظرية الرومنطيقية. فجاء مجال التفسير في خطابه يتألف من محورين دلاليين؛ الأول لوصف الكلام العادي وتفسيره، في حين جاء الآخر لوصف القول الشعري وتفسيره، وانتهت هذه الدراسة إلى القول إن نوع التفسير الذي توخاه صمّود في خطابه النظري على وجه الخصوص، هو التفسير الآني، أو المحايثي؛ ذلك أن صمّودا يتعامل مع مظاهر الشعرية داخل النص، لا خارجه، تأثرًا بالمقولات اللسانية.

إن ما قدمته تلك الدراسة، ساعد الباحثة في تحديد بعض المفاهيم التي وظفها حمّادي صمّود في خطابه النظري في مختلف دراساته؛ فعلى الرغم من تعدد القضايا التي طرحها صمّود في مؤلفاته، إلا أن هناك جهازا مفاهيميا يؤلِّف بينها ويرسم حدودها.

•(قراءة في تلقي البلاغيين العرب للبلاغة الجديدة في العصر الحديث: حمّادي صمّود ومحمد العمري نموذجًا)، جلال مصطفاوي، دراسة نُشرت عبر المنظمة العربية للترجمة، العدد ٢٧، المجلد ٨، ٢٠١٦م.

عرضت هذه الدراسة الكيفية التي تلقى بها البلاغيون العرب المعاصرون مفاهيم البلاغة الجديدة، وانتهت إلى أنَّ تلقِّي حمّادي صمّود للبلاغة الجديدة كان إيجابيا؛ ذلك أن صمّود استثمر مضامين الأنموذج البلاغي الجديد الذي يقوم على الحجاج والحوار الإنساني البناء بما يتلاءم مع روح العصر المتجددة، وزوّد القارئ العربي بمعطيات البلاغة الجديدة ومفاهيمها وتياراتها، وهذا يعدّ مكسبا نظريا، وفي

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المقابل ظل الاحتكاك بهذه المعطيات محدود الآفاق يقاس عليه بالعودة إلى التراث البلاغي العربي.

• (مسالك الحجاج في البلاغة العربية عند الدكتور حمّادي صمّود أنموذجًا)، جعفر عبد الصاحب عبد الهادي، بحث نُشر في مجلة جامعة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العدد ١، ٢٠٢٠م.

كشفت الدراسة عن أبرز التمظهرات الحديثة للبلاغة العربية، من خلال ما قدّم حمّادي صمّود، وذلك عن طريق المزج بين المعطيات التراثية والحديثة، وانتهت إلى القول إن قراءة حمادي صمود جاءت متكئة على ثنائية التراث والحداثة، فانطلق مشروعه من كتب التراث لكنه استعمل أدوات حديثة متأثرة بفعل الاحتكاك الحضاري بين المؤسسة الجامعية التونسية والمؤسسة الجامعية الفرنسية.

وكما يظهر فقد تركز الجهد المبذول في الدراسات السابقة على زاوية النظر الحجاجي في الغالب، -باستثناء دراسة الباحث عادل خضر- دون البحث في الخلفيات الفكرية، والأصول المنهجية التي صدرت عنها هذه القراءة، ودون التعامل مع المشروع بشكل شمولي وكلّي، يساعد في تقديمه للباحث البلاغي على أنه أنموذج متكامل لبلاغة عربية جديدة ترتد أصولها إلى النصوص المؤسسة، وتمتد فروعها إلى مختلف الأنماط والمقاربات الخطابية المتجددة، فجاءت هذه الدراسة متكفّلة ببسط هذه الموضوعات وغيرها مما خلت منه الدراسات السابقة ومناقشتها.

أما منهج الدراسة، فيعالج في حدود المنهج الاستقرائي، القائم على سبيلين من سبل المعرفة العلمية؛ الجزئي، والكلي، فيكون البحث من الظاهرة الجزئية للحكم الكلي العام، ثم يتأسس الحكم على الكلي، بناءً على وجوده في أكثر جزئياته، وحاولت الدراسة تطبيق هذا المنهج في رصد حركة الواقع المعرفي البلاغي والنقدي عند حمّادي صمّود، لوجود خيط يربط بين مؤلفاته، وخط محوري يدور حوله ذلك الواقع المعرفي.

وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن تأتي في مقدمة، وتمهيد، ثم ثلاثة فصول، تتبعها

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

خاتمة.

أمـا (المقدمـة)، فقـد تحـدثت فيهـا عـن أهميـة الموضـوع، ودوافـع الدراسـة، وعرضت لأهم الدراسات السابقة؛ لبيان مغايرة التناول، ثم بينت المـنهج الـذي سـارت عليه الدراسة، وبعد ذلك عرضت التقسيم الذي سارت الدراسة عليه.

وفي (التمهيد)، تحدثت عن قراءة المعطى البلاغـي والنقـدي، سـؤال فـي النشـأة والتطور.

أما (الفصل الأول)، فتناولت فيه السـياق الثقـافي، وأصـول الاتجـاه البلاغـي، وفيـه مبحثان:

المبحـث الأول: خصصـته للحـديث عـن مرجعيـات الفكـر، وأصـول التفكيـر عنـد حمّادي صمّود؛ لبيان أثر هذه المرجعيات فـي بنـاء شخصـيته العلميـة، وفـي توجهاتـه البلاغية والنقدية.

المبحث الثاني: جعلته للحديث عن الحدود والمفاهيم التي حدّ بها حمّادي صـمّود مشروعه، وعبر فيها عن تصوراته وفهمه إزاء المفاهيم البلاغية والنقدية.

أما (الفصل الثاني)، فقد جـاء للحـديث عـن جملـة المقـولات الرئيسـة والفرعيـة التـي انطلقـت منهـا قـراءة حمّـادي صـمّود، وأطلقـت عليـه (سـؤال المـنهج ومقـولات القراءة)، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: عرضت وناقشت فيه حدود المنهج، ومقـولات القـراءة التراثيـة؛ لبيان أهم المقولات التي استقاها حمّادي صمّود من التراثين البلاغـي والنقـدي، والتـي شارك فيها برأيه، مؤسسًا لمشروعه خلفيةً علميةً أصيلةً، متجذرةً في التراث.

المبحث الثاني: أطلقـت عليـه (تحيـزات المـنهج فـي القـراءة الأسـلوبية)، وجـاء عارضًـا محلـلًا لإشـكالية التحيـز أولًا، ثـم قارئًـا للسـياق المعرفـي الحاضـن لمشـروع صمّود الأسلوبي، مستخرجًا أبرز المقولات اللسـانية، والمبـادئ الأسـلوبية التـي بُنيـت عليها هذه التحيزات.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المبحث الثالث: أطلقت عليه (تحولات المنهج في مقولات القراءة الحجاجية والانفتاح على تحليل الخطاب)، تناولت فيه السياق المعرفي لبلاغة الحجاج، ثم تصورات حمّادي صمّود في نظرية الحجاج؛ قصد معالجتها، ومناقشتها، وبيان أثرها في توجيه مسار الدراسات البلاغية العربية الحديثة.

أما (الفصل الثالث)، فقد خصصته للحديث عن المسار النقدي الذي شارك فيه حمّادي صمّود النقاد العرب همومهم العلمية، وجعلته موزعًا طبقًا لمقتضيات المنهج بين التنظير والتطبيق، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: سؤال النقد ومقتضيات القراءة النقدية، وعالجت فيه جملةً من المفاهيم النقدية التي قام عليها الاتجاه النقدي، كما عرضت وناقشت فيه موقف حمّادي صمّود من بعض المقاربات النقدية؛ قصد الإسهام في استكمال مشروعه الذي أفادت منه الساحة البلاغية والنقدية.

المبحث الثاني: جاء محلًا لمحاولات صمّود التطبيقية، من خلال (استدعاء الشابي والكشف عن الوظائف الشعرية)، وتجلت فيه الصورة البلاغية والنقدية مكتملةً في مشروع حمّادي صمّود.

أما (الخاتمة)، فقد جاءت رصدًا لأهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

ولا يسعني في نهاية هذه المقدمة إلا أن أتقدم بوافر الشكر والتقدير لسعادة المشرفة على هذا العمل، الأستاذة الدكتورة: سعاد بنت فريح الثقفي؛ فقد كانت أختًا معلمةً، متفانيةً مخلصةً، لا تضن بنصحها وتوجيهها؛ فجزاها الله عني وعن طالباتها خير الجزاء.

كما أقدم عظيم شكري وامتناني لسعادة الأستاذ الدكتور: هاني فراج أبو بكر، الذي رعى هذه الفكرة منذ أن كانت بذرةً، فكتبت في حضوره خطة هذا العمل، وحاورت الموضوع مرارًا على مسمع منه، فكان نعم الأستاذ، والمرشد، والموجه، واسأل الله أن يُجزِلَ له الأجر كما أجزل لنا عطاءه العلمي.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

ثم أقدم وافر الشكر لكلية اللغة العربية بجامعة أم القرى، ولعمادة الدراسات العليا، ولجامعة أم القرى؛ حيث أتيحت لي فرصة مواصلة الدرس والبحث، والوصول إلى هذه المرحلة.

ولا يفوتني أن أتقدم بخالص الشكر إلى الكلية الجامعية بالقنفذة، وإلى قسم اللغة العربية بها؛ فقد تهيأت لي بموافقتهم وتعاونهم، فرصة إكمال الدراسة، والتفرغ للبحث، سائلةً العلي القدير أن يعينني على ردّ الجميل.

كما أتقدم بوافر الشكر لسعادة الأعضاء الذين تفضلوا بالموافقة على مناقشة هذا العمل، طالبةً الفائدةَ منهم، وسائلة العلي القدير أن يجزل أجرهم.

وأخيرًا.. لا أقول إلا كما قال الرافعي: على أنَّا مع ذلك استفرغنا الهمَّ، والتمسنا كل ملتمس، وبَرئنا إلى النفس من تبعة التقصير فيما يبلغ إليه الذرع، أو تناله الحيلة، فنهضنا لذلك الأمر نَهضا، وسَبكنا فيه سبكًا مَحضًا، فإن قصرنا فضعف ساقه العجز إلينا، وإن قاربنا فذلك من فضل الله علينا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

"لقد كان حلمنا نحن الذين لم يلحقنا شرف النضال من أجل الاستقلال أن نساهم بسخاء في بناء ثقافة وطنية قومية أصلها ثابت وفرعها في السماء، وكنا نحلم في أحضاننا بلدنا، ونحلم بأن نصل به مرفوعا على أيدينا، وعلى صلب عزمنا، إلى آفاق وذرى عالية شاهقة، في كبد السماء.

.. فكان مشروعنا الأوكد قراءة التراث العربي واستحضار المواطن اللافتة فيه، متوسلين بلغة العصر ووسائله في النظر والتحليل؛ لنقوم بين تراثنا وبينه جدلية خصبة ولود، تقصي الجحد والمفاخرة الجاهلة، وأحكام التفاضل النابعة من عقدة التابع والمتبوع".

حمادي صمّود.. في نظرية الأدب عند العرب ١٩٨٨م.

التمهيـــــد

قراءة المعطى البلاغي والنقدي:
سؤال في النشأة والتطور

وفيـــــــه:

- أولاً: نشأة البلاغة العربية والسؤال المعرفـي.
- ثانيًا: الواقع البلاغي المعاصر ومساءلة السؤال.

أولاً: نشأة البلاغة العربية والسؤال المعرفي

لا تخفى أهمية وجود السؤال في نشوء العلوم والمعارف، وفي تطويرها أيضا؛ إذ ترتبط العلوم منذ وجودها بهاجس الإجابة عن سؤال مطروح، أو مجموعة من الأسئلة، ويقرّ الواقع المعرفي أن العلوم لا تكتفي بإجابة واحدة، بل تتعدد الإجابات تعدُّد الآراء، والتصورات، والرؤى، وتتوالد الأسئلة عن هذه الإجابات، ولربما يصل العلم إلى مرحلة يُساءَل فيها عن نفسه، فيُطرح سؤال من قبيل ما البلاغة؟

هذه المرحلة التي وصلت إليها البلاغة اليوم في ظل وجود أسئلة معرفية متعددة متشعبة، تجعل العلم يعيش حركةً دائمةً، وصيرورةً متجددةً، ترتبط في معظم حياة العلم بأسئلة العصر، وبملامحه، وبظروفه المختلفة، هكذا تتأسس المعارف والعلوم على السؤال؛ ليكون "أساس المعرفة وصيرورتها، به تستخرج، وعلى أساسه تُفَك قيود الكمون فيها، وإن كان لكل جواب سؤاله بالضرورة، فليس هناك في المقابل لكل سؤال جوابه، على أن طرح السؤال في حد ذاته يُعَدُّ جوابًا بمعنى ما، أو هو على الأقل أول الطريق نحو الحقيقة"[١].

إذن، لم تكن البلاغة العربية في روافدها الأولى قبل الإسلام، غريبة عن هذا السؤال، بل إن الأسئلة البلاغية "تزداد، وتتوسع بتوسع المعرفة والتفاعل مع بيئات أخرى، الأسئلة الواردة تزعزع تطابق الكائن مع بيئته، بل مع نفسه، وتساهم في تكييف تصوره"[٢]، ويمكن القول إن البلاغة العربية قد تشكلت في إطار الإجابة عن ثلاثة أسئلة مركزية قد تتداخل أحيانًا بسبب الطبيعة التراكمية التي يتطور بها العلم،

(١) منير مهادي، النقد والمنهج: من السؤال إلى المساءلة، (الجزائر: مجلة جامعة عمار ثليجي بالأغواط، ع٥٣، ٢٠١٧م)، ص١١٩.

(٢) محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، (المغرب: إفريقيا الشرق، ٢٠١٣م)، ص١١٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وهذه الأسئلة هي:

١- سؤال البيان.

٢- سؤال الإعجاز.

٣- سؤال الانزياح.

أولاً: البلاغة العربية وسؤال البيان:

لقد ارتبطت البلاغة العربية منذ نشأتها بسؤال البيان، فكانت تبحث عن السبب الذي يميز بيانًا عن بيان، مرتبطةً بمعرفة العرب اللغوية، تلك التي يمكن القول معها إن البلاغة ملكة فطرية[١]، يغذيها السماع، والنسج على المنوال، يتجلى ذلك في الملاحظات التي يسوقها الشعراء والمتذوقون للشعر، وهي -كما يذهب شوقي ضيف- أصل الملاحظات البيانية في بلاغتنا العربية، فيجد الدارس في اهتمامهم بشتى أنماط الصور الفنية، وفي استدعائهم المقابلات والجناسات، "دلالةً واضحةً على أنهم كانوا يُعنَوْن عنايةً واسعةً بإحسان الكلام، والتفنن في معارضه البليغة"[٢].

ثم إذا تجاوزنا هذه المرحلة، يمكن أن نلحظ بشكل أكثر جلاءً، أن هذه العناية أخذت تنمو مع ظهور الإسلام؛ إذ إن نزول القرآن كان كفيلًا أن تتجه نحوه تساؤلات العلم البلاغي بوصفه المحور، والهدف الذي دارت حوله معظم العلوم العربية، "أما القرآن فكانت آياته تُتلَى في آناء الليل وأطراف النهار، وأما الرسول فكان حديثه بليغًا على كل لسان"[٣]. فجهد العرب في محاولات فهمه وتفسيره، وكشف وجوه إعجازه؛ حيث أدركوا أنه (معجزة)؛ فهو القول الذي لا يشابهه قول، ولا يناظره أي نظم، وهو الذي تحداهم بأن يأتوا بسورة مثله، (ۋۇۈېېىىئائەئوئوئۇئۇئۆئۆئو ئۇئې) [سورة البقرة: الآية

(١) يُنظر: محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص١٨.

(٢) شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، (مصر: دار المعارف، ط٨، ١٩٩٢م)، ص١٣.

(٣) نفسه، ص١٣.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

٢٣]، ففاق القدرة، وخرج عن الطاقة، فكان أن وجه العرب اهتمامهم نحو معرفة بيان القرآن الكريم. ولأهمية هذا العلم وضرورته، أخذ عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) في القرن الخامس يحذر من مغبة الزهد في تعلم البيان، كما كان يطلق على البلاغة، وجعل الذي يصد الناس عن هذا العلم كمن يصدهم عن تعلم كتاب الله، فتراه يقول: "والذي لا يُشك أنه كانَ ميدانَ القومِ إذا تجارَوْا في الفَصاحة والبيان، وتنازَعوا فيهما قَصَبَ الرِّهان، ثم بَحث عنِ العِلل التي بها كانَ التباينُ في الفَضْل، وزادَ بعضُ الشعر على بعضٍ، كان الصادُّ عن ذلك صادًّا عن أَن تُعرَف حجةُ الله تعالى، وكان مَثَلُه مَثَلَ مَن يتصدَّى للنّاسِ فيمنعُهم عَن أنْ يحفظوا كتابَ الله تعالى، ويقوموا به، ويتلوه ويُقرِئُوه، ويصنعُ في الجملةِ صَنيعًا يؤدِّي إلى أَنْ يَقلَّ حُفَّاظُه، والقائمونَ به، والمُقرئون له"(١).

وفي المقابل اجتهد العرب لمعرفة معاني القرآن ودلالاته؛ لفهم المقتضى الديني؛ فتطبيقه كما أمر الله، وأرشد نبيه محمد ﷺ، ثم إن السؤال عن الوجه البلاغي في بلاغته ﷺ كان من الأصول المؤسِّسة لهذا العلم؛ فكلامه هو الكلام الذي "غشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، يبذّ الخطب الطوال بالكلام القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق... ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا، ولا أقصد لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح معنًى، ولا أبين في فحوى، من كلامه ﷺ كثيرا"(٢).

(١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، (القاهرة: مطبعة المدني، ط٣، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ص٨.

(٢) عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: حسن السندوبي، (بيروت: دار إحياء العلوم، ١٤١٤هـ)، ج٢، ص١٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

إن هذه الأسئلة المطروحة صريحةً كانت أو ضمنيةً، لم تكن ذات طبيعة واحدة؛ فقد توزعت "بين أسئلة عقائدية، ومعرفية، لكن أهم سؤال هو السؤال البياني، والأجوبة التي تحصل عليها العرب تمكننا من الكشف عن المعيار الذي احتكموا إليه في تبيان علو القرآن الكريم، وتفوقه على ما ألفه العرب من شعر، وخطب، وسجع كهان، وهذا المعيار الذي نتكلم عنه، هو أول خطوة في الوعي بالبلاغة، واعتبارها معرفةً فاحصةً، وعلمًا وصفيًّا من شأنه التأطير النظري للملفوظ؛ تخييلًا وتداولًا"(١).

وهكذا أصبحت نشأة البلاغة العربية مدينةً للقرآن الكريم، وللبيان القرآني بشكل أخص، ممثلة لأعمق أشكال السؤال المعرفي الذي يرتبط بالعصر، وبقضيته، ثم من حيث تعدد التصورات والإسهامات تعددت الإجابات وتباينت، بل وتضاربت أحيانا، من هنا أخذت دائرة الدرس البلاغي تتسع حتى وصلت إلى أكثر مراحل حياتها نضجًا مع ظهور البيئات الكلامية، والأحزاب السياسية، التي أخذ أصحابها "يتجادلون في جميع شؤونهم السياسية والعقيدية، فكان هناك الخوارج، والشيعة، والزبيريون، والأمويون، وكان هناك المرجئة، والجبرية، والقدرية، والمعتزلة... فكان طبيعيًّا أن ينمو النظر في بلاغة الكلام، وأن تكثر الملاحظات المتصلة بحسن البيان، لا في مجال الخطابة والخطباء فحسب، بل أيضًا في مجال الشعر والشعراء"(٢).

وعلى هذا يمكن ملاحظة أن الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) صاحب نظرية البيان، وصاحب النصوص المؤسسة للدرس البلاغي العربي، التي نال بها الجاحظ مكانة "أول مفكر عربي نقف في تراثه على نظرية متكاملة تقدر أن الكلام، وهو المظهر العملي لوجود اللغة المجرد، ينجز بالضرورة في سياق خاص يجب أن تراعى فيه، بالإضافة إلى اللغوية المحضة، جملة من العوامل الأخرى ؛كالسامع، والمقام،

(١) محمد عبد الرزاق بو عافية، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة من خلال مشروع محمد العمري، (الجزائر: مذكرة ماجستير، جامعة محمد لمين دباغين، ٢٠١٥م)، ص٢٧.

(٢) شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص١٦.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

وظروف المقال، وكل ما يقوم بين هذه العناصر غير اللغوية من روابط"[١]، والجاحظ لم يكن مؤسسًا لنظرية بيانية لغوية فحسب، بل أسس لنظرية بيانية تُعَدُّ نظريةً معرفيةً رسم منها علمًا متماسكًا متكاملًا[٢]، فحصر البيان في الفهم والإفهام، ووسع أصناف الدلالة؛ لتتسع للفظ وغير اللفظ، إلا أن السؤال المتاح في ذلك العصر لم يسمح لنظرية الجاحظ أن تجد صداها، إنما شاعت ودُرست وفق سؤال العصر، وهو السؤال البياني، وركز البلاغيون من بعده على نظريته البيانية اللغوية، وبتعبير العمري، "لقد خنقت البلاغة طموح مشروع البيان عند الجاحظ باعتباره نظرية للمعرفة، فلم يبق منه غير الخطة الأولى، والطموح الشخصي"[٣]، إلا أن الدرس العربي المعاصر قيض فكره لفك الخناق عن ذلك المشروع، فاكتسحت تصورات الجاحظ الساحة البلاغية العربية، مستفيدةً من نصوصه في التأصيل والقراءة لكثير من المفاهيم البلاغية، والمقاربات النقدية الحديثة[٤].

ثانيًا: البلاغة العربية وسؤال الإعجاز:

يتبين مما سبق الدور الكبير الذي قدمه القرآن الكريم في إثارة الكثير من الأسئلة المعرفية التي حرص العرب على بحث أجوبتها، واختصوها بعناية، فأنشؤوا

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط٣، ٢٠١٠م)، ص١٨٤.

(٢) يُنظر: أحمد غنام، فلسفة النقد عند الجاحظ، (سوريا: دار العراب، ٢٠١٩م)، ص٣٣.

(٣) محمد العمري، أسئلة البلاغة في التاريخ والنظرية والقراءة، ص١١٤.

(٤) نشير في هذا الصدد إلى دراسة قدمها الباحث محمد عبد البشير مسالتي، موسومة بـ: الجاحظ في قراءات الدارسين المحدثين، (الجزائر: جامعة سطيف، ٢، ٢٠١٤م)، ركزت هذه الدراسة على المتصورات الجوهرية لما عُرف بقراءة القراءة، لقراءة النصوص النقدية التي قرأت نصوص الجاحظ، لا على نصوص الجاحظ نفسها، انطلق فيها من فرضيات نظرية التلقي وتقنيات نقد النقد، يروم منها استكشاف طريقة توظيف النص الجاحظي في كتابات النقد المعاصر.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

النحو؛ ليعين على صحة تلاوته، وحاولوا تبيين عروبة كلماته، وفصاحتها، وأنه لسان عربي مبين، وكما يذكر تمام حسان إذا كانت العرب قد أقرت بهذا الإعجاز؛ لقصورها عن الإتيان بمثل ما جاء به القرآن، فإن هذا العجز لم يكن أكثر من دليل عملي يعوزه إيضاح أسباب هذا الإعجاز ومقوماته، ويفتقر إلى المعرفة النظرية التي تُعَدُّ مطلب كل علم، "ومن هنا هرع علماء العربية، واللغة، وأصحاب النظر العقلي، والغيرة الإسلامية، إلى التساؤل عن سر هذا الإعجاز... وكان لا بد للسلف من العلماء أن ينحوا في الكشف عن الإعجاز القرآني، منحى آخر غير الذي عرفوه في العربية واللغة"(١).

وهنا يمكن استحضار دور علماء الكلام بشكل خاص في تطوير السؤال البلاغي الذي يأتي متسقًا مع منازعهم الدينية، وعقائدهم؛ فهم الذين أعادوا النظر في مسألة المجاز في علاقته بالمتكلم، ومن هنا أخذت البلاغة تُعمِّق البحث في المجاز "ولكنها أخذت ضمنه الحرج في نسبة الفعل إلى غير فاعله الحقيقي"(٢)، وهنا يظهر الانتقال من "خطاب (المتكلمين البلاغيين) إلى خطاب (البلاغيين المتكلمين) بالانتقال من جهود الخطابي، والرماني، والباقلاني، والقاضي عبدالجبار، إلى تصور عبدالقاهر الجرجاني"(٣)، فما زال الجدال قائمًا حول القرآن الكريم، وإن اتسعت وتعددت أشكاله، حيث يقسمه أحد الباحثين إلى أشكال جدالية ثلاثة: (جدال حول مضامين القرآن وأحكامه، وجدال حول القرآن باعتباره معجزة الرسول ﷺ، وجدال بين القرآن الكريم والأفكار الأجنبية)(٤)، وفي الجدالين الثاني والثالث تتشكل الأسئلة

(١) تمام حسان، الأصول دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب النحو- فقه اللغة- البلاغة، (القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٩م)، ص٢٧٣.

(٢) محمد العمري، أسئلة البلاغة في التاريخ والنظرية والقراءة، ص١١٥.

(٣) نفسه، ص١١٥.

(٤) يُنظر: محمد عبد الرزاق بو عافية، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة من خلال مشروع محمد العمري، ص٢٣.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

البلاغية؛ ليتسع إطار السؤال البلاغي، وتمتد حدوده من السؤال الإعجازي، ومكمن البيان وسببه، إلى أنماط الخطابات الإقناعية، أو السؤال الإقناعي، قصد تحقيق الأهداف التي تنشدها هذه الفرق. ودأبت الدراسات البلاغية على تقديم دور المعتزلة على وجه الخصوص، الذين استعانوا بآراء الأمم الأجنبية في البيان والبلاغة، وإن لم يقصدوا تمثلها، فإنهم راموا الموازنة بينها وبين تصورات العرب في بلاغة الكلام؛ ليضعوا قواعد البلاغة العربية، وقوانينها التي تنسجم مع مقاصدهم الذاتية[١]، وهذا من أبرز الأسباب التي جعلت دارسين على رأسهم حمّادي صمّود، يرون أن بلاغة الجاحظ قد طُبعت بطابع ظرفي خاص، أدت إليه جملة من العوامل، كان من أبرزها بحث المتكلمين والبلاغيين عن جنس كلامي يحقق مقاصدهم النفعية، في إطار البيئة الفكرية، والسياسية، والاجتماعية، فكان التعويل في هذه الحقبة على الجنس الخطابي؛ فقد وجدوا "في الخطابة شكلًا لغويًا ملائمًا لمناظراتهم ومجادلاتهم؛ لذلك اعتنوا بحذق أصولها، وتعلمها، وتعليمها ناشئتهم، ومن ثَم شاركوا بنصيب وافر في تأصيل نظرية الخطاب في التراث العربي الإسلامي"[٢].

لقد طبعت هذه الحقبة الدرس البلاغي بطابع خاص، وفتحت الباب لكثير من الأسئلة المرتبطة بالمجال الحجاجي والإقناعي، التي وإن خَفتَ ضوؤها في فترة من فترات العلم، فإنها ستصاحبه ضمنًا بحضورها في أذهان البلاغيين حين أصَّلوا قواعد البلاغة، وستكون حاضرةً صراحةً في البلاغة المعاصرة التي أعادت النظر فيها، وعادت إلى مساءلتها، والبحث فيها من جديد، كما سنرى في الفقرات القادمة.

ثم سيولد ذلك السؤال الإعجازي اتجاهًا يعتمد على مفهوم الإعجاز، ومقارنة النص الإلهي بالنص البشري؛ لكشف وجه الإعجاز ومكمنه، وقد تبدى ذلك عند عبدالقاهر الجرجاني الذي جعل أسراره بحثًا في بلاغة البيان الإنساني حتى يدرك فيه

(١) يُنظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص٣٩.

(٢) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٧٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

أن أشرف أنواعه "ما كان فيه أجلى وأظهر، وبه أولى وأجدر، ومن ههنا يتبين للمحصل، ويتقرر كيف ينبغي أن يحكم في تفاضل الأقوال إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان، ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان"(١)، من هنا وجد عبدالقاهر مادةً غنيةً في الشعر الجاهلي يمكن عدها ذروة البيان البشري، والحد الأعلى لطاقات البشر، "وكان يقول إن الخبرة بمعادن البيان تفضي بك إلى معرفة طبقات الكلام، حتى ينتهي بك العلم إلى أن تعرف أقصى الطاقة الإنسانية... ثم تعرف بعد ذلك ما هو فوق ذلك الذي هو كلام الله"(٢)، وفي هذا الصدد يذكر محمد أبو موسى أن هناك أمرين لا يختلف فيهما من قرأ التراث البلاغي:

-الأول: أن عبدالقاهر هو من وضع قواعد البلاغة، وحدد أقسامها، ومن أدلته على ذلك أن الخطيب القزويني في كتاب الإيضاح -الذي يُعَدُّ رأس الدراسة البلاغية عند المتأخرين- يحيل في كل مرة إلى كتابي عبدالقاهر، يقول أبو موسى: "وقلت: إن البلاغة التي في شروح التلخيص أصلها في كتابي عبدالقاهر، والاختلاف اختلاف في طبائع المؤلفين، كالذي تراه بين السكاكي والخطيب القزويني... وكالذي تراه بين سعد الدين التفتازاني، وابن يعقوب المغربي، مع أن كلًّا منهما شارح للتلخيص، وقلت: إن الثناء على بلاغة عبدالقاهر والقدح في بلاغة التلخيص، تناقض"(٣).

-الثاني: أن البلاغة التي وضع عبدالقاهر أصولها، قائمة على أمر وحيد، وهو دراسة التلاؤم والتوافق بين العبارة في كل مستوياتها، والمعاني القائمة بالنفس بكل خفاياها، فقام الدرس البلاغي كله على فكرة النظم، بما هو ربط بين ظاهر الكلام الممثل في الصياغة والتصوير، وبين المعاني القائمة في الصدور، يجمعهما التوخي

(١) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، (القاهرة: مطبعة المدني، ط١، ١٤١٢هـ)، ص٤.

(٢) محمد محمد أبو موسى، مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط٢، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م)، ص٢٧.

(٣) نفسه، ص(ك).

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الذي "ليس له رسالة إلا رسالة واحدة، هي الإبانة عن المعاني القائمة في النفوس"(١)، وعمل البلاغيون بعد عبد القاهر على تحديد المبدأ حتى جعلوه كامنًا في (مطابقة الكلام لمقتضى الحال).

ثم إن هذا الهاجس البلاغي لا يمكن قصره على جهد علماء البلاغة، بل تقاسم ذلك طوائف متعددة من العلماء، منهم النحاة المؤسسون، وعلماء معاني القرآن، والمفسرون(٢)، والمتكلمون والمناطقة، والمحدثون والفقهاء؛ لذلك قال محمد أبو موسى إن "أصول الدرس البلاغي تجدها في أكثر علومنا، تجدها في كل كتب التفسير، وفي كل كتب الدراسات القرآنية، وفي كل كتب الحديث، وتحت كل موطن من مواطن استنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، وفي دراسة كل شعر"(٣)، ولأجل هذا التماهي والتجانس يجد حمّادي صمّود أن الجاحظ يكثر من نقولات عن أعلام من منازع شتى؛ ليعد بها "نظرية متكاملة في الخطاب، انطلاقًا من الظروف الحافة بإنجازه، إلى أن يستوي نصًّا فنيًّا نافعًا ناجعًا"(٤)، ولأجل ذلك أيضا كان حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) يَعُدُّ البلاغة علمًا كليًّا "يستند إلى علوم أخرى لا بد من تحقيق الكفاية منها قبل اقتحامه"(٥)، تلك العلوم المتعلقة بالخطاب أيًّا كان نوعه، ومهما كانت إسهاماته في تفكيك الخطاب وتحليله، أو تفسيره وتأويله.

(١) محمد أبو موسى، مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، ص(ك).

(٢) يُنظر: عبد الله بن عبد الرحمن بانقيب، مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز من الرماني ٣٨٦هـ إلى عبد القاهر الجرجاني ٤٧١هـ، (الرياض: دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٠هـ)، ص٢٥.

(٣) محمد محمد أبو موسى، مراجعات في أصول الدرس البلاغي، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط٣، ١٤٣٧هـ)، ص٥.

(٤) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٧٧.

(٥) محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص١٢.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

ثالثًا: البلاغة العربية وسؤال الانزياح:

مـع تطـور الحضـارة العربيـة، والاتصـال بالثقافـات الأجنبيـة، وتطـور الفنـون الأدبية شعرًا ونثرًا، تتعدد وتكثر الأسئلة، وتتسع الملاحظـات البلاغيـة حـول بلاغـة الكلام، وصوره الفنية، وأنماطه التعبيرية، اعتمد العلم في ذلك علـى مـا خطـه الكُتَّـاب أصحاب الذوق المترف، المنغمس في الحضارة، وعلى ما صنعه الشـعراء المتـأثرون بحياتهم الحضارية والعقلية(١)، فاتجه السؤال نحو الخصائص الشعرية الجديدة، وكـان لذلك النزوع إلى التجديد دوره في جعل الآلـة البلاغيـة توسـع السـؤال حـول المعيـار، وسيشارك الدرس النقدي بدوره في تحديد هذه المعـايير. إن هـذه الحقبـة تحديـدًا أهَّلَـت الدرس البلاغي لطـرح أسـئلة سـتكون مـدار الـدرس لقـرون طويلـة، تأسيسًـا علـى أن البلاغة تؤدى مـن خـلال مفهـوم الانزيـاح، ومفارقـة الـنمط المـألوف. والانزيـاح عنـد البلاغيين والنقاد يعني أن وراء كل صـورة لفظيـة إبداعيـة أو شـعرية، صـورةً سـابقةً تنزاح عنها، "ولكن الصورة المثلى للانزياح، الصورة التي تشخصه أكثر من غيرهـا، هي صورة المجاز، أي العدول عن صيغة في التعبير إلى صـيغة أخـرى؛ لمشـابهة أو ملابسة تسمح بتذكر المعـدول عنـه، وتجعـل استحضـاره ضـروريًّا"(٢)، وهـذا سـيحدو بدوره السؤال البلاغي للوقوف مطولًا عند المجـاز بوصـفه مـن أمهـات المسـائل التـي تتفرع عنها قضايا متعددة في البيان؛ وما السبيل إلى معرفـة البيـان إلا "الوقـوف علـى ما كـان مـن المعـاني حقيقـةً، ومـا كـان منهـا مجـازًا"(٣)، ومـن ثَـم فقـد تـأثر التصـور المجـازي بالتيـارات الفكريـة واللغويـة التـي ازدهـرت منـذ وقـت مبكـر فـي بيئـات المتكلمين، وسيكون له بعد هذا أثره في القرون المتأخرة من ناحية القـول بالمجـاز، أو منعه، وفي فلسفة المجاز بشكل عام في الفكر العربي الحديث.

---

(١) يُنظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص٢٢ وما بعدها.

(٢) محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص١١٩.

(٣) لطفي عبد البـديع، فلسـفة المجـاز بـين البلاغـة العربيـة والفكـر الحـديث، (جـدة: النـادي الأدبـي الثقافي، ط٢، ١٤٠٦هـ)، ص٥.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات
١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

وعلى كُلٍّ فقد قام السؤال البلاغي على مفهوم الانزياح الذي بدا من خلال جوانب متعددة، يجملها أحد الباحثين على النحو الآتي[١]:

-حديث البلاغيين والنقاد عن مراتب العلوم، وفصل العلوم المتصلة بقواعد الاستخدام اللغوي الصحيح في (اللغة، والصرف، والنحو)، عن علم الفصاحة والبلاغة، ويندرج ضمن ذلك حديثهم عن انفصال أهداف النحاة عن أهداف البيانيين.

-دراستهم خصائص الكلام البليغ، وما يتميز به من وظائف جمالية تفصله عن المستوى اللغوي العادي، الذي يهدف إلى التوصيل فقط.

-حديثهم عن الفرق بين الشعر والنثر؛ فلغة الشعر نموذج للغة الأدبية، يصفها ويصف ما يميزها عن لغة النثر التي تمثل في هذا السياق المستوى العادي من اللغة.

-ويندرج ضمن السابق، حديثهم عن الضرورات الشعرية، أو الرُّخص، وهي تتناول مجموعة الممكنات التي تباح للشاعر دون الناثر، من غير أن يؤخذ عليه مأخذ.

وهكذا نلاحظ أن سؤال الانزياح نشأ في أحضان البيئة النحوية، ثم أثير في سياق البيئة البلاغية التي ركزت بدورها على المقام، وما يستدعي النمط المغاير من الكلام، أو ما يتطلب عملية الانزياح، ويلاحظ محمد العمري هنا ملاحظة دقيقة، مفادها أن السؤال البلاغي يتكون من نصفين؛ نصفه الأول في سؤال الانزياح، ونصفه الثاني في سؤال المقام، أما النصف الأول فأثارته بيئة النحو بشكل غير مقصود لذاته، أما سؤال المقام فقد أثير في بيئة منطقية تدفعها هموم معرفية، وحجاجية، وإقناعية؛ "فالمجالان الانزياحي والمقامي متقاطعان بقدر ما هما متمايزان، وإنما العبرة بانفصال نواتيهما، واستقلال عاصمتيهما"[٢].

وهكذا، فإن من يتأمل الجانب التاريخي للبلاغة العربية يجد "الحجة القاطعة

(١) يُنظر: أسامة محمد بحيري، تراثنا البلاغي والمناهج الحداثية دراسات مقارنة، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٦م)، ص٤٤.

(٢) محمد العمري، أسئلة البلاغة في التاريخ والنظرية والقراءة، ص١١٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

علـى أن البلاغـة كانـت دائمًـا ذات جنـاحين؛ جنـاح شـعري، وجنـاح خطـابي، جنـاح تخييلي، وجناح تداولي"[1]، إن هذا التاريخ سيفتح للبلاغة المعاصـرة إمكانـاتٍ متعـددةً من النظر البلاغي، واتجاهاتٍ مختلفةً ترتد في الغالب إلى ذات الأسئلة، وهذا ما تـروم الدراسة بحثه في المحور القادم.

(١) نفسه، ص٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

ثانيًا: الواقع البلاغي المعاصر ومساءلة السؤال

إن عمليـة البحـث فـي بنـى النصـوص والخطابـات، والكشـف عـن معانيهـا، ودلالاتها الظاهرة والخفية داخل الخيوط الصوتية والأنسجة التركيبية، عمليـة مستمرة لا تتوقف، ولا تكتفي بنمط واحد، أو مقاربة واحـدة، والـذي لا شـك فيـه، أن لتحـولات الحضارة البشرية دورها في تحول الدراسات الإنسانية، والنقديـة منهـا بشـكل خـاص، تلك المقاربات القارئة، والمفسرة للخطابات التي ستتحول هـي بـدورها نتيجـةً للتحـول الحضاري، والفكري، والثقافي.

ومـن يتأمـل التـراث النقـدي، سـيلاحظ أن المحـاولات المسـتمرة كانـت تـروم استظهار شعرية الشعر في طابعه العربي المميز، "فلا تخفى الجهـود النقديـة المبذولـة منذ القرن الثاني الهجـري، وجهادهـا المشـروع فـي بنـاء منظومـة معرفيـة تتسـق مـع مقتضيات الظرف التاريخي، والحضاري، والفكري، للمدونة النقديـة عنـد العـرب"[1]، وهذا يؤكد أن فكرة ملاءمة السؤال المعرفـي للسـؤال الحضـاري، فكـرة حاضـرة فـي أذهان العرب منذ القدم، بل هي سنة من سنن الفكر.

ومن هنا فإن القيمة الأدبية التـي يـروم الـدرس البلاغـي والنقـدي البحـث عنهـا، ستتحول وتتبدل من حين إلى حين، ومن عصر إلى عصر، لكن الحديث عـن تحـولات القيمة في مسارات الفكر البلاغي والنقدي العربي، لم يعد يقتضي الحديث عن المعايير التي يستند إليها البلاغيين أو النقاد في إصدار أحكامهم النقدية، بل تقتضي القيمة اليـوم أن يحدد النص أو الخطاب مدخله، والمقاربـة الملائمـة لقراءتـه وتفسـيره، أو تفكيكـه، وتحليله، وتأويله.

لقد أحس البلاغيون في العصر الحديث بالحاجة إلى إعادة اكتشاف الماضي مـن

(١) هاني فراج علي أبو بكر، الموقف النقدي وسؤال الشعرية عند قدامة بن جعفر، (السعودية: مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، مج٤، ع٦، ٢٠١٥م)، ص٣١٥.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

خلال أسئلة الحاضر، فكانت إعادة قراءة التراث في سياق ثقافي مغاير عن السياق الذي وُلِدَت فيه تلك النصوص، فأعيدت قراءة الجاحظ، وأرسطو، وعبدالقاهر الجرجاني، وغيرهم، "بداية من محاولات تحديث دروس البلاغة التعليمية في الأزهر الشريف... مرورًا بتحديث مسائل العلم ومنظوراته... وصولًا إلى محاولات تحديث البلاغة بواسطة دمجها مع، (أو إخفائها في طيات) النقد الأدبي، وعلم الأسلوب، وعلوم الاتصال والتأويليات في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، والتداولية والسيميوطيقا ولسانيات النص وتحليل الخطاب في تسعينياته والعقدين المنصرمين من القرن الحادي والعشرين"(١)، فسخر عدد من الباحثين والعلماء جهدهم وفكرهم لمعالجة الدرس، ونفض الغبار عنه، وغربلته إن صح التعبير، ومواكبة سرعة تحديث العصر، وأقيمت الندوات والمؤتمرات التي حملت هاجس التجديد، وشاغل التحديث، وسنقدم في الفقرات الآتية عرضًا موجزًا لأبرز الرواد، وأبرز اتجاهات الدرس.

أ- إسهامات ما قبل منتصف القرن العشرين:

القراءة الإحيائية وتيسير البلاغة:

كان الهاجس الأول يروم تيسير الدرس البلاغي إثر الصعوبات التي واجهت متعلميه، مما تطلب إعادة النظر في الشروح والتلخيصات التي أثقلت كاهل الدرس البلاغي عن طريق إحياء التقاليد البلاغية الذوقية، فكانت هذه القراءة "استجابة لتحديات واقعية حضارية في سياقاتها التاريخية... واستجابة لهيمنة حركات الإحياء والبعث على العالم العربي في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر"(٢).

لقد بدأت اللحظة الفارقة مع الإمام محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥م) عند تدريس

(١) عماد عبد اللطيف، البلاغة العربية الجديدة مسارات ومقاربات، (الأردن: كنوز المعرفة، ط٢، ٢٠٢١م)، ص٢٥١.

(٢) نفسه، ص١٥١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

عبدالقاهر الجرجاني داخل الجامع الأزهر، رغبةً منه في خدمة الدراسة الأدبية، والذوق الأدبي؛ حتى يستسيغ الطلاب الدرس، ويحدد عماد عبداللطيف القيمة العلمية لإسهاماته في الآتي(١):

-الجرأة في مواجهة تقاليد تدريس البلاغة العربية في أكثر المؤسسات محافظةً، وهو الأزهر الشريف، نتج عن ذلك إزاحة مؤقتة لبلاغة السكاكي.

-تقدير أهمية دراسة النصوص المؤسسة، والتخلص من ربقة الشروح والتلخيصات، من خلال تدريسه لمؤلفات عبدالقاهر الجرجاني، فكان لَبِنَةً في صرح استعادة النصوص المؤسسة.

وتذكر المصادر أن سيد المرصفي (ت١٩٣١م)، كان من تلامذة الشيخ محمد عبده، فوكل الأخير إلى تلميذه تدريس كتاب الكامل للمبرد، فكان كتابه (رغبة الآمل من كتاب الكامل). والمرصفي -كما يعده الباحثون- واحد من أوائل من أسهموا في تطوير تدريس الأدب العربي القديم والوسيط بالجامع الأزهر، وتتجلي جِدَّة طريقته في سعيه إلى استجلاء جماليات النصوص، وتفعيله آليات البلاغة العربية في تبيان طرائق الصياغة في النصوص الشعرية. ومن هذا الجانب يغدو عمل المرصفي مرحلة وسطى بين جيلين من مجددي الدرس الأدبي في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين بمصر؛ جيل محمد عبده، وجيل طه حسين(٢).

ويذكر الجويني أن بدايات التجديد كانت من الأزهر، "بداية من رفاعة الطهطاوي، وسيد المرصفي، ومحمد عبده، وأحمد الهاشمي في جواهر البلاغة، والشيخ الحملاوي في زهر الربيع في أنواع البديع"(٣).

---

(١) يُنظر: عماد عبد اللطيف، البلاغة العربية الجديدة مسارات ومقاربات، ص١٢٧.

(٢) يُنظر: إيهاب الملاح، الشيخ سيد المرصفي الأستاذ الأول لطه حسين، (عمان: جريدة عمان الإلكترونية، ٢٠٢٢م).

(٣) مصطفى الصاوي الجويني، مدارس البلاغة المعاصرة، (مصر: دار المعرفة الجامعية، =⇦

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

تحديث البلاغة:

إن الحديث عن محاولات تحديث البلاغة يعني الحديث عن بدايات الخطاب البلاغي في العصر الحديث، ففي هذا الإطار ركز الدرس البلاغي على البعد الجمالي؛ لأن العقل العربي قد اعتاد ارتباط البلاغة بمسألة الذوق، بالتالي تركز الاهتمام على الوجوه الأسلوبية المختلفة في مشاريع مهمة، اتسمت بالثراء الكمي والكيفي، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مشروع أحمد حسن الزيات (١٨٨٥- ١٩٦٨م)، وأمين الخولي (١٨٩٥- ١٩٦٦م)، وأحمد الشايب (١٨٩٦- م١٩٧٦)، وشكري عياد (١٩٢١-١٩٩٩م)، ومحمد أبو موسى (ولد ١٩٣٧م)؛ فقد حاول كل منهم تقديم تصور للبلاغة لا ينفك عن الجانب الجمالي الذي يعمل على تحسين الخطاب، إلا أن هذه المشاريع لم تحقق أهدافها المنشودة؛ لأنها قامت على اختزال البلاغة في الوظيفة الجمالية، أو على البعد الأسلوبي في الغالب.

الزيات مُنَظِّرًا نقديًّا:

يذكر الجويني أن الزيات كان واحدا ممن أصلوا التيار الأدبي الحديث في مصر، ويذكر أنه كثيرا ما يدعو إلى (التحرر) من المقاييس النقدية العتيقة، "لكن لا يقصد مقاطعته لهذه المقاييس، مع حرصه على الاستفادة منها في نقدنا العربي... فلا بد من العودة إليه؛ ليتم ما بدأ به عبدالقاهر الجرجاني وضياء الدين"[(١)]، ويؤكد الجويني أن الزيات كان منظِّرًا نقديًا أكثر من كونه ناقدًا تطبيقيًا، يحاول عرض المذاهب الأدبية من خلال جماليات الأسلوب العربي. فالزيات يدعو إلى تجديد الدرس البلاغي، وإكمال مسيرة البلاغيين الأوائل، ويدعو إلى إقامة أدب الكتابة، وأدب النقد على قواعد ثابتة من الفن الصحيح، والعلم الحديث[(٢)].

= ١٩٩٥م)، ص١١٤.

(١) مصطفى الصاوي الجويني، مدارس البلاغة المعاصرة، ص١٣١.

(٢) يُنظر: أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، (القاهرة: عالم الكتب، ط٢، ١٩٦٧م)، ص٥٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

ويلاحظ مشبال بدوره رَبْطَ الزيات بين البلاغة وفن الإقناع الذي يتحقق بوجود البعدين؛ العقلي والعاطفي، وفق مقتضيات المقام، وأحوال السامعين، ووفق ما يذهب إليه محمد مشبال، فإن الزيات لم يدافع عن هذا البعد الحجاجي في قراءته، إنما كان لثقافته العربية دور في تغذية توجهه، بمعنى أنه لا يحسب على البلاغيين بقدر ما يحسب على الكتاب البلغاء، وعلى الرغم من صلته الواضحة ببلاغة الحجاج ضمن اطلاعه على البلاغات الأجنبية، "إلا أن السياق الذي تناولها فيه، هو سياق الدفاع عن الصياغة الأسلوبية التي فرط فيها المعاصرون"(١).

أمين الخولي والربط بين البلاغة والحياة:

أما أمين الخولي، فيتبنى دعوته إلى التجديد البلاغي على أساس الاستفادة من المنجزات الغربية، من غير انفصال عن التراث العربي، وكان الخولي قد اقترح صورة مشروعه من خلال التعريف بفن القول المبني على مقدمتين؛ فنية، ونفسية، ترتبط الأولى بالفن، في حين ترتبط الأخرى بالقوى المميزة للنفس البشرية. ويُسائِل الخولي البلاغة العربية من خلال تعريفات العلم التي شابَهَا الاضطراب حسب رأيه، فكان كتابه (فن القول) دعوة إلى إرسائه مصطلحًا بديلًا لمصطلح البلاغة، ويقوم كتابه على خطة تتضمن منهجية مقارنة بين الدرس البلاغي القديم، والبلاغة الحديثة؛ لتخلية البلاغة من كل ما يُثقِلها من اعتبارات متشعبة، داعيًا إلى تمثل المنهج الفني المعتمد على الذوق؛ كونه حاجة نفسية يريد المتلقي تحقيقها، وبهذا، فبلاغته أدبية جمالية خالصة، ترتبط بالنصوص الحية، يعايش البلاغي بلاغتها، لا يلقن قواعدها، جاعلا البلاغة علما يرتبط بالحياة في المقام الأول، ولهذا فلا بد أن يكون التحديث معنيًّا بربط البلاغة بالواقع الْمَعِيش، "فغايات البلاغة اليوم غايات لا تلتمس لغيرها من أغراض أخرى وراءها؛ دينية كانت أو سواها، بل تلتمس وفاءً بحاجة الحياة التي

(١) محمد مشبال، عن بدايات الخطاب البلاغي العربي الحديث نحو بلاغة موسعة، (الأردن: كنوز المعرفة، ط١، ٢٠٢٠م)، ص٥٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

يحياها الفرد والجماعة، وسعيًا إلى ترقية مستوى هذه الحياة، وإفساح آفاقها المعنوية، على ما رأيت أنه غاية الحياة الجادة اليوم في مختلف صورها"[١]، ويوجز عبداللطيف ملامح تحديث الخولي للدرس البلاغي في الانشغال بإعادة صياغة العلاقة بين البلاغة والحقول المعرفية الإنسانية المجاورة؛ كعلم النفس، والجغرافيا، والتاريخ. وفي الوعي بأهمية توثيق الصلة بين البلاغة والحياة إلى الحد الذي تصبح معه البلاغة منهجًا في معايشة الحياة. وفي الحرص على تأسيس علاقة متزنة مع التراث، لا تنقطع عنه؛ فبالتحلية والتخلية يمكن نقد التراث القديم، والانتقاء منه[٢].

أحمد الشايب وشكري عياد وبدايات الوعي الأسلوبي:

يعد الجويني الشايب من جيل المجددين، يقول: "يُعَدُّ الشايب من هذا الجيل الأدبي الموسوعي، وتنوعت دراساته من حيث التنويع في الأدب، والنقد، والتجديد في الأسلوب البلاغي"[٣].

فقد قدم أحمد الشايب تصورًا بلاغيًا يقرر فيه إمكانية الإفادة من التراث البلاغي في اكتشاف أنواع التعبير المتعددة، في كتابه (الأسلوب: دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية)، جاعلًا الأسلوب قيمةً مهيمنة في النص الأدبي، وهو الوسيلة التي تنقل العاطفة، يقول الشايب: "فعاطفة الشاعر القوية تثير مثلها في نفوس القراء والسامعين بوساطة الأسلوب"[٤].

---

(١) أمين الخولي، فن القول، (مصر: دار الكتب المصرية، ١٩٩٦م)، ص١٥٨.

(٢) يُنظر: عماد عبد اللطيف، البلاغة العربية الجديدة مسارات ومقاربات، ص١٤٤، ١٤٥.

(٣) مصطفى الصاوي الجويني، مدارس البلاغة المعاصرة، ص٢١. ويذكر أيضا أن أحمد ضيف، وأحمد أمين، وشوقي ضيف من الرعيل نفسه. ويذكر عن شوقي ضيف أنه أضاف نظرات بلاغية، ونشاطا ملحوظا في الوسط الجامعي البلاغي بدراسة البلاغة العربية دراسة تاريخية، ويذكر بشكل خاص كتابيه (الفن ومذاهبه في الشعر العربي)، و(الفن ومذاهبه في النثر العربي).

(٤) أحمد الشايب، الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، (مصر: مكتبة النهضة =⇦

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

ويرى مشبال أن الشايب يمزج في تصوره بين التداولي والأسلوبي الجمالي في كتابه، محاولًا استئناف دراسة البلاغة على طريقة تتفق وذوق العصر، وصلًا بين البلاغة والنقد الأدبي، "ويرى الشايب أن دراسة الأسلوب تتضمن تعليمه، وفي الوقت نفسه يعني الأسلوب لديه الفردية، والذاتية"(١)، محاولًا إبراز قيمة الدراسة النفسية في الأدب، تلك التي أغفلتها التصورات البلاغية الأُول، ويتبنى الشايب المفهوم البلاغي من حيث هو (مطابقة الكلام لمقتضى الحال)، موسعًا إياه بما أتاحته له معرفته الغربية، مستفيدًا من التعريف الحديث الذي يجعل البلاغة (فن تطبيق الكلام المناسب للموضوع وللحالة، على حاجة القارئ، أو السامع) هذا التعريف الذي يراه مشبال مخلصًا للمبدأ الحجاجي الأثير (المطابقة)، "لكن هذا المبدأ لا يوليه الباحث الأهمية نفسها التي يوليها للموضوع، ولا تخضع له جميع الأنواع الأدبية التي تناولها في كتابه"(٢)، ثم سيبتعد الشايب عن مبدأ مراعاة المخاطب، وستتسم رؤيته بالضبابية في تحليله لعدد من النصوص الأدبية، ولم يفلح في ضم الأنواع الأدبية التخييلية، واستيعابها في تصوره البلاغي(٣).

أما شكري عياد، فقد بدت عنده ملامح الوعي الأسلوبي أكثر نضجًا وعمقًا؛ فقد رام تأصيل علم الأسلوب من خلال مزجه بالمقولات البلاغية التراثية؛ حيث ربط في كتابه (مدخل إلى علم الأسلوب) بين العلوم اللغوية التراثية والبلاغة، ويتناول العلاقة بين الأسلوبية والبلاغة بصورة تنم عن وعي بمقولات الدرس. ثم حاول في دراسات لاحقة أن يحدد معالم درس الأسلوب الأدبي في البلاغة العربية. وعالج بدوره بلاغة

= المصرية، ط٢، ١٩٤٥م)، ص٧٨.

(١) حسام محمد إبراهيم، الموروث البلاغي في الدرس الأسلوبي الحديث: أحمد الشايب وشكري عياد نموذجين، (الأردن: منشورات المؤتمر النقدي الثاني عشر: الموروث النقدي العربي في قراءات المعاصرين، ٢٠٠٩م)، ص٢١٣.

(٢) محمد مشبال، عن بدايات الخطاب البلاغي العربي الحديث نحو بلاغة موسعة، ص٥١.

(٣) يُنظر: نفسه، ص٥٦.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

السكاكي، رابطًا بين مضمونها وسؤال العصر(١)، وجملة القول إن إسهامات عياد في هذا البعد ستكون بذرة تؤتي أُكُلَها في الاتجاه الأسلوبي الحديث، وسيجيء الحديث حول هذا الاتجاه في الفقرات القادمة.

محمد أبو موسى وإحياء المنبع:

قرأ محمد أبو موسى البلاغة العربية وهو واضع نصب عينيه إيقاظ الفكر العربي والبلاغة العربية من حالة النعاس الذي غشَّاها على حد تعبيره، فكان اتجاهه نحو قراءة البلاغة العربية في نصوصها المؤسسة، اتجاهًا يتسق مع نظرته للواقع البلاغي، رغبةً في إبعاد الدرس عن الخلط والتهجين الذي راج سوقه في العصر الحديث(٢).

إن مركزية التراث عند أبي موسى تنطلق من التذوق بِعَدّه آلية منهجية، "وذلك أن التراث الذي وصل إلينا في هذه اللغة العالية من أربابها في وقتهم، الذين كانت اللغة عندهم في أعلى مستوياتها من الفصاحة، ودلالة الألفاظ على معانيها، وجزالة التراكيب والأساليب"(٣)، وهذه المستويات بحاجة إلى أداة تمكن من فحصها، وسبر غورها، وجد أبو موسى في التذوق أداة كفيلة لسد هذه الحاجة، فكان جوهر منهج التذوق عنده يعتمد على معطيات النحو العربي، والنحو عنده علم تحليل النص؛ لأن النظر في علاقات الكلمات، وروابطها، ومعرفة مواقعها من الإعراب، نظر في بنية النص، وتحليل هذه البنية. ويستعين أبو موسى بآليات الاستنباط؛ كونه ذروة التحليل والتفسير؛ "لأنك تعلم أن مكتبة التفسير، وحواشي المفسرين وأعلاقهم، واستدراكاتهم،

(١) يُنظر: حسام محمد إبراهيم، الموروث البلاغي في الدرس الأسلوبي الحديث أحمد الشايب وشكري عياد نموذجين، ص٢١٠.

(٢) يُنظر: محمد محمد أبو موسى، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط٦، ١٤٢٧هـ)، ص(أ).

(٣) سرى سليم المعمار، منهج التذوق الأدبي عند محمود شاكر ومحمد أبي موسى، (العراق: مجلة الآداب، مج١، ع١٤٢، ١٤٤٤هـ)، ص١٢٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وكذلك مكتبة الحديث، وحواشيه، وأعلاقه، كل هذا سبر واعتصار، وتحليل وتشريح، وإضاءات لزوايا، وخفايا، وسراديب وظلال البناء اللغوي، وهذا هو جوهر تحليل النص"[1]؛ فقد مارس أبو موسى هذه القاعدة المنهجية في كل دراساته الأدبية والبلاغية؛ سواء فيما يتعلق بدراساته حول الشعر العربي القديم، أو البلاغة القرآنية، أو بلاغة الحديث النبوي الشريف[2].

۞ ب- الاتجاهات البلاغية الحديثة:

يمكن أن نستعين بتقسيم عماد عبداللطيف في مسارات البلاغة العربية الجديدة لهذه الاتجاهات، وقد جاء في خمسة أنماط متداخلة ومتراكمة: (الاتجاه الأسلوبي، والاتجاه التداولي، والاتجاه الحجاجي، ولسانيات النص، وتحليل الخطاب).

١- الاتجاه الأسلوبي:

استأثرت الدراسات الأسلوبية بنصيب وافر من اهتمام الباحثين العرب في أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، بل كانت تمثل موضة العصر آنذاك، ولعل أول إرهاصاتها ما عرضه أحمد الشايب، ثم تشكلت في كثير من مظاهر الدرس عند جملة من الرواد والنقاد، أشرنا إلى شكري عياد، ونضيف هنا عبدالسلام المسدي، وحمّادي صمّود، وسعد مصلوح، ومحمد الهادي الطرابلسي، ومحمد عبدالمطلب، وصلاح فضل، وغيرهم، واتخذت الدراسة الأسلوبية عند البلاغيين العرب أنماطًا متعددة، واتجاهات متشعبة، توزعت بشكل عام في إطارين كبيرين، تشتغل التصورات في الإطار الأول على أنه آن الأوان لرحيل البلاغة العربية، وحان ميلاد الأسلوبية؛ لتكون وريثها الشرعي، وبتعبير عبداللطيف، "يمكن صياغتها في استعارة (الجد- الحفيد)،

(١) محمد محمد أبو موسى، قراءة في الأدب القديم، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط٤، ١٤٣٣هـ)، ص١٣.

(٢) يُنظر: سرى سليم المعمار، منهج التذوق الأدبي عند محمود شاكر ومحمد أبي موسى، ص١٢٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

التي تشي ضمنيًّا بأن البلاغة سلمت للأسلوبية مفاتيح حقلها المعرفي، وأنها توشك على الرحيل"[١]، ويعالج الإطار الثاني الدرس الأسلوبي من خلال التأصيل، والعودة إلى التراث البلاغي؛ للقول إن الأسلوبية ما هي إلا امتداد للبحث البلاغي القديم، ولم يكن تراجع الاتجاه الأسلوبي في الدرس البلاغي والنقدي إلا صورة من صور التحولات المعرفية التي يشهدها الدرس، "فبعد أقل من أربعة عقود من صرعة الأسلوبية، انحسرت أضواء صيحة، لتصعد صيحات، ومارست البلاغة حيلتها القديمة في التجدد، عبر علاقات المصاهرة المعرفية مع العلوم وثيقة الصلة"[٢]، وستتناول الدراسة الاتجاه الأسلوبي في وقفة مطولة؛ كونه يمثل أهم توجهات محور هذه الدراسة.

٢- الاتجاه التداولي:

يركز الاتجاه التداولي على دراسة اللغة الطبيعية في السياق، واللغة الطبيعية كما يوضح المراد منها العزاوي بأنها "ملتبسة استعارية مجازية، تتسم بالتناقض، والتعارض، والإضمار، والاشتراك، والتعدد الدلالي، والغموض بمختلف أنواعه، بل إن هذه الأمور خصائص جوهرية أساسية للسان الطبيعي"[٣]. ويرى الدارسون العرب أن البعد التداولي السياقي الذي يهتم بملاءمة العبارة للمقاصد، غني في البلاغة العربية، بل هو الذي جعله السكاكي لب البلاغة، "وربما وجدت البلاغة السكاكية على وجه التحديد، في التداولية أملًا منشودًا لإضفاء طابع حداثي على تراكمها المعرفي الأصيل؛ فبلاغة السكاكي التي تضع المقام في قلب العملية البلاغية، تجد صدى

(١) عماد عبد اللطيف، البلاغة العربية الجديدة مسارات ومقاربات، ص٢٥٦.

(٢) نفسه، ص٢٥٧.

(٣) أبو بكر العزاوي، من المنطق إلى الحجاج، (إربد: عالم الكتب الحديث، ط١، ٢٠١٦م)، ص١٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

صوتها في التداولية التي تضع السياق في بؤرة الاهتمام"[١].

وفي علاقة البلاغة بالاتجاه التداولي، استثمر الدارسون العرب المقولات التداولية، كما فعل كل من أحمد المتوكل، وعبدالهادي الشهري، ومسعود صحراوي، ومحمد العبد، وغيرهم، كما أفادت الدراسات والأبحاث الأكاديمية من نظرية الأفعال الكلامية على وجه التحديد من بين المفاهيم التداولية الأخرى.

الاتجاه الحجاجي:

يتجلى اهتمام البلاغيين والنقاد العرب بالاتجاه الحجاجي، في إحياء التقاليد الأرسطية، مستفيدين من كتاب الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتكا، عاقدين الصلات والأواصر بين الخطابة الأرسطية والخطابة العربية، ويجمع الدارسون على أن بلاغيي المغرب العربي هم الأكثر تفاعلًا مع الاتجاه الحجاجي، والأشد احتفاء ببلاغة أرسطو، واقتفى الدارسون في العالم العربي أجمع أثر هؤلاء بعد حين.

ويؤكد الواقع المعرفي أن المشغل الحجاجي من أكثر خصائص الفكر البلاغي العربي الحديث وضوحًا، وصمودا حتى اليوم، وكما يذكر محمد الأمين الطلبة، فقد تغيرت أنماط الحياة والاتصال، وتغيرت النظرة أيضًا إلى العلم. فما كان حتميًّا أصبح نسبيًّا احتماليًّا، وما كان انطباعيًّا تأثُّريًّا أصبح يسعى جاهدًا لإدراك الدقة والصرامة[٢]. وهكذا أدّت البلاغة الحجاجية دور المحرك الفعال لهذه التطورات، وفتح الباب أمام الخطابة -كما سنرى عند حمّادي صمّود- لتعود وظيفة الإقناع والتأثير بصورة جديدة لم تعرفها البلاغة من قبل، وشارك صمّود الاهتمامَ الحجاجي، ثُلَّةٌ من الباحثين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: محمدًا العمري الذي طرح أسئلة معرفية عميقة في إطار بلاغته العامة التي تضم التداولي والجمالي، منها

(١) عماد عبد اللطيف، البلاغة العربية الجديدة مسارات ومقاربات، ص٢٥٨.

(٢) يُنظر: محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٨م)، ص١١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

السؤال عن مفهوم البلاغة، وعن علاقة البلاغة بالحجاج بمعنييه المنطقي واللساني، وعن علاقة البلاغة بالسياسة، وشكل العلاقة بين البلاغة والأدب والنقد الأدبي، وعن علاقة البلاغة بتحليل الخطاب، وكيف تجلت مكونات البلاغة التخييلية والتداولية في البلاغة العربية والغربية.

وينضاف إلى ذلك محمد مشبال في البلاغة الرحبة كما يسميها، الذي رام تحليل الخطابات من منظور بلاغي لتقديم نموذج حجاجي، يساعد في فهم وتحليل بنية الخطاب الحجاجي، وحاول مشبال أن يقدم في مشروعه جملة من المرتكزات والمبادئ التي انطلقت منها القراءات البلاغية كمبدأ نوع الخطاب، والإيجاد، والترتيب، والأسلوب. وهو لا ينفصل عن الاتجاه العام في التناول الحجاجي المعتمد على إحياء تقاليد أرسطو، بالإضافة إلى الإفادة من التقنيات المتبلورة في البلاغة بصورتها الجديدة[1].

ومن أولئك أيضًا عبدالله صولة، وعبداللطيف عادل، وغيرهما، وعلى الرغم من طغيان المشهد البنيوي على الساحة العربية، إلا أن صمّود -وهو من أبرز منظري الاتجاه الحجاجي في الساحة العربية- سيصطدم بمناطق حجاجية في الوقت الذي كان يحاول فيه أن يؤصل للأسلوبية، وسيقوده هذا الاصطدام إلى شيء من الفكر، ستجلي الدراسة في الفصول القادمة كثيرًا من ملامحه. ويلاحظ عماد عبداللطيف بعض الإشكالات، وجوانب القصور في الدراسات الحجاجية العربية، من أهمها التركيز على تحليل الحجاج في نماذج من النصوص الراقية، في ظل إغفال كثير من الخطابات اليومية المليئة بوسائل الحجاج، والإقناع، والتأثير، إضافة إلى ثبات الخلفية المعرفية عند حد معين، ويعزو ذلك إلى ضعف الترجمة الإنجليزية، والاكتفاء بالترجمات الفرنسية في الغالب.

(١) يُنظر: مها بنسعيد، المشروع البلاغي لمحمد مشبال: بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، (الأردن: مجلة أفكار، ع٣٧١، ٢٠١٩م)، ص٧٣.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

٣- البلاغة ولسانيات النص:

يُعَدُّ علم لسانيات النص المقترن بالأدبيات البلاغية، من الاتجاهات الحديثة الحاضرة في الدرس البلاغي. أتاح هذا التوجه للباحثين العرب، معالجة بعض أبواب البلاغة التي لم تلق نصيبها من الاهتمام كأبواب البديع، تجلى ذلك عند جملة من الباحثين، منهم: محمد مفتاح، وسعد مصلوح، وجميل عبد المجيد، ومحمد خطابي، وغيرهم. يشتغل هذا الاتجاه على معياري السبك والحبك ضمن ستة معايير للنصية، أمكن للدارسين معالجتها ضمن مقولات بلاغية؛ كالسياق، ومقتضى الحال، ومراعاة المخاطب، وغيرها(١).

٤- البلاغة وتحليل الخطاب:

يمكن القول إن تحليل الخطاب في علاقته مع البلاغة، آخر توجهات الدرس البلاغي الحديث، وعلى الرغم من أن تحليل الخطاب لا يمتلك منهجًا دقيقًا منضبطًا يسعف الباحث بأدوات وآليات محددة، فقد أصبح "لافتة وسيعة يقف تحتها كل الباحثين على أرضية لمقاربة جديدة"(٢)، ومن رواد هذا الاتجاه في العالم العربي صلاح فضل، وحمّادي صمّود، وعماد عبد اللطيف في مشروعه بلاغة الجمهور.

وبعد هذا العرض الموجز لأبرز اتجاهات الدرس النقدي الحديث، يتبين حجم الاتصال بين التراث والحاضر، ولا نعتقد أنه من الشطط والإغراق في القول إن جل التصورات المطروحة لا تنفك عن العودة إلى المنهل والمنبع الأساس، التي ولدت عنه، وإن ادعت بعض الاتجاهات الحداثة.

(١) يُنظر: عماد عبد اللطيف، البلاغة العربية الجديدة مسارات ومقاربات، ٢٦١.

(٢) عماد عبد اللطيف، البلاغة العربية الجديدة مسارات ومقاربات، ٢٦٢.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الفصل الأول

السياق الثقافي وأصول الاتجاه البلاغي

وفيـه مبحثـــان:

- المبحث الأول: مرجعيات الفكر وأصول التفكير.
- المبحث الثاني: الحدود والمفاهيم.

الفصل الأول
السياق الثقافي وأصول الاتجاه البلاغي

إن الكشف عن خطاب ما، يقتضي فحص المرجعيات الثقافية والفكرية، والنظر في مجموعة الجهود التي شكلت الخلفية العلمية لذلك الخطاب، ثم النظر في الجهاز المفاهيمي الذي يضبط الاتجاهات المقصودة؛ سواء كانت الممارسة في هذه الاتجاهات بلاغيةً، أو نقديةً.

إنّ النقلات النوعية التي شهدها المشروع البلاغي الذي بين يدي هذه الدراسة، الممثل في خطاب الأستاذ البلاغي، والمفكر الناقد حمّادي صمّود، تدرجت في وعيه النقدي بدءًا من الاتصال بالتراث، ووصولًا إلى تحليل الخطاب بمفهومه الحديث، نتيجة للمراجعة النقدية الذاتية التي ارتبطت في كل حين بالسؤال الثقافي، وبضرورة تحديث الدرس البلاغي والنقدي وفقًا لتطور السؤال، مع التأكيد على الانطلاق من الأصول التراثية؛ لغوية، وبلاغية، ونقدية. في منهجية منضبطة تؤكد لنا أن الحد الفاصل بين كل اتجاه وآخر، أو بين مسلك وآخر، ليس حدًا فاصلًا يعني نهاية، إنما هو حد يشعر ببداية أخرى لها امتدادها، وأبعادها الجديدة.

ولما كان البحث في الصواب والخطأ والسبق في إصدار أحكام قيمية من الأمور التي لا تفي بمقتضيات الانفتاح المعرفي، ولا تتناسب مع المكتسب المنهجي، أضحت الأهمية متعلقة بإبراز المعاناة الإنسانية مع الأسئلة والمساءلات الرحبة التي من شأنها المحاورة والرد والنقد والتحليل والمعايشة لكل المسافات التي قطعتها السياقات العلمية والمعرفية[١]، وعليه، جاء هذا الفصل باحثًا في أهم المرجعيات الفكرية الموجهة لمشروع حمّادي صمّود، ومحللًا لأبرز المفاهيم التي تأسس عليها ذلك المشروع؛ ففي مفترق مسالك متضادة بين التمرس باستخدام أدوات الفكر النقدي،

(١) يُنظر: محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ، ص٢٤٦.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

والتجريد، والنظر الدقيق الذي يسبر القديم، وينظر بعين الحديث، وبين معرفة متجددة، لم يكن فكر حمّادي صمّود ظاهرةً منفصلةً عن السياق الثقافي الذي جاء فيه، إنما تكمن عبقريته في الربط بين جملة من المعطيات الثقافية، والمكتسبات المنهجية، في بناء نظام معرفي متكامل.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

المبحث الأول

مرجعيات الفكر وأصول التفكير

❑ أولاً: في ماهية مرجعيات الفكر:

تشير لفظة المرجعية في المدلول اللغوي، إلى الجذر اللغوي (رَجَعَ)، والمرجعية مصدر صناعي من (مَرجِع)، على وزن (مَفْعِل)، وفي اللسان: رجع: رَجَع يَرْجِع رَجْعًا ورُجُوعًا ورُجْعَى ورُجْعانًا ومَرْجِعًا ومَرْجِعةً: انْصَرَفَ، وَفِيهِ: إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا، أَي رُجُوعكم؛ وراجَع الشيءَ ورَجع إليه؛ عَنِ ابْنِ جِنِّي، ورَجَعْتُه أَرْجِعه رَجْعًا ومَرْجِعًا ومَرْجَعًا وأَرْجَعْتُه"[١].

ويمكن أن تفهم المرجعية كما فُهمت في السياق اللساني، بأنها: "العنصر الخارجي لشيء ينتمي إليه، فيكون غاية للرجوع إليه.. إن كل معنى وارد في لفظ من اللغة، يحيل على معنى قائم في العالم الخارجي، أو هو مظنون بذلك"[٢]، وربطًا بمفهوم السمة التي تحيل على حقيقة خارجة عن حقل اللسانيات، تؤدي وظيفة مرجعية لتضع السمات في علاقات ليست مباشرة، مع عالم الأشياء الحقيقية، "ولكن مع العالم المدرك داخل التشكيلات الإيديولوجية لثقافة معينة، فالمرجعية لم تجعل لشيء حقيقي، ولكن لشيء خالص للتفكير"[٣].

تأسيسًا على ما سبق، وانطلاقًا من المعنى الذي تحمله لفظة المرجعية في ذاتها،

(١) جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، حواشي: اليازجي وجماعة من اللغويين، (بيروت: دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ)، باب العين، فصل الراء، ص١١٤.

(٢) عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، (الجزائر: دار هومة، ط٢، ٢٠١٠م)، ص٣٧٤، ٣٧٥.

(٣) نفسه، ص٣٩٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

فإن لكل فكرةٍ أو تصورٍ مرجعًا تستند إليه، وتمثُّلاتٍ ذهنيةً لموضوعات ما ترتكز عليها، ولا يمكن أن تنشأ الأفكار والتصورات من العدم، بل هي نتاج خلفيات فكرية ومعرفية تترسب في الذهن، وتتراكم، ثم تتبلور في صورة أفكار تنمو، وتتجدد، وقد تتغير، قد يدرك الفرد وجودها وتحكُّمَها في عملية التفكير، وقد لا يدرك وجودها، أو مدى تحكُّمِها في توجيه أفكاره وسلوكه، ثم إن غياب المعرفة بالخلفيات والمرجعيات الفكرية في قراءة ما، يعوق عملية الفهم والتأويل، والربط والتحليل، وربما يقود إلى مزالقَ قرائية، في حين أن العودة الدقيقة لتلك المرجعيات، هي محاولة لاستقصاء جوانب الشخصية المفكِّرة، وتجاربها المختلفة، تأسيسًا لموقف علمي، وبناءً لمنهج نقدي منضبط، تتبلور فيه جملة الأفكار المراعية للأصول النقدية والعلمية، قصد الإفادة منها.

وفي سبيل قراءة المرجعيات الفكرية المؤسِّسة لتصورات حمّادي صمّود وتوجهاته البلاغية والنقدية، يمكن تقسيم تلك المرجعيات إلى قسمين:

١- مرجعيات سياقية مسؤولة عن الإحاطة بالظرف التاريخي والفكري الذي احتضن مشروع صمّود، ويشمل جملة التصورات الفلسفية والأفكار المتصلة بالإيديولوجيا.

٢- مرجعيات التقنيات التي استقى منها صمّود أدواتِ بحثه المنهجيةَ نظريًّا وإجرائيًّا، ويمكن أن نسميها بالمرجعيات النسقية، وتشمل قراءة التراث، والتصورات اللسانية والأسلوبية، والرؤى النقدية، والنظريات الحجاجية.

❑ ثانيًا: مرجعيات الفكر عند حمّادي صمّود:

أ- مرجعيات سياقية:

تتآزر جملة من السياقات الجزئية في علاقات أشبه ما تكون بشبكة العنكبوت التي تتوزع خيوطها بين سياقات دينية، وثقافية، وتصورات فلسفية، وانتماءات سياسية، وإرث تاريخي؛ لتكوّن ما يمكن عدُّه سياقًا كليًّا احتضن المشروع البلاغي

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

والنقدي لحمّادي صمّود، على أساس أن السياق ليس سياقًا واحدًا، "بل هو شبكة علاقات بين عدة سياقات جزئية تنتج السياق الكلي؛ السياق اللغوي، والسياق الثقافي، والسياق الاجتماعي"(١)، وبطبيعة الحال لن تتناول الدراسة في هذا المحور جميع المعطيات السياقية، إنما ستقف على أبرز السياقات التي سيكون لها أثرها في التكوين الفكري لحمّادي صمّود، ومن ثَم في نموذجه المعرفي.

وإذا كان الأمر -كما قال هيجل- إن الإنسان ابن عصره، فإنه من الضرورة بمكان ألا نهمل أثر خصائص المرحلة الحضارية والتاريخية للحقبة الزمنية التي يعيشها صمّود، والبيئة التي نشأ فيها، تلك الفترة المليئة بأحداث ترتبط "بإرادة الحرية، والانعتاق، والتحكم في المصير"(٢)، التي جاءت ردّ فعل لمظاهر سلوك المستعمر في بلاده، والتي يصفها بنفسه في سيرته الذاتية (طريقي إلى الحرية) بأنها مرحلة مهمة من تاريخ بلاده (تونس)، ومن البدهي أن يؤدي تطوير الحياة في مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إلى التطوير على الصعيد الفكري أيضا، كما أن للوضع السياسي علاقةً وطيدةً بالوضع اللغوي الذي يمثل جوهر التوجهات التي سلكها صمّود، وكما يذهب الخولي؛ فعهد التأسيس السياسي يبدأ بالإصلاح اللغوي(٣)، ولا مناص من العودة إلى اللغة؛ لاستقامة الفكر.

هذه المرحلة السياسية التي عاصرها صمّود، مهمة أيضا، خاصةً في ميدان التربية والتعليم؛ حيث التحق بالمدرسة الابتدائية إبّان تباشير استقلال بلاده بعد حوادث ١٩٥٢م، كما كان نجاحه في امتحان (السيزيام) موافقًا لبداية إصلاح ١٩٥٨م(٤)؛ حيث وحّد هذا الإصلاح التعليم التونسي، وعدّل من أنظمته، فكان صمّود من طلائع

(١) طه جابر العلواني، السياق: المفهوم – المنهج – النظرية، (الرباط: الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب، ٢٠٠٧م)، ص١٨.

(٢) حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، (تونس: دار محمد علي للنشر، ط١، ٢٠١٧)، ص٧٥.

(٣) يُنظر: أمين الخولي، مشكلات حياتنا اللغوية، (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٥٦م)، ص٥.

(٤) يُنظر: حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

النظام التعليمي الجديد مع مجيء الدولة الوطنية، ومعاصرًا لما تبع ذلك النظامَ من تحوُّل تاريخي في النظام المعرفي بشكل عام.

ينتمي صمّود إلى شريحة اجتماعية كادحة، في وقت كانت الحياة بائسةً، وكان العيش ضنينا كما وصفه(١)؛ فقد كان والده بحّارا، يعمل في الصيد، بل إن صمّودا نفسه كان يساعد والده في أوقات فراغه، ولا شك أن قسوة الحياة، وتَبِعات الوضع الاقتصادي، شكَّلَت دافعًا دفع صمّودا إلى البحث عن مسالك الحرية كما أطلق عليها، وكان طريقه إلى ذلك هو التعلُّم، فالتحق بالمدرسة الابتدائية في الخمسينيات بإيعاز من والدته التي عقدت الآمال على ابنها في إخراجهم من حال البؤس الذي تعيشه الأسرة آنذاك، فحفظ القرآن، وتعلم على أيدي معلمين تونسيين، وغيرهم فرنسيين، مما أتاح له إتقان الفرنسية في سن مبكرة، ثم التحق بثانوية (منزل تميم)، حاصلًا على منحة من الدولة التونسية نظير تفوقه، وكانت هذه المنحة الدَّيْن الذي اتخذ صمّود على عاتقه مهمة تسديده؛ وفاءً لدولته، فنراه اليوم مفكرًا، لا ناقدًا بلاغيًّا فحسب، يحاول القيام بدور المثقف الذي يروم تنوير المجتمع، منطلقًا من اعتقادٍ جازم بأنّه لا يمكن دخول عصر إلا من خلال العصر ذاته، ولا يمكن أن يحدث الانسجام بين التراث والحداثة إلا بتلازمهما(٢)، وهذا ما تُمثِّله جليًّا تصوراته الناقدة.

توجه صمّود إلى شعبة الآداب بعد مسلك الحيرة بينها وبين الرياضيات؛ فقد امتلك عقليةً رياضيةً منطقيةً ستفسّر لنا الطابع المنطقي العقلي الذي انعكس على تحليله لبعض مقولات البلاغة، وعلى تصوراته في دراسة أشكال الخطاب الاحتمالي في بعده الحجاجي المنطقي، وكذا في بعده التخييلي.

درس في هذه الشعبة الكيمياء، والفيزياء، والرياضيات، والعلوم الطبيعية، ولكن كان التعويل على الآداب، واللغات، والعلوم الإنسانية، ومنها دروس الفلسفة العامة

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص٣٢.

(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، حوار بعنوان البلاغة العربية وسؤال التجديد، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، (المغرب: مطبعة النجاح الجديدة، عدد ١٣، ٢٠١٩م)، ص١١٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

التي درسها غربية على مستوى الأفكار والمفاهيم، وكما ذكر فليس لأطروحاتها صلة بالمشغل الفكري الإسلامي(١)، عدا أنها تُدرّس بلغة عربية.

موقفٌ من التعريب:

لا يخفى أن قضية التعريب من القضايا الجوهرية التي تمثِّل تحديًا حضاريًّا للأمة العربية، ولم يتفق العلماء والمفكرون حول الطريقة الأجدى؛ للاستفادة من التعريب؛ نظرًا لاختلاف زوايا النظر، ولاتساع مفهوم التعريب، وتعدد دلالاته؛ فمنها ما يتعلق بالدور القومي للغة العربية، وسيادتها الفكرية في الوطن العربي في تدعيم الوجود القومي، ومنها ما يتعلق باستيعاب المجتمع، وتلقيه لصور النشاط الفكري المختلفة، والمتمثلة في النسيج الاجتماعي لذلك المجتمع، إلى غير ذلك(٢).

ويتجلى موقف صمّود من التعريب بداية منذ إدراكه طرائق التعليم الجديدة في دولته فقد كان من طلائع طلابها، وأُطلق على الشعبة التي ينتمي إليها مسمى (الشعبة الأصلية)، وهي في الواقع تجريبية، كان يدرس بالعربية، أو في المؤلفات المعرّبة، ويراجع بالفرنسية اجتهادًا ذاتيًّا؛ مما أدى إلى نوع من التشتت في الفهم حينا، وربما أدى إلى الوقوع في الخطأ أحيانا أخرى، ذلك أن الطالب يجهد في البحث عن المعاني في المعاجم، ثم يحاول وضعها في السياق اللغوي في البحث المدروس؛ حيث إن المعجم لا يساعد في فهم التركيب اللغوي، وقد ينجح في ذلك، وربما لا يتمكن؛ إما لاختلاف السياقات، فيحمل في ذهنه مصطلحًا معيّنًا، لكنه لا يدرك ظلاله، ولا يعي أنساقه، وإما لعدم الظَّفَر بالمعنى المراد إن كان دقيقًا تحدده الجملة.

وفي الإطار نفسه يتحدث صمّود عن مؤيدي التعريب الشامل، الذين "يحلمون بدولة قومية عربية واحدة، وتعليم تكون لغتُه العربيةَ لغةَ القرآن، وعنوانَ الهوية،

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص١٤٥.

(٢) يُنظر: عمر عبد المعطي أبو العينين، التعريب والأمة الواقع- التحديات- آفاق المستقبل، (مصر: مجلة كلية التربية بالمنصورة، ع٥٢، ج١، ٢٠٠٣م)، ص٣٣٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وحاملَ التراث الثقافي والأدبي"[١]. وفي المقابل، "الشاكين في الكفاية النظرية والعملية للفكر القومي، الذين لا يرون في الجامعات المشرقية أفقًا يمكن أن يراود طالب المعرفة.. محتجين بأن كل ناصع في المشرق إنما أتاه من انخراط المتفوقين من أبنائه في الجامعات الأنجلوسكسونية"[٢]، وتدفع كلا الفريقين مرجعية شاملة أطرت هذه الآراء. أما صمّود فمن منطلق رغبته في التفكير في القضية، وإرادته رسم مسالك للتعريب لا تتأثر بالأهواء والأيديولوجيات، فكر في مقتضيات هذه المسالك[٣]، وفي الطرائق التي تتيح التعريب بنقل المعرفة تامةً دون اختزالها، لعل في طليعتها ما يتعلق بالأهداف المنشودة التي يجب أن تكون خالصةً للعلم، فلا بد أن تكون الغاية من التعريب، هي التقدم بمستوى المعرفة، والدفع بالعربية في مصافِّ معارف العصر، وكان ذلك قد ظهر في صورة عمليات النقل والترجمة التي بذل صمّود لأجلها جهدا ملموسا. فقد ظلت الترجمة ذلك النشاط الذي يلازم صمّود في كل صلة باللغات الأجنبية، وشغلت جزءًا مهمًّا من نتاجه الفكري والنقدي، إن كان على مستوى الترجمة عمليًّا؛ حيث أثرى المكتبة العربية ناقلًا الكثير من المعارف الفرنسية إلى العربية، وإن كان على مستوى الترجمة نقديًّا؛ ناقدًا ومحللًا لجملة من مشكلات الترجمة في عالمنا العربي، وفي الفضاء النقدي بشكل خاص، وهذا الصنيع أصبح عند صمّود أشبه بأدوات القياس والمقارنة، التي أتاحت له إدراك مواضع التشابه والاختلاف التابع لاختلاف المرجعيات المعرفية والفكرية، وكانت النتيجة "تجنب كل أنواع القسر، والإسقاط، وإلباس الأشياء غير لَبُوسها، وبمعنى آخر، تعلمنا أن نربط المنتج في السطح، بالبنى المحتجبة التي تحركه"[٤]. مؤكدا في هذا السياق وجوب

(١) حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص١٤٨.

(٢) حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص١٤٨.

(٣) يُنظر: نفسه، ص١٥٨.

(٤) حمّادي صمّود، حوار بعنوان البلاغة العربية وسؤال التجديد في تجربة حمّادي صمّود، ص١٢٦.

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

امتلاك المعرفة المتأنية التي تتيح الوعي بمقتضيات العصر، والنظر في أدواته الفكرية، وفهمها فهمًا سليمًا؛ لأننا نعيش تدفقًا هائلًا في عصر الحداثة وما بعد الحداثة إزاء التيارات الفكرية، والنظريات النقدية المتجددة تجدُّدَ المعارف والعلوم.

بناء على ما تقدم، يمكن القول إن ذلك الهاجس الذي كان يخالج صمّودا إزاء نظام التعليم أعطى نتائجَ إيجابيةً فيما يتعلق بتكوينه المعرفي والفكري، نظير الجهد الشخصي الذي بذله في اكتساب المعرفة، وفي استخراجه أقصى طاقة ممكنة؛ بُغيةَ سدّ الفجوة التي أدرك وجودها منذ وقت مبكر، كما يتجلّى أثرها في توجيه اهتمام صمّود نحو قضايا الترجمة؛ فالبحث العلمي لا يمكن أن يتم للباحث إلا إذا كان قادرًا على القراءة بلغتين على الأقل، وكلما زاد عدد اللغات، ازدادت قيمة عمله، وتوسعت رؤيته، وصار أقدر على المقارنة، والموازنة، والشرح، والتعليق.

المرجعيات الفلسفية:

وفيما يتعلق بالبعد الفلسفي، وأثره في تكوين مرجعيات فكر حمّادي صمّود، وبالتالي في الآراء البلاغية والنقدية التي نراها اليوم تتصدر الساحة، فقد أكدّ صمّود في غير موضع (أولوية الفلسفة، وكما قيل: لا أيديولوجيا دون أن تسبقها فلسفة)، بل إن طريق التحديث هو الوعي الفلسفي السليم، وحسب صمّود فمن عوائق الحداثة في العالم العربي، العائق الفلسفي الذي يريد أن يفهم الزمن على أنه خط متواصل، وأننا نُغَيّب في فكرنا الفلسفي الحديث قضيةَ الزمن المتقطع، وأننا لو نظرنا إلى الأمور من زاوية الزمن المتقطع، لفهمنا أشياء غابت عنا إلى هذا الحد.

اتصل صمّود بالفلسفة مبكرا، بوصفها مفتاح النجاح في شعبة (الفلسفة والآداب الكلاسيكية)[1]، وأسلفت الدراسة القول بأن هذه الفلسفة كانت منفصلةً عن خلفياتها المعرفية، دُرست بطريقة أقرب ما تكون إلى التلقين، لا تتصل بالمشغل الفكري العربي الإسلامي، وهذا ما حدا بصمّود إلى مراجعة هذه الفلسفة في مظانها الفرنسية،

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص١٦٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

مقارنًا بين ما سمعه في الدرس، وما يجده في الكتب، ومن نافلة القول ذكرنا أن هذه الآلية لا تتيح لطالب في المستوى الثانوي أن يدرك الأبعاد الفكرية، والخلفيات الفلسفية، التي تُؤطِّر النظريات الفلسفية التي يدرسها.

وللبيئة الجامعية التي احتضنت أعلام التجديد في نظريات المعرفة والفلسفة، أثرها في التكوين الفكري لصمّود؛ فقد كانت "رياح فوكو كافية لدفعنا إلى المسالك الوعرة، مسالك الجديد الذي خلخل المراسم الأكاديمية، وكسر أطواق جنس من المعرفة كان مريدوه يظنون أنه غاية المرام التي ما بعدها غاية"(١).

اطلع صمّود على فلسفة فوكو، والذي يظهر أن اطلاعه آنذاك تركز في المستوى البنيوي من فلسفة فوكو، على غرار الصورة التي شكلها المثقف العربي عن فوكو منذ بداية السبعينيات، هذه الصورة مبنية على ثلاثة معطيات أساسية، هي: موقف فوكو من اللغة، والذات أو الإنسان، والتاريخ، كما عرفها في كتابه الكلمات والأشياء(٢). وهي بنيوية ثقافية كما ذهب زكريا إبراهيم، "انطلقت من معادلة تقول إن البنية = اللاشعور = الرمز = النموذج = اللغة. يسعى فوكو، كما يفعل عالم الآثار، إلى دراسة لغة وأرشيف كل عصر؛ ليكشف عن بنيته الإبستمولوجية الكامنة وراء مفاهيمه ومعارفه"(٣). وهكذا فإنه لا يمكن حصر موقف فوكو من اللغة، منقطعًا عن فلسفته الخاصة، ولا عن ظرفه التاريخي الذي يمثل مرحلة فكرية انتقالية شكلت انفصالًا معرفيًّا في نهاية العصر الكلاسيكي الذي ركز على عامل التشابه، هذه المرحلة الجديدة "تمثلت في انزياح الطبقات التحتية الباطنية للفكر، وتزامنت هذه القطيعة مع الثورة الفرنسية"(٤)، فجاءت تصورات فوكو المتعلقة بالذات الإنسانية،

(١) حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص١٩٩.

(٢) يُنظر: الزواوي بغورة، ميشيل فوكو في الفكر العربي المعاصر، حوار ضمن منشورات مؤسسة مؤمنون بلا حدود، ٢٠١٨، عبر الشبكة العنكبوتية https://www.mominoun.com

(٣) زكريا إبراهيم، مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية، (مصر: مكتبة مصر)، ص٢٣٥.

(٤) هاشم صالح، ميشيل فوكو فيلسوف القاعة الثامنة، (فلسطين: مجلة الكرمل، ع١٣، ١٩٨٤م)، =⇦

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وما يندرج تحتها من أبعاد مختلفة؛ نفسية كانت، أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو تاريخية سياسية، إلى أن ظهر مفهوم (اللغة البيولوجية)، فلم تعد الوظيفة اللغوية "تتكون من تمثيلات فحسب، وأصوات تمثل بدورها تلك التمثيلات، وتنتظم فيما بينها انتظاما تستلزمه متطلبات التفكير، وأشكال تسلسله، بل أصبحت إلى جانب ذلك تتكون من عناصر تمثيلية مجتمعة في منظومة تفرض على الأصوات والمقاطع والجذور، نظامًا ليس هو نظام التمثيل"(١)، من هنا أدرك صمّود العلاقة التي تربط بين تصورات كل من دي سوسير وفوكو، في النظر إلى الأجزاء المكوِّنة لبنية ما، "على أنها عناصر متلائمة؛ لإنشاء بنية أو نسق تستمد العناصر ووظيفتها وفعلها، من علاقتها بالعناصر الأخرى"(٢)، ثم ما لبث أن أدرك أن للمعرفة أبنيةً وأنساقًا؛ كونها تتحرك من بنى فلسفية في الغالب، وهذا ما انبثقت عنه تصورات فوكو وغيره، وإن كان المنطلق الأساسي هو اللغة، واعتماد بعض مبادئ التحليل البنيوي، وكثير من ثنائياته، فإن هذا "يجعل في نظر فوكو من الفهم منفتحا على الاختلاف، وتجاوز التقليد، وتكون النتيجة التحرر من القبضة التي فرضها الخطاب الحداثوي؛ لأن المعنى لا ينبثق من الرمزية التي يحفل بها النص، بل يكون في التمييز بين الرمز والمعنى في حد ذاته"(٣)، والذي يؤكده صمّود أن هذه الفلسفات وما تُبطِنه من خلفيات فكرية تتطلب معرفةً بالفلسفة لم تكن لتتوفر لخريجي أقسام اللغات حينها، والمعوّل على الجهود الفردية التي يبذلها الطلاب، ومدى مقدرتهم على التعامل مع الراهن المعرفي،

= ص٣١.

(١) ميشيل فوكو، الكلمات والأشياء، ترجمة: مطاع صفدي وآخرين، مراجعة: جورج زيناتي، مطاع صفدي، (بيروت: مركز الإنماء القومي، ١٩٨٩م، ١٩٩٠م)، ٢٠٣.

(٢) حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص١٨١.

(٣) عبد الحق طالبي، ميشال فوكو واللغة، ضمن كتاب: فلسفة اللغة: قراءة في المنعطفات والحدثيات الكبرى، تحرير وإشراف: اليامين بن تومي، (الجزائر: دار الروافد الثقافية، ط١، ٢٠١٣م)، ص٢٥٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

ومع ما يتاخم هذه المعارف من أدوات وآليات.

وتأكيدًا لدور الأبعاد الفلسفية في صياغة المناويل البلاغية، وفي التحديث المنشود، يقرر صمّود أن الجهود التي حققت نتائجَ ملموسةً في إخراج التصورات البلاغية من الشرط التاريخي القديم إلى الأسئلة الحديثة، إنما عولت -إلى جانب علوم اللغة- على العلوم الفلسفية، التي أوْلَتِ اللغة اهتماما، فأسهمت في توسيع دائرة البحث البلاغي، "إن توسيع الاستعارة والكناية والتشبيه وغيرها فلسفيًّا، أمرٌ معروفٌ اليوم، وعنه جدّت في التناول البلاغي الصرف طرقٌ أخرجت دراسة الصورة من إطارها التقني العملي، إلى إطار الأنساق الفكرية، وصياغة الواقع في عوالم لغوية"(١).

تأسيسا على ما سبق، فإن حمّادي صمّود في كثير من قراءاته البلاغية والنقدية، يحاول تأطير هذه القراءات بإطاراتها الفلسفية، على أن كل ظاهرة بلاغية إنما تُرَدُّ إلى فكرة فلسفية، ومن أبرز مظاهر هذا النهج، هو عودة صمّود في طرحه البلاغي إلى الأصول والجذور بحثا عن القيم الفلسفية للأصول البلاغية، وعدم الانكفاء في المرجعيات الوافدة في تشكل صور العلم أو المعرفة بشكل عام. وقد ارتبطت هذه الأصول بالقيم المهيمنة في الفكر البلاغي العربي التراثي منه على وجه التحديد، وقد أفسح لها المجال في النظر إلى مقولات البلاغيين والنقاد ومدى التجاوب معها إن سلبا أو إيجابا. وهذا يحقق قدرًا من السلامة العلمية، ويقي من الوقوع في المزالق القرائية.

ب- مرجعيات التقنيات:

تتداخل جملة من المرجعيات الفكرية والعلمية لتكسب صمّودا منظومة متكاملة من التقنيات والأدوات التي ساعدته في تكوين منهجه النقدي، وباختلاف مسارات مشروعه، تتعدد تلك التقنيات بين اللساني، والأسلوبي، والنقدي، والحجاجي، بين تراثي وحديث، يستلهم الأول، ويتوسل بالثاني، من هنا ستتعدد المرجعيات الفكرية في

(١) حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، (تونس: المنشورات الجامعية بمنوبة،ط١، ٢٠١٥م)، ص١١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

هذا المحور، على النحو الآتي:

١- قراءة التراث.

٢- الانفتاح على اللسانيات والتطبيق الأسلوبي.

٣- التصورات الحجاجية.

أولاً: قـراءة التـــراث:

تقوم هذه المرجعية على تصور ساد في الأوساط العلمية المعاصرة، مفاده: أن لحظة البدء في خلق الفكر العربي المعاصر، إنما تبدأ من استعادة التراث، "فلا غرابة أن تعد قراءة التراث تأسيسا للمستقبل على أصول الماضي، بما يسمح ببعث الجديد عبر إحياء المكتسب"(١)، وتشير دلالة قراءة التراث إلى مستويين(٢):

الأول: المستوى النظري، يتعلق بوصف الآليات العقلية، والتصورات التي تتضمنها قراءة التراث، فتصف العبارة العلاقة الإدراكية بين القارئ المعاصر والتراث الذي يتعامل معه، وتتشكل حسب مجموعة من المرجعيات، والنظم، والأعراف.

الثاني: المستوى التطبيقي، ويتعلق بالنموذج التطبيقي الذي يتناول جانبا أو أكثر من جوانب التراث، فتصف العبارة التراث نفسه، وتشير إلى مجالات معرفية مغايرة، فتدخل في باب (نقد النقد)؛ كونها تراجع الأقوال النقدية، وتكشف عن مبادئها النظرية، وأدواتها، وتقنياتها، التحليلية والتفسيرية.

وما من شك في ارتباط النظري بالتطبيقي، وتفاعل كل منهما مع الآخر، "فكلا

---

(١) عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط٣، ٢٠٠٩م)، ص٢١.

(٢) يُنظر: جابر عصفور، قراءة التراث النقدي- مقدمات منهجية، ضمن أعمال ندوة قراءة جديدة لتراثنا النقدي، (جدة: النادي الأدبي الثقافي، م١، ١٤١٠هـ)، ص١٠٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المستويين من الأبعاد يتجاوب مع الآخر تجاوب التأثير والتأثر، وإذا كان محور التركيز في ثانيهما موضوع الإدراك، ومحور التركيز في أولهما حدث الإدراك، فإن الفاعلية المتبادلة بينهما أمر ضروري للغاية"[١]، ولا يخفى أن لا جدوى من النظرية بلا تطبيق، كما أن التطبيق لا يمكنه أن يتمّ سليما من العشوائية والتخبط دون النظرية.

لهذا نجد تجربة حمّادي صمّود القرائية، تجربةً متكاملةً على المستويين النظري والتطبيقي، وكان من أهم منابت هذه المرجعية الفكرية، ما يعود إلى شعبة اللغة والآداب العربية بكلية الآداب؛ حيث حدثت النقلة النوعية في مسار صمّود التعليمي؛ نظرا لاختلاف طرق التعلم، ومناهج التصور، والحث على التفكر، وإبداء الرأي، بمعنى التلقي الفاعل والإيجابي. فكان انفتاح أبواب الفكر النقدي من خلال هذه المقولة[٢]؛ لأن قراءة النصوص المؤسسة، تعني الاتصال المباشر بالمعرفة.

وكان لشهادة الدراسات العليا في الحضارة الإسلامية وأساليب البحث، دورها الجلي؛ ففيها مسائل حضارية من القديم والحديث، وتدريب على طرائق البحث العلمي وأدواته[٣]، آمن صمّود في هذه المرحلة أنه لا بد من العودة إلى المصادر المؤسسة للمعرفة؛ فعند بحث قضية، ما لا مناص من العودة إلى مصادرها الأولى؛ لقراءتها في سياقها الفكري والعلمي، ولربطها بالمعطى الثقافي والحضاري الذي ولدت فيه هذه القضايا. إن كل كاتب يكتب شريطة زمانه، ولا ينفك المؤلف عن مجتمعه، وعالمه، ومشاغل عصره، "وليس على الباحث الجاد أن يعول على المراجع، دون الرجوع إلى المصادر؛ لأن الدراسات ليست إلا قراءات في تلك المادة القديمة، وصياغتها صياغة تتضافر في تشكيلها عوامل ليست كلها خالصة للعلم والمعرفة"[٤]، فكانت

(١) جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص١٠٩.

(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص١٧٤.

(٣) يُنظر: نفسه، ١٦٨.

(٤) نفسه، ١٦٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الدعوة إلى ضرورة الرجوع إلى النصوص في مظانها الأصول، وعدم الاكتفاء بالمراجع والدراسات المبنية عليها، أهم منعرج معرفي عاشه صمّود وأبناء جيله بالانتقال إلى الجامعة(١).

من هنا كان اتصال حمّادي صمّود بالتراث اتصالا ينبع عن عقيدة فكرية، آمن بها، واتخذها منهجًا ومذهبًا في القراءة والتفسير، اتّسم هذا الاتصال بالديمومة، ولم يكن في شكل مقولة قائمة بنفسها غايتها آنِيَّة، وهذا ما سنجد صداه واضحا في منهجه الذي يزاوج فيه بين التراثي والحديث. فيعمد إلى الجمع بين نصوص تراثية، وأخرى حديثة، ويذهب إلى أن الاختلاف بينهما إنما هو اختلاف في (الظاهر) فقط، أما في تصوره الذهني، فيتجلى في (تلازم الوجه والقفا)(٢)؛ لأنه لا طريق إلى تثبيت الذات وتجذّرها، ولا سبيل إلى فهم التراث وإدراكه، إلا بقراءته بروح العصر.

ثمة مسألة من المسائل العلمية التي رأى صمّود أن الإجابة عنها لا تكون إلا بالعودة إلى التراث، والأصل الذي تولدت عنه هذه البلاغة، وهو ممارسة النص من زاوية بنيته اللغوية، تتعلق هذه المسألة بعلاقة البلاغة بالعلوم الأدبية، وبمدى فاعليتها في نقد الأدب بوصفها نظرية في فن القول(٣)، لقد أدى الانفصال عن التراث إلى قصور وعَوَز في بعض الدراسات التي رامت دراسة البلاغة في مسائلها الكبرى؛ من تاريخ، ومباحث بلاغية، أو حتى في دراستها لعلاقة البلاغة العربية بالبلاغات الأجنبية؛ ذلك أن الكثير من هذه الدراسات لم تهتم بالأسس الكبرى التي قام عليها التفكير البلاغي العربي، في ظل غياب القراءة الجدلية للتراث والحداثة، فقامت على القراءة من زاوية واحدة.

---

(١) يُنظر: نفسه، ١٧٤.

(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة، (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠١٨)، ص٥.

(٣) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٣.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وصمّود إذ يرى نفسه محملا مسؤولية استدعاء التراث إلى العصور الحديثة، كان مضطرا للانغماس في التراث، وهكذا شكلت لنا هذه الآلية شخصيةً علميةً عالمةً، "فالذات العالمة هي التي تحقق قدرا من الحياد لصالح المسار العلمي الكوني، مقتنعة بالتطور، أي أنها لا تلغي الماضي، ولا تقف عنده"(١).

ثانيًا: الانفتاح على اللسانيات والتطبيق الأسلوبي:

تذهب بعض الدراسات اليوم إلى أن المنهج النقدي اللساني، طغى على عدة دراسات معاصرة، حتى إنه أصبح "تطرفا فكريا" يجب تصحيح مساره النقدي، وتقييم مردوده(٢)، وأخرى تنتهي إلى أن الحال التي استقرت عليها اللسانيات في التصور العربي، إنما غدت تَرَفًا فكريا يتعارض مع القسمة العقلية التي تجعل هوية العلم كونية عصية على الخضوع للأفكار المسبقة من قبيل الصراعات الفكرية المفتعلة(٣)، وعلى الطرف الآخر، يؤكد فريق أن هذا التوجه إلى اللسانيات، ليس نزوة من نزوات الفكر البشري، ولا بدعة ابتدعت في إطار المساجلات النظرية، ولا هي من قبيل الموضة، بل "مردّ كل هذه الظواهر أن علوم الإنسان تسعى اليوم جاهدةً إلى إدراك مرتبة الموضوعية، بموجب تسلط التيار العلماني على الإنسان الحديث، ولما كان للسانيات فضل السبق في هذا الصراع، فقد غدت جسرًا أمام بقية العلوم الإنسانية"(٤). وهذا يعني كونية اللسانيات؛ فهي ليست خاصةً بمكان أو لسان دون آخر، بل هي "علم

(١) محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ، ص٢٤٥.

(٢) يُنظر: توفيق الزيدي، أثر اللسانيات في النقد العربي، (تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠)، ص١١.

(٣) يُنظر: حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، (عمان: دار كنوز المعرفة، ٢٠١٨م)، ص٢٢٠.

(٤) عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص١٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

شمولي لا يلتبس باللغة التي يقدم بها، وفي هذه الخاصية على الأقل تدرك اللسانيات مرتبة العلوم الصحيحة بإطلاق"[١].

إن المرحلة التي يُعَدُّ صمّود من طلائعها، هي مرحلة ألسنية جديدة، تغيرت معها الكثير من المفاهيم، وحاولت تخطي مزالق التصورات السابقة، "ومنذ منتصف السبعينيات أصبحت دول المغرب العربي -لا سيما المغرب وتونس- تحمل مشعل ريادة اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة"[٢]، تكوّنت هذه المرحلة من خلال خطوات متعددة، منها استقطاب الجامعة التونسية للخبرات العلمية من أساتذة وفلاسفة لهم باع طويل في اللسانيات الغربية؛ للقيام بالتدريس أو للمشاركة في ندوات علمية في مجال اللسانيات، هذا الاحتكاك المباشر بالعقل اللساني الغربي، مكّن من إعادة تصور الأبعاد اللسانية في الثقافتين العربية والغربية بصورة أكثر عقلانية وعلمية. كما لا يخفى اهتمام العرب بكتاب سوسير، وبمختلف الكتب اللسانية الغربية؛ حيث تُرجمت إلى العربية في خمس ترجمات أنجزت في أقطار عربية مختلفة[٣].

عندما شرع صمّود في دراسة الإجازة الثانية، كان موضوعها النحو العربي، وفقه اللغة، وكانت في جلها مسائل لغوية حديثة[٤]، بدءًا بتفسير القرآن الكريم تفسيرا لغويا، ومرورا بدراسة علم الأصوات ووظائفها، ووصولا إلى لسانيات دي سوسير العامة، ومبادئ علم اللسانيات تطبيقا على علم الأصوات. تلقى فيها صمّود أفكارا من قبيل أن النظام النحوي ما هو إلا بنية فكرية مجردة، وصورة ذهنية تنطلق من واقع، ثم تنفصل عنه، وتتحكم فيه، عن طريق أنظمة نظرية تضع في الحسبان سائر

(١) نفسه، ص١٩.

(٢) مصطفى غلفان، اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة حفريات النشأة والتكوين، (الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع المدارس، ١٤٢٧هـ)، ص١٤٥.

(٣) يُنظر: حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، ص٢٢٠.

(٤) يُنظر: حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص١٧٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الاحتمالات، يحكمها المنطق الصارم أكثر من الاستعمال[١]، وهنا بدأ الاتصال الفعلي باللسانيات، وبدأ التفكير بفحص هذه المقولات اللسانية؛ حيث كانت الفرصة مواتيةً ليفحصها التلاميذ -ومن بينهم صمّود- في مجال التطبيق الأدبي بشكل مباشر؛ فقد كانت الإجازة الثالثة في الأدب العربي، ودرس فيها أدب الحجاز في القرن الأول، كما درس لزوميات المعري دراسةً نعتها بالفكرية، وكذلك مقدمة ابن خلدون، ومظاهر التجديد في الشعر العربي الحديث كما تجلت عند خليل مطران[٢]، وتتصل بها الإجازة الرابعة؛ فموضوعها الآداب واللغات الأجنبية من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين[٣]، تعطى بالفرنسية في الغالب، اتصل فيها بالشعر الفرنسي، وحركات التجديد بعد بودلير، واطلع فيها على الجنس الروائي، وفي ضمن ما اتصل به رواية فولتير، ومورياك، وزولا، كل ذلك على مستوى التحليل. وما كانت أدوات التحليل في هذه الحقبة إلا أدوات لسانية، تنطلق من المعطيات اللغوية بكل ما يؤطرها من اتجاهات، وما تؤديه من وظائف، وعيا بتجدد مقاييس الأدب، وأدوات التحليل، تبعا لتطور الأدب نفسه، فلا يخفى أن الأدب في أي ثقافة يتجدد إثر تجدد الظروف بأنواعها؛ تاريخية، واجتماعية، واقتصادية، وسياسية.

وفي محاولات تجديد الدرس اللغوي، التقى بأندري مارتيني رائد اللسانيات التقابلية[٤]، الاتجاه الذي ولد من رحم اللسانيات التطبيقية، جاعلا هذا اللقاء حدثا أكبر في حياته العلمية؛ إذ اكتسب معرفةً لسانيةً مكنته من المقارنة بين اللغات، وهذا ما سنجد صداه في شيء من تصوراته البلاغية والحجاجية.

---

(١) يُنظر: نفسه، ص١٧٨.

(٢) يُنظر: نفسه، ص١٨٣.

(٣) يُنظر: نفسه، ص١٨٢.

(٤) يُنظر: حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص١٨٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

اللقاء بالأسلوبية:

عبر مقال منشور بحوليات الجامعة عن الجملة في نظر النحاة العرب، وعن طريق محاضرات عبدالقادر المهيري كان اللقاء الأول بين صمّود والتيار الأسلوبي، وهو عنده: "علم يهتم بتحديد معالم الأسلوب، ويضبط مكوناته حسب أنواع الخطابات"(١).

وبعد حملات التشكيك في البلاغة "إذ تحولت في الكتب المدرسية إلى وصفات جاهزة يوهم أصحابها الناس بأن معرفتها ضامنة للتفوق في فن القول، ومقدمة ضرورية لكل إبداع أدبي، بدأت بفعل تضافر أسباب مختلفة من سياق تاريخي واحد، تميل إليها أنظار الدارسين... بعد أن تأكدوا أن الأسلوبية التي جاءت لتأخذ مكانها في تحديد ماهية فعل الكتابة الأدبية، منطلقا ومآلا"(٢)، في تلك الفترة التي أخذت الأنظار فيها تلتفت إلى هذه المفاهيم الجديدة؛ كالإنشائية، والأسلوبية، بدأ اهتمام صمّود بالأسلوبيات؛ ففي الدراسات التنظيرية يتكشف إلمامه الواسع بمباحث الدرس الأسلوبي، واتجاهاته، وامتداداتها، مشيرا إلى السبب الرئيس في تشعب تلك الاتجاهات، وهو عدم قدرة المتعاملين مع الأسلوبية على تحديد الفضاء الذي تشتغل فيه تحديدا دقيقا(٣)، أسفر هذا الاتساع عن التشكيك في وجود هذا العلم -إن صحت تسميته علما-، وهكذا تعامل صمّود مع الأسلوبيات بداية من التفكير في الأسلوب، وصولا إلى إحصاء وتفكيك ظواهره في النص، توّجت هذه الاهتمامات بتدريسه للأسلوبية، ثم بالدراسات التطبيقية التي رام من خلالها تجربة هذه المقاربات الحديثة، وبدأ بتطبيقها على بعض المدونات الشعرية والنثرية، توزعت نتائجها بين جيد، ودون ذلك.

---

(١) نفسه، ص١٧٩.

(٢) نفسه، ص٢٦١.

(٣) يُنظر: حمّادي صمّود، الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة، ص٥٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وفي فترة سيادة الدراسات البنيوية والشعرية على الساحة، اقترح صمّود على بعض طلابه الاشتغال بفكرة نقل هذه القضايا من الحقل الغربي إلى الحقل العربي، أو البحث في تلقي الدراسين العرب لهذه القضايا، أو في محاولة البحث عن جذور لهذه القضايا في الفكر العربي(١)، فاشتغل بعض الطلاب في أطروحات لاقت قبولا في الساحة البلاغية والنقدية العربية؛ كمفهوم الأدبية في التراث النقدي العربي، وفي البنيوية في النقد العربي الحديث، وفي أثر كتاب الشعر في نظرية الشعر عند العرب. وكان الداعي إلى اقتراحه هذه القضايا، هو وجود الفكر العربي آنذاك في منطقة لقاء التيارات الفكرية العالمية المتلازمة والمتصارعة في الوقت ذاته، وهذا الأمر يحتم على العربي أن يتشبث بتراثه، وأن يوثِّق صلته به، تأكيدًا للانتماء الفكري والحضاري(٢)، كما يجب عليه أن يتبصر في الحديث بعين الوعي، لا بعين الدهشة والانبهار.

وللجامعة التونسية دور في تضافر جهود المتخصصين في مجالات مختلفة؛ من فلسفة، وفكر، وآداب أجنبية، وعلوم لغوية، وهذا له دوره أيضا في تكوين طبقة من الأساتذة الذين طبعوا الحقبة بطابع فكري خاص، وفي تهيئة فضاء معرفي يتعامل مع الثقافات المتنوعة، والخلفيات المتعددة، بإيجابية وفاعلية؛ فقد أوفدته جامعته بصحبة زميليه الأستاذين عبدالسلام المسدي ومحمد الهادي الطرابلسي، إلى بعض الدول العربية؛ للاطلاع على وضع الدراسات اللغوية فيها، ومقارنتها بالوضع اللغوي التونسي، كما التقى ببعض العقول المفكرة في مصر وسوريا، ولعل من أبرز من توطّدت علاقته به، صديقه الدكتور جابر عصفور، نتجت عن هذه العلاقة محاورات فكرية صريحة وضمنية، سنجد صداها في عميق تصورات حمّادي صمّود.

كما أسفر عن هذا الإيفاد التفكير بإقامة مؤتمرات علمية، منها ما يلفت الانتباه

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص٢٥٦.

(٢) يُنظر: نفسه، ص٢٥٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

إلى ضرورة الاهتمام بالدراسات اللغوية، والارتقاء بمستواها، وآخر يتعلق بقضايا الأدب قديمها وحديثها. التقى صمّود بتودروف (١٩٣٩- ٢٠١٧م)[١] عند استضافته لأحد المؤتمرات؛ كونه أحد أبرز أعلام الإنشائية؛ فقد رسم تودروف "حدود فلسفة المنهج النقدي بمطابقة أقامها بين الممارسة العلمية والممارسة الوصفية، متخذا منها دعامتي الاستنطاق الوضعي للأدب"[٢]، وهنا استفاد صمّود من تودروف أيما إفادة؛ حيث ربطتهما علاقة علمية وطيدة، أتاحت لصمّود قراءة كل ما كتب تودروف في الإنشائية، وأنواع الخطاب، والفكر البلاغي في الغرب، كما أتاحت له هذه العلاقة قراءة ما كتب تودروف في قضايا الغيرية، والتنوع، والعولمة، وكيفية الاستفادة منها، دون الوقوع في مزالقها[٣]، والمهم في هذا أن الركن الأساسي الذي بنى عليه صمّود منهجه القرائي، وطريقته في النظر إلى التراث، هو إنشائي، استفاد في تثبيته من منجزات الأسلوبية، ومن اتصاله المباشر بأبرز روادها في العالم الغربي.

وهنا تتخذ الدراسة البلاغية هذه الوجهة التي نُعِتت (بالمنحسرة)، وجهة امتزجت فيها تلك التصورات اللغوية بهذه الإنشائية؛ لتتناول خصوصيات التركيب، وطرق القول، ومقتضيات الأحوال، إلا أن هذا التناول غلبت عليه فكرة وجود الطابع التحسيني الذي يزيد من إمكانية التأثير في المتلقي، ولم يكن سبب هذا النعت هو سيطرة المقاربات البنيوية والإنشائية فحسب، بل يعود السبب الأكثر تأثيرا إلى الصيغة المختزلة التي وصلت بها النظريات اليونانية والرومانية إلى الثقافة العربية؛ فقد "ارتبطت قيمة القول بما فيه من فن قول، وعلّق تأثيره بصياغته ومذهب صاحبه

(١) فيلسوف وناقد فرنسي بلغاري، كتب عن النظرية الأدبية، وتاريخ الفكر، ونظرية الثقافة. ويعتبر من أهم منظري الإنشائية ومقولات الشعرية، ومن أهم كتبه: الشعرية، شعرية النثر، مقدمة الشاعرية، مدخل إلى الأدب العجائبي، الأدب في خطر، الأدب والدلالة.

(٢) عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة السادسة، ٢٠١٤م)، ص٢٧.

(٣) يُنظر: حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص٢٥٠ وما بعدها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

في تجويد عبارته"[١]، وهكذا أدى الوعي بهذا الإشكال والعوز إلى تغيير زاوية النظر من الإنشائية إلى الحجاجية، ومنها إلى التداولية، كل ذلك جاء مواكبا لمتطلبات الوضع الثقافي والسياسي والحضاري بشكل عام.

التفكير في أطروحة التفكير البلاغي:

اقترح عبدالقادر المهيري على طلبته موضوعا يتعلق بقضايا التأريخ للبلاغة العربية، ورصد مراحل التحول في مؤلفات بعينها، درس صمّود هذه الفكرة، وتنبه إلى غموض بعض المسائل، وشُحِّ الدراسات التي تُفصِح عما استغلق منها إن كان على المستوى النظري، أو على المستوى التطبيقي، ومن هنا انطلق حمّادي صمّود في التفكير بأطروحته التفكير البلاغي عند العرب؛ حيث لم تتناول الدراسات كثيرًا من جوانب الموضوع، ولم توفق آليات المعالجة التي سبق إليها في استنطاق نصوص التراث، ورصد تحولاته كما يذكر[٢].

واستجابةً لمتطلبات البحث، ووعيا منه بأهمية توزيع الجهد بين التعمق في القديم، والتوسل بالحديث، ركَّز صمّود اهتمامه في ثلاث زوايا[٣]؛ تكمن أولاهن في القراءة المتأنية في المدونة البلاغية التي حددها لموضوع بحثه، ترفد هذه القراءة بعض الدراسات التي أُلّفت حول الموضوع، وكانت قد توزعت بين العربية والفرنسية.

أما الثانية فتتمثل في قراءة الدراسات المتعلقة بالبلاغة/ الخطابة الغربية من (أرسطو٣٢٢ق.م) إلى جماعة (مو)[٤]، و(ميشال ماييز وُلد ١٩٦٣م)، و(بارت

(١) حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص٢٥٩.

(٢) يُنظر: نفسه، ص٢٠٣.

(٣) يُنظر: نفسه، ص٢٠٤.

(٤) هي جماعة بلجيكية (mu) تمثل حركة مركز الدراسات الشعرية بجامعة ليج، ومن أبرز أعضاء هذه الجماعة: جاك ديبوا، فرانسيس إدلين، جان ماري كلينكينبر، فليب مانكيت. تُعنى ⇦=

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

١٩١٥- ١٩٨٠م)، و(جيرار جينيت١٩٣٠- ٢٠١٨م)، و(تودروف)، وهنا نلاحظ أنه لم يركز على خطابة جماعة معينة، أو على بلاغة بعينها، بل وزّع نظره في أقطار متعددة، وبيئات مختلفة، وهذا ما شكَّل لديه قاعدةً متينةً من التجارب السابقة، منحته القدرة على تشكيل قاعدة قرائية خاصة بالتفكير البلاغي عند العرب، تنطلق من مفهوم البيان.

وتتمحور الزاوية الثالثة في قراءة الخطاب، ومعرفة مكامن السلطة، أفي القارئ؟ أم في العصر ذاته الذي يحدد طبيعة السؤال المعرفي؟ ثم توسيع الأفق القرائي ليشمل كل مدخل يسهم في الكيفية التي يجري بها القول، وغالبا ما يتجلى أن المدخل بلاغي، وهو في الواقع فكرة فلسفية تتم معالجتها بطريقة مغايرة عمَّا اعتادته الدراسات اللغوية.

إن هذه الزوايا الثلاث تُعَدُّ المرجعيات العلمية التي أنقذت مؤلفه التفكير البلاغي من مزلق محقق، فكما ذكر صمّود إن كتاب التفكير البلاغي (شب في مهاد نظري تهيمن عليه الدراسات الأسلوبية والشعرية)، وأراد له أن يكون (خالصًا للتصورات البنيوية والإنشائية)، إلا أن (ضغط المدونة) لم يسمح بتحقيق هذه المرامي، فلا بد أن تكون الدراسة أمينةً في عرض الآراء والتصورات التي احتوتها المدونة، وفي المقابل بقاء الدراسة تحت تأثير الدراسات التداولية، في حين أن صمّودا من جيل بنيوي، وصاحب "انتماء قديم كان يشده إلى ما في فكر اليسار من إيمان بالترابط بين بنى التصور والاعتقاد، ونمط علاقات الإنتاج السائدة في المجتمع"[١]، إن هذه الأسباب جعلت كتاب التفكير البلاغي يظهر في شكل بنيوي إنشائي؛ لانطلاقه من خلفية إنشائية، أو لنقل (جمالية)، استعانت بجملة من تصوراتها ومقولاتها، وهو في حقيقته

= جماعة مو بالبلاغة الحجاجية من خلال النصوص الشعرية والصورة في النصوص الأدبية بشكل عام. وسيأتي الحديث عن شيء من تصوراتها عند الحديث عن مفهوم البلاغة في المبحث الثاني من هذا الفصل.

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، مقدمة الطبعة الثالثة، صiii.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

مشروع قرائي يعرض فيه صمّود آليةً مبتكرةً لقراءة البلاغة العربية، والتراث النقدي، إن الزوايا الثلاث التي أسلفت الدراسة القول فيها، مكَّنَت صمّودا من تشكيل هذه المنهجية القرائية، ومن الوصول إلى نتيجة مؤداها أن البيان جاء بمفهومه الواسع، "نسقًا ناظمًا، وأصلا جامعا، بالنظر في علاقة الحسن بالنافع بالجمالية العربية"[١]، وإن الصورة الفنية ترتبط بجوانب فكرية يؤطِّرها مفهوم البيان.

وبهذا يمكن القول إن كتاب التفكير البلاغي إنما صدر ممثلًا لحركة فكرية كان يروم أصحابها إمعان النظر في التراث البلاغي والنقدي العربي بطريقة تفيد من المقاربات، والأدوات، والتقنيات الحديثة، وهو -كما يقول صاحبه- مشروع له امتداد[٢] في غيره من الدراسات التي يقوم بها باحثون تحت إشراف صمّود نفسه.

ثالثًا: التصورات الحجاجية:

لعل من أكثر الأسباب دفعًا لسلوك هذا المسلك الحجاجي، سببًا سياقيًّا يتعلق بالراهن السياسي لتونس آنذاك، وللبلاد العربية بشكل عام؛ فقد اقتنع الناس بأن الأنساق التي بدأت تظهر في بداية الثلاثينيات، تعتمد في ترويج مقولاتها، واستمالة أعناق الجماهير، "وإخضاعهم لسلطة الشعارات التي تقوم عليها، كانت وسيلتهم الأساسية في ذلك بلاغةً وخُطَبًا"[٣]، ومن هنا انبثقت محاولة البحث عن بلاغة تنادي بالتعقل، من خلال الرجوع إلى الأقسام الأساسية للبلاغة، مركزة في جانب العبارة الذي اقتصر على استدراج السامع؛ للتأثير فيه، وإقناعه؛ فالبلاغة المراد الوصول إليها، بلاغة تركز على وظيفة الكلام الخطابي مواءمة لسياقات الخطاب وأهدافه، "وأهم ما ميز هذا السياق، هو العنف المسلط على الساحات العامة، وإخضاع القدرة اللغوية للآلة الإيديولوجية التي وصلت بهذا العنف إلى درجة أصبح فيها (غسلًا

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٠.

(٢) يُنظر: نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص٢٦٢.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

للأدمغة)، وتعطيلًا لكل قوى الإنسان المميزة"[1]، وتسعى الزيادة في الاتجاه الجديد أو تعديل المسار، إلى بحث طرائق الانتقال من (الإقناع) كوظيفة جبرية قمعية متسلطة، إلى (الاقتناع) عن اختيار، وقبول، وتسليم؛ حفظًا لمكانة الإنسان، واحترامًا لكيانه ووجوده، وكان لاتساع حدود المجال البلاغي، نتائجه الإيجابية؛ حيث أتيحت العودة إلى قراءة التراث، خاصةً فيما يتعلق بطرق الاحتجاج الدائرة في فلك المنازعات، والخصومات، والمناظرات بين أصحاب الملل، والنحل، والفرق.

وعلى هذه الخلفية الفكرية أشرف صمّود على كثير من الأطروحات الجامعية، التي اتصلت بالتراث العربي الإسلامي، وجعلت من البحث البلاغي درسًا يركز على الفكر، وعلاقته باللغة، لا ينحصر في علاقة العبارة بالانفعالات، ومن هذه الخلفية أيضا اتسعت رقعة البحث، واشتدت الحاجة إلى وضع أسس نظرية وتطبيقية للمجال البلاغي الجديد، وتعديل مسار البحث في الشعرية إلى (بلاغة الحجاج)، فكان فريق البلاغة والحجاج الذي أشرف عليه صمّود، وجُمعت أعمال الفريق في (نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم).

أما ما يمكن أن نطلق عليه المرجعية النسقية، فتكمن أولا في اتصال صمّود (بأوليفي روبول) فترة دراسته الفلسفة في معهد الآداب، وذلك قبل أن يَذِيع صِيتُ روبول فيلسوفًا وبلاغيًّا، فدرس صمّود المنطق الصوري، وطرائق النظر في التصورات العقلية، وأهم مبادئه، والجدير بالذكر أن أهم كتابين اشتهرا لروبول، هما من صميم تخصص صمّود اليوم، والمقصود كتاب: (مدخل إلى الخطابة)، والآخر: (اللغة والإيديولوجيا).

وتكمن ثانيا، في سيادة رأي في الأوساط البلاغية والنقدية، مفاده أن البلاغة العربية قامت على ضم جناحي الخطابة والشعر، لكن البلاغة لم تعر كبير عناية للخصائص الخارجة عن اللغة في الخطابة، يقول عبدالقادر المهيري في تقديمه

(١) حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص٢٦٢.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

لمصنف أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية: "هذه هي الإشكالية التي حملته على تكوين حلقة بحث جمع فيها نخبةً من الدارسين الباحثين؛ قصد النظر في البلاغة والحجاج، بل في الحجاج في علاقته بالبلاغة"(١).

وكان للعلاقات العلمية التي أنشأها صمّود ببعض الكليات الفرنسية، عميق الأثر في الدعم العلمي لأعمال هذا الفريق(٢)، من خلال تبادل الأفكار والتصورات، عن تقاليد الحضارات الغربية في مسالك القول، وطرائق الإقناع، وآلياته.

أما عن تحول هذا الفريق من البحث في البلاغة والحجاج، إلى وحدة بحث في تحليل الخطاب، فجاء مواكبًا لمستجدات الدرس البلاغي، ورغبةً في شد الأواصر بين الجامعة، والأبحاث التي يتوجه إليها أساتذتها، "باعتبار الخطاب مفهومًا عابرًا للاختصاصات، وحاملًا لكل ما استودعته من طرق في التفكير والتطوير حتى غدت المعرفة في مجموعها جمهرة خطابات، وملتقى سلطات متهادنة متنازعة، فهو لا يحدد ميدانا بعينه، بقدر ما يدل على طريقة أخرى في تصور اللغة"(٣)، فألّف صمّود مجموعة من الأعمال يجد الدارس فيها مادةً غنيةً بتصورات عميقة، وجهد تنظيري يمكِّن الدارس العربي من الوقوف على أرضية صلبة كمقدمته لمقالات مجموعة في تحليل الخطاب، ومشاركته أستاذه المهيري في ترجمة معجم تحليل الخطاب، في محاولة للاستفادة من المفاهيم النظرية التي اشتغل عليها مجموعة فذّة من محللي الخطاب في العالم الغربي.

وجملة القول فيما سبق، إن التوجهات البلاغية والنقدية التي سلكها صمّود، وتبعه جملة من الباحثين في العالم العربي، إنما هي توجهات منبثقة عن خلفيات

(١) عبد القادر المهيري، فريق البحث في البلاغة والحجاج، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمّادي صمّود، (منوبة: مطبوعات كلية الآداب)، ص٦.

(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص٢٦٨.

(٣) نفسه، ص٢٦٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

متنوعة، توزعت بين الفكري، والثقافي، والسياسي، والاجتماعي، وتقودها أسئلة معرفية عميقة ترتبط بالسياق العلمي المتجددِ تجدُّدَ الخطاب. ولعل من أبرز العوامل التي أتاحت لصمّود جملةً تلك المرجعيات تتعلق بالفضاء العلمي والأكاديمي المنتمي إليه؛ فقد رأينا كيف كانت الجامعة التونسية ملتقى تيارات فكرية عالمية، ونزعات ذاتية تتمازج أحيانًا، وتتصارع أحيانًا أخرى، منها ما يأخذ على عاتقه مهمة التمسك بالأصول، والتشبث بالنصوص المؤسسة؛ رغبةً في تأكيد الانتماء الحضاري، ومنها ما يعي ضرورة التحديث، ومحاولة استنطاق التراث؛ حتى يدخل في عمليات حوارية مع الحديث، وكان نتيجة لذلك أن تركز جهد التحديث عند المنتمين إلى الدراسات العربية، على إعادة قراءة التراث في مختلف مسالكه، إفادة مما تولّد لهؤلاء من المخاض الفكري الذي امتلأت به الساحة الغربية، ثم بما اكتسبه هؤلاء الدارسون من مهارات معرفية في الشرح والتأويل[1].

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص٢٥٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المبحث الثاني

الحـــدود والمفاهيـــــم

إن البحث في الحدود والمفاهيم، وتدقيق حمولاتها، بمراعاة طبيعتها التاريخية، ومنطلقاتها الفلسفية، والأسئلة المعرفية التي انبثقت عنها، إجراءات مهمة فيما يتعلق بضبط المناهج، والتوجهات، والأنظمة الفكرية، وكلما كان المفهوم واضحًا، اتضحت الرؤية العلمية في الخطاب المدروس، وضوحًا على مستوى الأفكار، والقيم، والخصائص التي يشير إليها المفهوم، ووضوحًا على مستوى الإجراءات التطبيقية، وعلى النقيض، فإن ضبابية المفهوم، واضطراب دلالته، تخلق أزمةً في التفكير، ويلاحظ أحد الباحثين أننا كثيرًا ما نجد حواراتٍ عميقةً حول قضايا محددة، لكنها تفتقر إلى وجود مفهوم مشترك وواضح، "لا ينعكس ذلك على خطأ في الفهم والإدراك فحسب، ولا ينعكس على صعوبة التجاوب بين متحاورين فحسب، ولكن خطورته تمتد أيضا إلى السلوك، وإلى التصرف الذي يتبعه كل حسب المفهوم الذي ينتمي إليه"(١). ويحكي الواقع أن ضبابية المفهوم تخلق أزمةً في التفكير، بالتالي سينتج خطابًا ملتبسًا في مضامينه، هزيلًا في نتائجه.

وفي البحث البلاغي والنقدي، تتجلى تلك الأهمية بشكل خاص؛ انطلاقًا من أهمية تحديد المفهوم في نسق المشروع البلاغي المدروس في إطار وفرة الأنساق البلاغية قديما وحديثا، وتداخلها، وتشعب خيوطها، ولأن البلاغة العربية لها صلتها بالمعارف المجاورة، فما انفكت طيلة مراحل حياتها تَمْتَحُ من الفلسفة، والمنطق، وعلم الكلام، وعلم الجمال، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، والسياسة،

(١) عبد الكريم غلاب، أزمة المفاهيم وانحراف التفكير، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ٢٠١١م)، ص٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وغيرها؛ مما أكد أهمية مناقشة المفاهيم المتاخمة للخطابات البلاغية والنقدية.

وإذا كان "لكل منهج نقدي أو مدرسة خطابها المتشعب من خطاب كلي، بل إن للنقاد خطاباتهم الخاصة المتمثلة في مفاهيمهم، أو فيما يمارسونه من هيمنة ضمن حقولهم الإنتاجية"(١)، فإن هذا المبحث يتوخى معرفة المفاهيم البلاغية والنقدية التي شكلت المنظومة المعرفية في خطاب صمّود، محاولا تحليل البنى الدلالية، والخلفيات المرجعية المؤسسة لكل مفهوم، لا بوصفها مفاهيم منبثقةً عن خطاب نقدي خاص فحسب، إنما بوصفها مفاهيم مؤسسة لمشروع معرفي متكامل يعدّ اليوم من أكثر المشاريع البلاغية تأثيرا في الساحة العربية.

أدرك حمّادي صمّود منذ وقت مبكر، الأهمية المعرفية والمنهجية التي تنطوي عليها معرفة الجهاز المفاهيمي؛ فالمفهوم، والحد، والمصطلح، "من أهم المؤشرات التي نتبين بها ما وصل إليه العلم من نضج وتمكُّن"(٢)، والسبب في رأي صمّود، أن العلم لا ينشأ بصورة مفاجئة، ولا يتأتى بالإلهام، بل إن العلوم كافةً تمر بفترات تمهيدية طويلة، تصل بها إلى مرحلة من التجريد العقلي، يمكن من خلالها صياغة المفاهيم، والمصطلحات، والحدود.

كما يرى ضرورة تحديد الأطر المفهومية لكل عمل يزاوج بين البعدين التراثي والحداثي بشكل أخص؛ لأنه معرض للوقوع في مزالق الاستلاب الثقافي، والسلفية الفكرية(٣)، إذا لم يوفق في استخدام الأجهزة المفهومية بشكل يحترم خصوصية البعدين معا -التراثي والحداثي- بكل حمولات تلك الخصوصيات التاريخية، والحضارية، والثقافية، والعقدية، والأسس المعرفية أيضا، ويحتم اختلاف الزمن،

(١) ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، (المغرب: المركز الثقافي العربي، ط٦، ٢٠١٧م)، ص١٥٥.

(٢) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٠٢.

(٣) يُنظر: نفسه، ص١٣.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

والمنبت والسياق الحاضنان لهذه المفاهيم، هذا النوع من الحذر؛ حيث تولد بعضها عن ثقافة مغايرة، ونشأ في أحضان تيارات فكرية، وإيديولوجية، ورؤية للعالم مختلفة، لا بد أن تُؤخَذ في عين الاعتبار عند محاولة الإفادة منها بأي شكل كان.

تتشكل هذه المفاهيم في الإطار النسقي لخطاب صمّود البلاغي والنقدي، بما هو مجموعة من القواعد والتصورات التي تحكم الإنتاج على المستوى الفردي، وتُمَكِّنه من التدليل على سلامة التصورات في شكل نسقين؛ الأول منهما ثقافي، وكانت الدراسة قد بحثته في ظل سؤال المرجعيات الفكرية والثقافية، والآخر نصي، وهو المتبلور في الحدود، والمفاهيم، والمخططات العقلية، وبشكل عام في المقدمات والنتائج التي امتدت على طول خط سير مؤلفات صمّود، لا في مؤلف واحد، ومن هنا ستحاول الدراسة الإجابة عن التساؤلات التي طُرحت نقدا لمنهج صمّود في كتابه (التفكير البلاغي عند العرب)؛ حيث يقول حافظ الجمالي: "فما هي هذه الأجهزة تمامًا، وما هي عدتها من المفاهيم والمصطلحات، وأين استخدمت؟ وكيف؟ وماذا كان يحدث لو لم تستخدم استخداما معتدلًا؟ أظن من الواجب أن يتضح للقارئ منذ البداية، معنى الأجهزة المفهومية، وما تشتمل عليه من مفاهيم، وأن يكشف له عن طريقة استخدامها، حتى يتعلم القارئ شيئًا غير مادة البحث، وأهم منه، أي الطريقة، طريقة البحث، التي قد تستخدم في مجالات أخرى، أو في المجال نفسه؛ لتعطي نتائج أغنى، أو مغايرة لما أعطتنا، وهذا ما لم يقم به الباحث"(١)، ويردف الجمالي هذه التساؤلات بتساؤل عن الحداثة المقصودة، وعن حدودها، وعن الإضافة التي أضافتها الحداثة إلى هذا المؤلّف، وكيف كان سيفهم بدونها، ويمكن الإجابة بشكل أوَّليٍّ بما أكّده صمّود نفسه في مقدمة الطبعة الأولى لكتابه، أنه اكتفى بالاستنارة بهذه المفاهيم؛ حيث لم تكن غاية البحث هي تفكيكها، كما صرّح بأنه يتجنب تسليطها بشكل مباشر على مقولات التفكير البلاغي عند العرب، مؤكدًا أن في إثباته كلمة (الأسس) في العنوان، دليلًا

(١) حافظ الجمالي، ملاحظات قصيرة حول كتاب التفكير البلاغي عند العرب، (سوريا: اتحاد الكتاب العرب، مجلة الموقف الأدبي، ع١٣٥/ ١٣٦، ١٩٨٢م)، ص٢٣٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

على أن مشغله الرئيس "هو فهم ما يتضمنه التراث من نظريات، وآراء، في ظاهرة الأدب، والتصرف في اللغة على جهة الإنشاء في الدرجة الأولى"(١).

ويمكن تقسيم المفاهيم التي كوَّنت قاعدةً فكريةً للنسق البلاغي والنقدي عند صمّود، إلى قسمين؛ مفاهيم عامة تتعلق بالبناء الفكري عمومًا، ومنها: (التراث، الحداثة، القراءة، الخطاب/ تحليل الخطاب)، وأخرى خاصة تتعلق بالبناء البلاغي والنقدي بشكل خاص، ومنها: (البلاغة، الخطابة، التجريب، ويندرج ضمنه مفهوما الإبلاغ والمقروئية).

❑ أولاً: المفاهيم العامة:

أ- التراث:

يتمثل مفهوم التراث في الخطاب العربي المعاصر في صورتين؛ الأولى: أيديولوجية، والثانية: معرفية(٢)، ويحكي الواقع الثقافي التحام الصورتين، وعدم انفكاكهما، أما الأولى لأن الأيديولوجيا المحركة للتراث كلمة مطاطة، و"مجمل المعنى مبهمه، لا يقتضي من المتوسل به تفصيلًا ولا توضيحًا: فالعقيدة الدينية أيديولوجية، والقناعات الفكرية أيديولوجية، والمواقف السياسية والرؤى الاجتماعية أيديولوجية"(٣).

وعلى الرغم من أن الحقل الدلالي المتعلق بشؤون الفكر والثقافة لم يكن حاضرا في المجال التداولي العربي القديم، فإنه يعني اليوم: "الموروث الثقافي، والفكري، والديني، والأدبي، والفني، وهو المضمون الذي تحمله هذه الكلمة داخل خطابنا

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٣.

(٢) يُنظر: محمد عابد الجابري، التراث والحداثة-دراسات ومناقشات (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط٦، ٢٠٢٠م)، ص٢٠ وما بعدها.

(٣) حمّادي صمّود، الخلفيات الأيديولوجية في التراث البلاغي العربي، (تونس: مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع٦، ١٩٨٣م)، ص١٤١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

العربي المعاصر، ملفوفًا في بطانية وجدانية أيديولوجية"[١].

ومن هنا يمكن القول إن مفهوم التراث في مشروع صمّود، يحدده أولا الإطار المرجعي داخل فكر الرجل، والواضح للدارس أن هذا المفهوم لا يمثل عنده أطلال الأجداد، أو آثار الماضي، بل يتمثله حيًّا بوصفه جزءًا من الحاضر، وعنصرًا من العناصر الْمُكوِّنة للهوية العربية، وعلى أنه القسم الأكبر من ثقافة لم تسمح له الظروف باختلافها، أن يكتمل، أو أن يتحقق.

ولأن مفهوم التراث يستقي مضامينه من الخطاب الدائر في فلكه، بمعنى أنه يستمد عناصره من ظروف النهضة العربية الحديثة؛ سواء كانت طموحات أو معيقات -كما يشير الجابري- يأتي مشروع صمّود مبتغيا تحقيق طموحات على مستوى النظريات البلاغية والنقدية، تدفعه جملة من الدوافع أشارت الدراسة إلى شيء منها في مبحث المرجعيات، وتلخصها الدراسة في بعدين، كما أشار إليهما صاحب التراث والحداثة[٢]:

الأول: "ميكانيزم نهضوي"، مرتكزه الانتظام في التراث، والعودة إلى الأصول؛ للإفادة منها في نقد الحاضر والماضي، والانطلاق منهما إلى المستقبل، وهذا ما يتجلى في قراءات صمّود للتراث، وهي قراءات متعددة المداخل، متحولة المسارات، يقدِّمها بصورة الأنا، التي تحكمها سلطة قابعة فيه، "تمارس سلطانها في السر والعلانية، وأنا المدقوق في العصر، الموثوق إلى ما يشقه من تيارات، وما يطفح به من نظريات.. عجيب التركيب: أشق الماضي بالحاضر، وأعيش الحاضر بذاكرة منحدرة من مناطق قصية"[٣]، وما هذه السلطة، وتلك الذاكرة المنحدرة من مناطق بعيدة إلا التراث، بكل نصوصه المؤسسة التي تشكل بناءً متراكمًا يكوِّن (ثقافة) الفرد.

---

(١) محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، ص٢٣.

(٢) يُنظر: محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، ص٢٥.

(٣) حمّادي صمّود، الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة، ص٥.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وتحقيقا لهذا البعد الممثل في الانطلاق من الماضي إلى المستقبل، يقرر صمّود أنه لا يمكن الدخول إلى عصر إلا من خلال أدوات العصر ذاته، ومن خلال استحضار التراث، دون إرغامه أن يقبل شيئًا لا يطيقه، أو أن نُلبِسَه لَبوسًا لا يناسبه، والمطلوب من الفرد المنتِجِ للمعرفة، أن يفهم تراثه أولًا، لا أن يدافع عنه دون فهمه.

وهذا ما يتحقق على مستوى التراث البلاغي والنقدي؛ فإن في البلاغة العربية فكر "يمكن أن يلبي حاجة الناقد الحديث في كثير من القضايا النقدية، ذلك لأن من يراجع التراث البلاغي والنقدي عند العرب بعين محايدة، يجد أن الكتب.. مهدت للمقاييس البلاغية التي تشكل منها علم البلاغة، فهذا العلم يقوم على أسس نقدية"[١]، ولهذا يجد الباحث في البلاغة أو النقد نفسه "مهما أخذ بأسباب التطوير، مضطرًا لأنْ يعول على تلك المقاييس عند مواجهة النص"[٢].

الثاني: "ميكانيزم الدفاع عن الذات"، ويكون هذا الدافع رد فعل ضد ظرف خارجي أشبه ما يكون (بالضغط) الذي يمارسه الغرب على مقومات وجود العرب في مختلف الأصعدة، والمجالات. وهذا البعد أكثر ما يتجلى في المرجعيات الكبرى المؤسِّسة لمنظومة القيم العربية، والتونسية، في هذا السياق على وجه التحديد؛ حيث الانتماء المجتمعي لحمّادي صمّود، ولا تخفى ظروف نشأة الدولة الوطنية، ومحاولات الاستقلال المجدية، ومحاربة النزعات المارقة التي أُبيدت بفضل الحس المدني، والإرث التاريخي المؤسس للكيان التونسي، اصطبغت تلك الأنظمة المؤسساتية في تونس -وعلى رأسها المؤسسة التعليمية- بلون خاص يحقق أهدافها على المستوى البعيد، يرى الدارس كيف كانت تُوزع موضوعات إجازاتها بشكل يتواءم وأهدافها، فمن شهادة الدراسات العليا في الحضارة الإسلامية، إلى شهادة النحو العربي وفقه

(١) محمد إبراهيم شادي، ثنائيات النقد العربي، (مصر: دار اليقين للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٧هـ)، ص٢٣٨.

(٢) نفسه، ص٢٣٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

اللغة، وشهادة الأدب العربي، ترفدها شهادة الآداب واللغات الأجنبية، نتج عن هذه الإجازات تكوين معرفي عام "يحمّل نفسه مسؤولية استدعاء التراث"(١)، وما هذه المسؤولية إلا عملية دفاعية، تحدوها عقيدة ممثلة في الدور المنوط بالفرد إزاء مجتمعه، وجيله، بل عصره، أن يحقق دفاعه بعد الفهم، ولا يدافع إلا عما يمكن أن يستحضر من التراث، وما يمكن أن يُسهِم في النقاش الدائر في العالم حول قضايا العصر؛ تحقيقًا لمقولة "أن في الثقافة العربية القديمة، التي هي (تراثنا).. حالات من اللامعقول"(٢)، واللامعقول ما ينتج عن اللاعقل؛ بما هو "حالات تسكن الإنسان، وليست بانتقالات من مقدمة إلى نتيجة"(٣).

كما لا تخفى الظروف السياقية المحيطة بالوضع التونسي في النصف الأول من القرن العشرين، بما فيها "من تسلط أيديولوجي أفقد الناس حرية اختيارهم بمفعول الهرسلة الأيديولوجية، وعنف اللغة الخشبية، والقوالب المكرورة المستعادة التي لم تكن توفر لهم إلا اختيار ما يُفرَض عليهم"(٤)، كان ذلك الظرف كافيا للعودة إلى النصوص المؤسسة للبلاغة العربية، وقراءتها قراءةً تعيد صياغة تاريخها بما يحقق دور اللغة الحقيقي، والمبكر، عندما كثرت الطوائف، والملل والنحل، وكثر الزعماء لمذاهب اعتقادية توسلت باللغة؛ للتعبير عن معتقداتها بقوة الحجة، وترتيب القول، وسياسته، فكان "إرجاع اللوغوس إلى صلب الخطاب، دعوة إلى عودة الفكر عيارًا للاختيار، والعقل حكما في أقوالنا وأفعالنا حتى تعود الأمور إلى نصابها، بعد أن فقد الإنسان في النصف الأول من القرن العشرين صوابه أكثر من مرة، فانتهكت

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، البلاغة العربية وسؤال التجديد، ص١١٧.

(٢) زكي نجيب محمود، المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ١٩٧٢هـ)، ص٢٦٦.

(٣) نفسه، ص٣٦٣.

(٤) حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص٧٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الحريات، وديست الكرامة، وجُرّد الإنسان من إنسانيته"[١].

ب- الحداثة:

لم تعثر الدراسة على نص يكشف غموض مفهوم الحداثة في مدونة البحث، ولعل هذا يشي بشيء من موقف صمّود الحَذِر في التعامل مع المكتسبات المنهجية، بما فيها من مفاهيم جديدة، ولأن عملية التحديث مستمرة في صورة معارضات، "فالحداثة جاءت بمشروعها لتخليص الإنسان من أوهامه، وتحريره من قيوده، وتفسير الكون تفسيرًا عقلانيا واعيًا.. تسعى إلى إرساء الثوابت القارة، التي تحكم الإنسان، وتحكم تجربته، كما تحكم الصيرورة الثقافية"[٢]، واللحظة المعيشة، والتجربة الحالية "هي الحقيقة التي يجب التعامل معها ضمن كامل التاريخ"[٣]، في حين جاءت مرحلة ما بعد الحداثة؛ لتقلب المقولات الحداثية، "فليس هناك ثمة ثابت يحكم المتحول، وليس ثمة عقل يفسر تفسيرا غير متحيز أوجه النشاط الثقافي البشري.. كل ما هنالك هو تشكيل مستمر لا يمكن تبريره أو تفسيره.. يقبل التفسير فقط من داخله"[٤]، ومن هنا يذهب صمّود إلى أن الحداثة تُبنى في العمق على نقد مكتسبات الإنسان "في الفلسفة، والعلوم، والنظريات الاجتماعية، والاقتصادية، وحتى في عقائده، وأنظمته الرمزية"[٥]، وهذه الإشارات لا تختلف عما دأب الدارسون على ترديده من قبيل إن الحداثة تعني الثورة ضد التقليد، ومركزية العقل[٦]، أو كونها بحثًا لا ينقطع عن

---

(١) نفسه، ص٧٨.

(٢) ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ص٢٢٥.

(٣) نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) نفسه، ص٢٢٦.

(٥) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص٤٥.

(٦) يُنظر: علي وطفة، مقاربات في مفهومي الحداثة وما بعد الحداثة، (المغرب: مجلة فكر ونقد، ع٤٣، ٢٠٠١م)، ص٩٦.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

إجابات للأسئلة الوجودية، وإشكاليات العصر، أو بما هي الإبداع الذي هو نقيض الاتباع، والعقل الذي هو نقيض النقل(١).

وفي مرحلة متقدمة من ذيوع مكتسبات الحداثة، والتفكير فيها، يقرّ صمّود أن الحداثة شيء نبنيه؛ لذلك فهو ليس تصورا، وتحديد مفهوم الحداثة ليس بالأمر اليسير، والإشكال الذي نقع فيه أننا عند تعريفنا للحداثة، نقع في بعدين:

الأول: ما يسمى ببعد الأصالة.

الآخر: وجود حضور فوقي أو تجاور، يعني البعد الأوروبي.

ويذكر صمّود، "أننا في حديثنا جميعًا نعود إلى مرجع ما، هو أوروبا، إن وجودنا في نقطة التقاطع يُعقِّد القضية، أو يضيف إلى عسرها عسرا؛ لذلك فأنا ممن يقولون إن الحداثة يجب البحث عنها في منجزاتها"(٢)، ثم إن النقاد العرب يتحدثون حينها عن الحداثة في الأدب فقط، معزولةً عن الميادين الأخرى؛ لذلك يرى صمّود أنه من الأجدى فيما يتعلق بالحداثة، أن تعالج في النسيج المشترك الذي إن ضُمَّت أجزاؤه أنتج حداثةً؛ "الأدب مظهر فقط من مظاهرها، أو إنجاز من منجزاتها"(٣)؛ لذلك فإن صمّودا يتفق مع المشروع الذي اقترحه كمال أبو ديب؛ لتحديد معنى الحداثة، وهو تصور ينطلق من منطق لغوي إنشائي، تنزع فيه الحداثة إلى نقل محور الفاعلية الإبداعية من مستوى الرسالة إلى مستوى الترميز، وفي المقابل (اللاحداثة) كونها ظاهرة تعبر عن نفسها في تركيز النظام على الرسالة، أيا كان نوعها(٤).

---

(١) يُنظر: جابر عصفور، إسلام النفط والحداثة، ضمن الإسلام والحداثة، (لندن: ندوة مواقف، دار الساقي، ١٩٩٠م)، ص٢٠٩.

(٢) حمّادي صمّود، حوار ضمن ندوة الحداثة في الشعر، (مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج٣، ع١، ١٩٨٢م)، ص٢٦٢.

(٣) نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) يُنظر: كمال أبو ديب، حوار ضمن ندوة الحداثة في الشعر، (مجلة فصول، الهيئة المصرية =⇦

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

إن مسألة التحديث أو التجديد حسب صمّود، ليست صيغةً واحدةً منمطةً ومحددةً ذات قالب جاهز، وليست بنيةً ثابتةً لا تتغير؛ "فلكل عصر تصوراته، ومفاهيمه، ومِن ثَم جدته، ومشروعه في التغيير، وإعادة الصوغ"(١)، وهذا ما غاب عن كثير من التصورات العربية -حسب صمّود-؛ فالثقافة العربية في خضم انشغالها بالتصورات البنيوية وما بعدها، نسيت أن هذا الاهتمام "ليس إلا حلقةً من صلة مستمرة كانت لأوساطنا بالأوساط الأجنبية"(٢)؛ إذ ينبغي النظر إلى ما بعد هذه الحلقة؛ لاستكمال عمليات التحديث، وفقا لأسئلة العصر، ومشاغل البلاغة والنقد الجديدة.

ت- القراءة:

كانت الدراسة قد ألمحت في المبحث الأول من هذا الفصل، إلى قراءة التراث باعتبارها تقنية أفاد منها الفكر الحديث إفادةً بالغةَ الأهمية، والواقع إن القراءة قديمة وحديثة في الوقت نفسه؛ قديمة؛ لأن الإنسان يقرأ منذ القدم لأهداف مختلفة، وبأشكال مختلفة، وحديثة؛ إذ تزايد الاهتمام بفعل القراءة بوصفها إشكاليةً تتمخض عن أسئلة معرفية تتجدد تجدد التيارات الفكرية، والتصورات الفلسفية، والغايات الإنسانية بشكل عام، ولأنها "نقلت مركز الاهتمام في العملية النقدية الإبداعية من منبعها (المبدع)، إلى مصبّها (المتلقي)"(٣)، بهذا يكون مفهوم القراءة قد انتقل من الدلالة العامة، إلى الدلالة الخاصة المتعلقة بجملة من العمليات العقلية الثانوية، من قبيل التفكيك، والتركيب، والتحليل، والتقويم، والتأويل، والتفسير.

فمنذ أواخر القرن الثامن عشر، "وفي أعقاب انقطاع المد الإبداعي في الفكر

= العامة للكتاب، مج٣، ع١، ١٩٨٢م)، ص٢٦١.

(١) حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسال الدرس وتصاريف الخطاب، ص٦٢.

(٢) نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) عبد السلام محمد رشيد، إيهاب مجيد جراد، في مفهوم القراءة، (بغداد: مجلة الأستاذ، ع٢١٠، مج١، ٢٠١٤م)، ص١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

العربي على مدى خمسة قرون أو يزيد، إلا من حالات فردية استثنائية، بدأت حقبة جديدة في حياة هذا الفكر، هي الحقبة التي اصطلح على تسميتها بالنهضة الحديثة"[١]، في هذا السياق عمل صمّود -كما عمل جملة من المفكرين والنقاد والباحثين- على تفعيلها بما يتواءم وأهدافه ومنطلقاته الفكرية، منتقيا من التراث البلاغي والنقدي، العربي والغربي، ما يمكن أن يجيب عن أسئلة البلاغة المعاصرة، والنقد الحديث.

يذهب صمّود في تصوره للقراءة إلى أن كل عملية قرائية بحاجة أولا إلى نقطة ارتكاز، تتم من خلالها العملية الانتقائية للعناصر المساعدة في النص، على بناء القراءة، ومن ثم إقصاء عناصر أخرى لا تنسجم مع التصور الذي نصدر عنه، وعليه فإنها "تسقط من القراءة، حتى لكأنها في عداد ما لم يوجد، وهي في الحياة باقية قابعة في زاوية ما من النص، تترقب القراءة المغايرة التي تضع يدها عليها، فتُخرِجُها من وضع النسيان والإهمال"[٢].

وعليه، فإن إمكانية تعدد القراءات، تأتي تبعًا لتعدد المنطلقات، ونقاط الارتكاز، وزوايا النظر، ومثال ذلك التطبيقي ما قام به الباحثون من قراءات للتراث ركزت في الغالب على جانب العبارة، وأهملت ما يتعلق بسياسة القول؛ لأنهم لم يعدوه موضوعًا جديرًا بالاهتمام، تزامنًا مع القراءات الجمالية، أما عندما طُبقت شبكة قراءة تنطلق من نقطة ارتكاز، وخلفية قبلية مختلفة، كالمنطلق الحجاجي، أمكن إعادة فهم النظرية البلاغية بشكل مغاير، وجاء التركيز على عناصر غابت في القراءة الأولى.

ويذهب النقاد إلى أن جُلّ هذه القراءات بما فيها قراءة حمّادي صمّود، تشترك

(١) عز الدين إسماعيل، قراءة جديدة لتراثنا النقدي، أعمال ندوة قراءة جديدة لتراثنا النقدي، (جدة: النادي الأدبي الثقافي بجدة، ١٤٠٩هـ)، ص١٤.

(٢) حمّادي صمّود، أتكون البلاغة في الجوهر حجاجا؟، ضمن كتاب دراسات لسانية-أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد القادر المهيري، (تونس: جمعية اللسانيات/ مج٣، ١٩٩٧م)، وأعيد نشره ضمن كتاب: من تجليات الخطاب، ص٧٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

في إعادة التأويل والقراءة طبقا لمقررات جديدة، "إن إعادة التأويل والقراءة، قرين مظاهر الحداثة من حيث هي (الشك، والتجريب، وحرية البحث المطلقة، والمغامرة في اكتشاف المجهول، وقبوله"[١].

وهكذا، فإن القراءة تتشكل وفق سؤال مطروح، قد تكون إثباتًا، وقد تكون نفيًا، ثم إن هذه الأسئلة تكون ظنِّيَّةً لا يُشترط الإجابة عنها، بل المهم هو الوعي بمقتضى كل إجابة يتصورها القارئ، ثم يقترحها، وللقراءة آليات يمكن استنباطها من خلال التصورات التي يبثها صمّود في أبحاثه، ومن خلال إجراءاته التطبيقية في المسار الكلي لمشروعه، سنرجئ الحديث عنها إلى الفصل الثالث من هذه الدراسة -إن شاء الله-.

ث- الخطاب/ تحليل الخطاب:

يُعَدُّ (الخطاب) من المفاهيم التي تسترعي انتباه الكثير من العلوم الفلسفية، والتاريخية، والأدبية، وغيرها، ولكل علم طريقته في تحقيق المفهوم، ودلالاته، وإجراءاته التطبيقية، ويشير مدلول الخطاب إلى بعدين؛ الأول لغوي، ويرمز إلى "كل كلام تجاوز الجملة الواحدة؛ سواء كان مكتوبًا، أو ملفوظًا"[٢]، وله بعد آخر هو "ما تبلور في كتابات بعض المفكرين المعاصرين، وفي طليعتهم الفرنسي ميشيل فوكو (في أركيولوجيا المعرفة)، ويحدد الخطاب بأنه شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية، والسياسية، والثقافية، التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب ينطوي على الهيمنة والمخاطر في الوقت نفسه"[٣]. أما الخطاب النقدي فهو "مجموعة وافرة من النصوص النقدية، تتقاطع خصائصها الشاملة المشتركة في الاستعمال النوعي

(١) مصطفى بيومي عبد السلام، دوائر الاختلاف، قراءات التراث النقدي، (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢م)، ص٣٠٢.

(٢) سعد البازعي، ميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، ص١٥٦.

(٣) نفسه، الصفحة نفسها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المتقارب لجملة من المناهج، والآليات النقدية الحديثة، يعكسها النهل من قاموس اصطلاحي مشترك، يستمد وحداته من الدروس اللسانية والسيميائية المعاصرة بدرجة خاصة"(١).

ورد في المعجم المشترك لعبد القادر المهيري وحمّادي صمّود أن تحليل الخطاب "يتعلق بفضاء لطرح الإشكاليات"، مؤكدين أن تاريخ تحليل الخطاب منذ الستينيات كان يشير إلى وجود صبغة فنية في تحليل الخطاب، ثم اتسع حقل الدراسة تدريجيًّا؛ ليشمل جملة الإنتاجات اللغوية، وحاول وضع جهاز مفهومي خاص، وحدد طرقه الخاصة المغايرة عن الطرق الهرمينوطيقية التقليدية(٢).

وانسجاما مع موقف صمّود من التراث، فإنه يقدم لمجموعة دراسات ضمن إطار حلقة تحليل الخطاب، يتجلى فيها وعي الباحثين باختلاف الخلفيات النظرية التي يقوم عليها مفهوم تحليل الخطاب، ومفهوم الخطاب نفسه في الثقافة الغربية، والتطلع إلى آفاق جديدة في البحث؛ للانخراط في معارف العصر من منطلقات أصيلة، من هذه الدراسات ما يتناول تصور البلاغيين العرب، للخطاب لا بوصفه مصطلحا حاضرا في التراث البلاغي، إنما بوصفه أساسًا من الأسس المتينة التي قامت عليها أنماط التفكير البلاغي عند العرب، وكان من نتائج هذه التصورات البلاغية، أن الخطاب يتشكل في أركان ثلاثة؛ "لفظ مركب تركيبا تاما، واستعمال متكلم ما لهذا اللفظ، وعلة باعثة على هذا الاستعمال"(٣)، فجاء التفكير البلاغي محددا لثوابته حسب

(١) يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، (الجزائر: منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠٠٨م)، ص٦١.

(٢) يُنظر: باتريك شارودو، دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيري، حمّادي صمّود، (تونس: المركز الوطني للترجمة، ٢٠٠٨م)، ص٤٨.

(٣) بسمة بلحاج رحومة الشكيلي، قراءة في بنية التفكير البلاغي العربي انطلاقا من مفهوم الخطاب، ضمن كتاب مقالات في تحليل الخطاب، تقديم: حمّادي صمّود، (تونس: كلية الآداب والفنون والإنسانيات بجامعة منوبة، ٢٠٠٨م)، ص١١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

هذه الأركان؛ فالبلاغة صفة ترجع إلى اللفظ، ومن هنا كانت عناية البلاغيين بدلالات التراكيب، بوصفها سبب المزية في القول، وكذلك ميزوا بين دلالات التراكيب، وخواص التراكيب، كون البلاغة ترجع إلى اللفظ من حيث إفادته للمعنى الحاصل من استعمال اللفظ. والبلاغة تبدأ مع توفر القصد الباعث على الاستعمال من حيث هي (مطابقة الكلام لمقتضى الحال)، وتشترك في المطابقة كل الظواهر البلاغية المدرجة في علومها الثلاثة(١).

❑ ثانيًا: المفاهيم الخاصة:

بعد أن حاولت الدراسة تحديد الأطر المفهومية التي يرتكز عليها مشروع صمّود، الذي انتقل منه إلى مشروع بلاغي ونقدي أوسع، تروم الآن تحديد المفاهيم البلاغية والنقدية التي أدلى صمّود فيها بدلوه، محاولًا إمعان النظر فيها، وتدقيقها، ثم إعادة قراءتها، وإسهامًا في حل الإشكال الذي أرق البحث البلاغي المعاصر لإخراج البلاغة من المفهوم المختزل، إلى مفهوم ينفتح على أنماط الخطاب التخييلية والتداولية، ويفيد من تصورات المجالين البلاغي والنقدي في مقاربة الخطابات المختلفة وتحليلها.

أ- البلاغة:

يمكن استجلاء مفهوم البلاغة في مشروع صمّود، ضمن بعدين؛ الأول يتشكل من خلال قراءته للمفهوم البلاغي في النصوص المؤسسة، أي: في التراث العربي، أما الآخر ففي التصور الجديد الذي يطرح البلاغة العربية مقابلا للخطابة اليونانية، ثم في انفتاح المفهوم البلاغي على مجمل أنماط تحليل الخطاب مثلما تبين سابقًا.

ففي المدونة البلاغية المحصورة في الفترة التي حددها صمّود في كتابه التفكير البلاغي، المنتهية بالقرن السادس، هناك قضايا حُدت حدودها، ورسمت ملامحها على

(١) يُنظر: نفسه، ص٧.

رسالة الدكتوراه الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

مستوى الحد والمصطلح، وأخرى بقيت عائمةً متقلقلةً لم تظفر بذلك التحديد.

وممـا ظهـر لصـمّود، أن اهتمـام العلمـاء المتقـدمين؛ مـن فلاسـفة، ومتكلمـين، ولغويين، ونقاد، وبلاغيين، وأدبـاء، بـالمفهوم البلاغـي، واضـح؛ "فلقـد قلبـوا الصـيغة على مختلف صورها، وضبطوا جملة معانيهـا اللغويـة"(١)، فاسـتخدموا لفظـة البلاغـة دالة على معان متعددة، تعدد الدلالات، وزوايا النظـر، وتؤكـد هـذه الـدلالات المتعـددة تعدد الروافد التي رفدت نشأة الدرس البلاغي، وتعـدد الحقـول المعرفيـة التـي اسـتعان بها الدرس البلاغي؛ للإجابة عن أسئلته، ومعالجة قضاياه.

ولعل من أبرز المبادئ التي دعمـت مفهـوم البلاغـة، مـا جـاء بـه اللغويـون فـي مسائل "جعلتهم بالتفكير فيها يتجاوزون حدود النحو، إلى أبحاث رسمت إطـارا نظريـا صالحا لجملة المشاغل اللغوية المتأخرة، بما في ذلك البحـث البلاغـي"(٢)، يخـرج مـن هذه المسائل اهتمامهم بمفهوم (التوسع)، بوصفه "أسـاس العمـل البلاغـي، وركيزتـه"، وهو المفهوم المركزي "الذي تدور في فلكه بقية المبادئ الأخـرى"(٣)، وُظـف بطريقـة شمولية؛ ليغطي الفـراغ عنـد عـدم مطابقـة الاسـتعمال للقـانون اللغـوي، لكنـه لا يعنـي الحرية المطلقة، ويؤكد أولوية الفهم، والإفهام، وإزالة اللبس والغموض عـن كـل عمـل لغوي.

ويعمد صمّود إلى استخدام جدول بياني يُجلِّي فيه المتون المستخدمة للتعبير عـن حدّ البلاغة في مدونات متعددة، يلاحظ فيها أنها لم تحقق شروط الحدّ بمعناه المنطقـي، أي: بما هو "قول دال على ماهية الشيء، أو هو: قولٌ يشـتمل علـى مـا بـه الاشـتراك، وعلـى مـا بـه الامتيـاز؛ فالحـد المشـترك: جـزءٌ وضـع بـين المقـدارين، يكـون منتهًـى

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٠٢.

(٢) نفسه، ص٩٢.

(٣) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٩٣.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

لأحدهما، ومبتدًى للآخر، ولا بد أن يكون مخالفًا لهما"[١]، فجاءت بعض هذه الحدود في "عبارات غامضة لا تخلو من المجاز"[٢]، فلم يدل على ماهيّة ما وُضع لأجله، وبعضها الآخر ما انفك عن تبيان الخصائص الأسلوبية "فأصبحت بحثًا في الوجوه البلاغية، لا تعريفا"[٣].

ولعل صمّودا هنا يتفق مع ما ذهب إليه بدوي طبانة في محاولته الموسومة بـ (في الطريق إلى تحديد المفهوم)، بعد أن أورد جملةً من الاستعمالات الأولى (للبلاغة) من حيث هي (شيء تجيش به صدورنا، فتقذفه على ألسنتنا، وهي الإيجاز، والإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل)[٤]، يقرر أن أكثر ما ورد يُعَدُّ من قبيل الأوصاف التي تتصل بالتعبير، "ويختص بالصياغة والأسلوب"[٥]، ويعقّب "ولكن بعض المفكرين في الفن الأدبي، كانوا يتجهون بالبلاغة نحو الأفكار والمعاني، ويتخيرون من تلك المعاني ما يلائم مذاهبهم، أو عقائدهم، أو تصورهم للحقائق"[٦]، ويضرب مثالا على ذلك ما رُوي عن عمرو بن عبيد، وهو معتزلي عُرف بزهده، لمَّا سئل: ما البلاغة؟ قال: "ما بلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشدك، وعواقب غيك.. إلى أن قال: إنك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين، وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين،

(١) علي بن محمد الجرجاني، كتاب التعريفات، تحقيق: إبراهيم الإبياري، (بيروت: دار الريان للتراث، د.ت)، ص١١٢.

(٢) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٠٤.

(٣) نفسه، ص١٠٤.

(٤) يُنظر: عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص١١٠.

(٥) بدوي طبانة، في الطريق إلى تحديد المفهوم، (القاهرة: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٦٥م)، ص٤٩ وما بعدها. ويُنظر أيضا: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٠١ وما بعدها.

(٦) بدوي طبانة، في الطريق إلى تحديد المفهوم، ص٥٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان؛ رغبةً في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب"[١]، ولما كان عمرو بن عبيد من شيوخ المعتزلة، جاء تصوره لمفهوم البلاغة منسجما مع عقيدته ومذهبه؛ لذا فالبلاغة عنده "هي بلاغة التزهيد والاعتزال، فيها إيثار الصمت على الكلام، وفيها تقرير حجة الله في عقول المكلفين.. وهذا حديث من يوجه الكلام نحو مذهبه ونزعته، ويؤوله لخدمة أسلوبه في الحياة"[٢]، وحسب ما يذهب إليه صمّود، فإن البلاغة عاشت (منحسرة) وفق هذا المفهوم، "بدأت هذه الثقافة تنضوي تحت سلطة قِيمة جديدة ولدت في فضاء القرآن ودائرة علومه.. هذه القيمة هي قيمة الوضوح والبيان، الضامنة للفهم باعتباره الشرط الأدنى (لتقرير حجة الله في عقول المكلفين)، وعلى هذه المفارقة ستعيش البلاغة طيلة تاريخها باعتبارها احتفاء بالشكل، وتغييبا له في الآن نفسه"[٣]، وينتهي صمّود إلى أن هذه المفاهيم انقسمت في مضمونها إلى ثلاثة أقسام، نحاول تصنيفها على النحو الآتي:

(١) عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ص١١٢.

(٢) بدوي طبانة، في الطريق إلى تحديد المفهوم، ص٥١.

(٣) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص٣١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وظيفي تواصلي	حجاجي وتخييلي	أسلوبي
حيث تتركز الوظيفة النفعية المؤلفة من شق بياني (إبانة وإفصاح وبيان)، وآخر تربوي (الحكمة وتأديب النفس وتربيتها)، وهذه الوظيفة عامة بعيدة كل البعد عن التصورات الفنية والشعرية.	منطلق من الأساس العقائدي، والغايات الجدلية الإقناعية، وذلك بإيراد القول ونقيضه على طريقة البلاغة اليونانية القديمة، ثم يربط بين معنيين، من خلال تعريف ابن المقفع: الأول الكشف والإبانة ربطا بالوظيفة في القسم الأول، والآخر الكامن في التصوير باعتباره الشق المعول عليه بما فيه من إيهام وتخييل باستطاعتهما تغيير الحقائق.	وهذا القسم أكثر الأقسام حضورا في المفهوم البلاغي القديم، جاءت التعاريف في إطاره معنيةً بإبراز المقاييس الأسلوبية على مستوى البنية الكلية للنص الأدبي، فشملت خصائص اللفظ والمعنى معًا. فمن خصائص اللفظ الأسلوبية: سلامته من التكلف، البعد عن التعقيد "وهي مقاييس انطباعية يتحقق بها الطبع، وقرب المأخذ؛ بحيث ينطبع معناه في الذهن بمجرد تلقيه، فلا يكون السامع ليفهم المراد، في حاجة إلى أن يطيل التأمل والتفكر"(١). أما من خصائص المعنى: فمن ناحية مطابقته للفظ "وتزامنهما بحيث يستدعي حضور المتصور في الذهن اللفظ اللائق به، المؤدي له بضرب من الشفافية، لا مجال لأن يشاركه غيره فيه"(٢).

وهكذا على طريقة الأسلوبيين يدقق صمّود النظر في البلاغة، منتقيًا مفهوم (الإيجاز)؛ ليؤكد من خلاله أن ثمة تناسبًا عكسيًّا بين قلة اللفظ، وكثرة المعنى، تعتمد فيها البلاغة على الطاقة الإيحائية "بحيث تخرج الدلالة من الإدراك المباشر، إلى التداعي، فتنفجر المعاني تفجرًا، ويأخذ بعضها برقاب بعض"(٣)، فلا تعتمد هنا المعاني على التوافق الخَطِّي بين الكلمات، بل على الرصيد المختزن في ذهن الفرد، فتتوارد الكلمات في الذهن عبر عمليتي التداعي والإيحاء، هكذا يتكون مفهوم البلاغة حسب هذه الرؤية.

ولا يتوقف تدقيق صمّود لمفهوم البلاغة عند هذا الحد، فسنلفيه يناقشه في صلب النظرية البيانية عند الجاحظ؛ فقد ورد حد البلاغة عند الجاحظ في مواطن متعددة،

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٠٦.

(٢) نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) نفسه، الصفحة نفسها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

يعرض لها صمّود؛ ليجد إشكالات متعددة، أهمها خروج تلك الحدود عن حيز النص، وتعلقها بمسائل خارج المشغل الرئيس للبلاغة؛ فبعضها يقتصر على تحقيق وظيفة الفهم والإفهام، دون الخوض في خصائص النص الفنية، وبعضها يربط بلاغة النص بسلامة منطق المتكلم من العيوب، ومنها ما يحتاج إلى تأويل؛ لمعرفة المقصود، ويجعل من ذلك قولهم "جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة"، جازمًا أن هذا الحد يتعلق بالنظر الحجاجي، والجدلي، وطرائق الظهور على الخصم، وإقناعه، واستمالته، ولا يتعلق الأمر بتعليم صناعة الكتابة، أو نهج البلاغة(١)، وسنجد أن صمّودا يبني على هذه التصورات نظريةً خطابيةً متكاملةً مستلةً من بلاغة الجاحظ، معوِّلًا على ارتباط نظرية الجاحظ في النص الخطابي، بظروف عقائدية وسياسية مختلفة، وستقف الدراسة عند هذه التصورات في الحديث عن المقولات الحجاجية.

وفي استقرار الدرس البلاغي مع إسهامات متعددة يبرز فيها دور المبرد في تعريفه للبلاغة الذي يعتمد على تأليفه جملة من التعريفات التي سبقته، تجمع مقاييس واضحة، بُنيت في الأصل -كما يرى صمّود- على مكتسبات كتاب البيان والتبيين بشكل خاص، ويدخل في إطار عملية الفهم والإفهام التي ستحتل الوظيفة الأبرز، والأكثر حضورًا فيما يعرض له صمّود.

بين البلاغة والخطابة:

من جهة أخرى، يعمد صمّود إلى مفهوم البلاغة اليونانية، مبيّنا الفرق بين التقاليد الغربية الأرسطية للبلاغة، والتقاليد العربية، مؤكدًا أن (تحرير الاتفاق والاختلاف بين مصطلح البلاغة وبين الخطابة مبحث جليل القدر)؛ حيث يواجه الدارس العربي عند بحثه مفهوم البلاغة، إشكالًا في ترجمة "Rhetorique"، هل يترجمها بالبلاغة، أو بالخطابة؟ أو يزاوج بينهما؟

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٥٦ وما بعدها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

يؤكد صمّود أولًا، أن الحقل المعنوي لكلمة "Rhetorique" لا يطابق (البلاغة) في الحقل المعنوي العربي، ويدقق صمّود المصطلح، فيذكر أن الخطابة عند أرسطو "صناعة مدارها إنتاج قول يبنى به الإقناع في مجال المحتمل"(١)، وهذا يدل على معنى الخلق والإبداع، وإن كان هذا التحديد يفتقر إلى شروط التعريف المنطقي، إلا أنه يدل على "إنها مثل ملكة للإقناع، سيدته ذات السلطة المطلقة فيه، وأنها بالنسبة لهذا العمل، ليست مثلما عامل البناء بالنسبة للمنزل، بل مثل المهندس الذي يضع التصور لتصميمه، ويوجه، ويضبط بفنه أداء عماله"(٢)، يُفهم من هذا أن صناعة الخطابة في المقام الأول، هي عمل يسبق عملية القول، إلا أن صمّودا يركز فيها على الحدث الخطابي من حيث إنه "يحاول أحد الطرفين فيهما أن يؤثر في الطرف المقابل جنسًا من التأثير يوجه به فعله، أو يثبت لديه اعتقادا، أو يُميلُه عنه، أو يصنعه له صنعًا"(٣)، أو هي كما يحددها أوليفي روبول: "فن الدفاع عن النفس بالمحاجة في وضعيات حيث البرهان غير ممكن"(٤)، وهي "تقنية الخطاب المقانعي، الذي يستخدم من بين وسائل الإقناع الأخرى، الجدل كأداته الفكرية"(٥).

ويؤكد صمّود أن مفهوم البلاغة العربية، يختلف عن مفهوم نظيرتها اليونانية، من حيثيات مختلفة، ومن أبرزها:

---

(١) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص٢٠.

(٢) الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الاصول اليونانية، (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠١٠م)، ص٥١.

(٣) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص١٢.

(٤) أوليفي روبول، مدخل إلى الخطابة، ترجمة: رضوان العصبة، (المغرب: إفريقيا الشرق، ٢٠١٧م)، ص٥٥.

(٥) نفسه، ص٦٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

١- ظروف النشأة، والحاجة الداعية إليها، والتحولات التي اعترت النظرية إزاء تغير السياق التاريخي؛ فاليونانية نشأت "نشأة فلسفية منطقية، تحاول تصنيف الأقوال بحسب قدرتها على قول الحقيقة"، تتعلق هذه النشأة بالظروف السياسية العصيبة التي عاشها المجتمع اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد تحديدا؛ من استبداد، وجور، وصراعات أهلية، وتذهب الدراسات إلى أن الخطابة اليونانية "وُلدت في خضم المحاكمات العديدة التي عرفتها مدن صقلية.. وهي محاكمات تتعلق بمحاولة المواطنين العائدين إلى مدنهم، استرداد الملكيات التي سُلبت منهم إبان حكم الطغاة، الأمر الذي كان يتطلب منهم أن يرافعوا.. ومن هنا ظهرت الحاجة إلى تعلم الخطابة"(١)، أما الأسباب الكامنة وراء نشأة البلاغة العربية فمختلفة كل الاختلاف، إذ "ظهرت تباشيرها في أحضان الشعر.. ولم يغير القرآن من الأمر شيئًا، بل قواه، وتبثه، حتى غدا التفوق وبلوغ النهايات مرتبطين في ضمائر الناس بالشكل والمظهر"(٢)، ويؤكد صمّود مذهبه في أن نزول القرآن شدد على الفكرة الشكلية الراسخة في أذهان العرب في غير موضع؛ "فالقرآن لم يولد بلاغة تهتم به، وتصنع الأدوات الكفيلة بالوقوف على أسراره، وما فيه من أساليب معدولة عن مستوى النص البشري"(٣)، والسبب في ذلك أن البلاغيين "ترددوا في مأتى الإعجاز متى تعلق الأمر بالنص، فذهبوا جميعا إلى أنه الشكل، والهيئة، وتصاريف الكلام"(٤)، مؤكدا أن في

(١) الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، ص٣٦.

(٢) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص١٩.

(٣) حمّادي صمّود، ضمن ندوة جدل السنن والبدع، (تونس: المعهد العالي للغات بنابل، ٢٠١٨م)، عبر https://www.youtube.com/watch?v=G7BoCzBLs0s

(٤) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص١٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الإعجاز وجهًا حجاجيًّا[١] تقشعر له الأبدان، فتذعن وتقتنع، إلا أن المتقدمين لم يتطرقوا إليه، ولم يظهر إلا بعد حين عند المفسرين، والأصوليين، وبعض البلاغيين المتأخرين.

٢- انحسار البلاغة العربية منذ نشأتها مقارنة بالبلاغة الأرسطية؛ حيث اهتمت بالمظهر اللغوي، وما يتضمن من محسنات، ويرجع صمّود العلة في هذا الانحسار إلى سيادة البنية الشعرية التي تستمد كيانها من هيئة اللغة، وإلى دور القرآن في تثبيت نهج الشعر "فأصبحت القيمة الأدبية التي يبرز على أساسها الفضل والتفوق، هي التصوير، والصياغة، والنسج، وأحلت المعاني مرتبة دون مرتبة اللفظ؛ لأنها مبذولة يشترك في معرفتها جميع الناس"[٢].

٣- إضافة إلى اختلاف السياق العربي الإسلامي، عن السياق اليوناني الأثيني، من ناحية المؤسسات الخطابية؛ "فبنية القضاء عند المسلمين مختلفة عن بنية المحاكم في أثينا؛ حيث كانت المرافعات سببًا في نشأة أحد أجناس الخطابة الثلاثة، وهو الجنس المشاجري"[٣].

وهكذا، تؤكد لنا هذه التأملات التي دقق فيها صمّود النظر، أن اختلاف المفهومين البلاغيين العربي والغربي، يوقع في الكثير من المزالق عند محاولة النسج على المنوال البلاغي الغربي، وعند اجتهاد بعض الدارسين في تجديد أو توسيع الدرس البلاغي، وهذا ما حدث عند قيام الأسلوبية، ودعوة بعض المعاصرين إلى إحلالها محل البلاغة، بوصفها الوريث الشرعي لهذه الأخيرة.

---

(١) يشير صمّود في هذا الاتجاه إلى دراسة عبد الله صولة: الحجاج في القرآن، وهي من إشراف حمّادي صمّود، يقول عنها: "وجد مادة مهمة جدًّا عند المفسرين بالدرجة الأولى، وعلماء الأصول بعد ذلك"، من تجليات الخطاب، ص٩٦.

(٢) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص٢٧.

(٣) نفسه، ص٢٢.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

ففي الحقبة التي صادفت التحول المعرفي مع ظهور دراسات علم اللغة، رام اللسانيون إعادة النظر في المنجز اللغوي؛ لإرساء علم الأسلوب أو الأسلوبية؛ لاقتناعهم أن الخطابة علم قد فَنِيَ، ويبرهن صمّود على هذا الفهم السياقي، بأنه وجد "أكثر من مؤلف، وعند أكثر من أخذ بهذا العلم مناصرا إياه إجراء مصطلح (الخطابة الجديدة) على الأسلوبية"(١)، على أن الأسلوبية والخطابة تشتغل في الحقل ذاته، لكن الخطابة عجزت عن مسايرة التغيرات المعرفية، وزخم التيارات الفكرية، فجاءت الأسلوبية لتوظف مختلف الإمكانات في التعامل النص، ومن ناحية أخرى جدّت دراسات تروم العودة إلى الخطابة الأرسطية، تجافي المشروع الأسلوبي، "من جهة أنه لا يهتم من لغة النص والخطاب إلا ببعض المظاهر المساعدة.. وهي مؤلفات تدرس.. من وجهة نظر منطقية، الأساليب، والطرق المعتمدة لإقناع السامع، أو جعله يقتنع بما يروج من آراء"(٢)، وبفعل التيارات المتناقضة التي يعيشها العصر، وضجيج الأحداث السياسية، والفكرية، والاقتصادية، ولكثرة الصراعات الإيديولوجية، كان الاهتمام بالخطابة ضرورةً؛ حيث حضور الخطاب المضاد، واختلاف الرأي، والبحث عن الحرية. بل إن صمّودا يذهب إلى أبعد من ذلك -ومنذ وقت مبكر- في أن العصر الحديث أشبه ما يكون بعصر السفسطائيين، أو هو عصر إعادة المكانة للسفسطائيين(٣).

وهكذا، تتخذ الخطابة مفهومًا أعمق، وهي في معناها الواسع "إمكان قيام فضاء للتعامل بين الناس، على أساس اعتبار الآخر سبيلًا إلى الأنا، يعمق اكتشاف الاختلاف معه المعرفة بالذات، والوقوف على تخومها، وعلى أساس ما يترتب عن الاختلاف من تعدد الرؤى، وتباين المواقف، يحمل على إقناع الواحد بسلطة الحجة، والبراعة

(١) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص٣٢.

(٢) نفسه، ص٤٢.

(٣) يُنظر: نفسه، ص٤٤.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

في تصريف اللغة"[١]، وهي "حرية الرأي، وما يلزم عنها من حرية الاختيار في الفكر، والسياسة، والعقيدة"[٢].

ويتسع مفهوم البلاغة عند صمّود، اتساقا مع مشروعه الفكري، ورغبته في إدراك القوانين الكلية المؤسسة للنظام البلاغي؛ حيث ينطلق من النصوص بوصفها "وقائع خطابية لبناء تأويلات عن التفكير البلاغي والنقدي.. ليجعل الأوصاف الخاصة، والاستقراءات النصية، مدخلًا إلى الاستدلالات الكلية في ضرب من الاشتغال النظري"[٣]، والمقام الذي فكر فيه صمّود وأضمره "يمتد من السنة والعمود، إلى آخر المغامرات السيميولوجية في مرحلة ثورة أنظمة الكتابة وأشكالها"[٤]؛ فثمة بلاغة "لا يمكن ربطها بوجه بلاغي بعينه، ولا حصرها في أسلوب أو صورة، وهي مندسة فيه، تربط بين مختلف مكوناته، حتى لكأنها البنية العميقة الناظمة لتجلياته"[٥]، كما أنها "تقوم على ترافد النصوص، وقيام بعضها من بعض مقام الوجه، أو الأسلوب، في بلاغة الجملة أو العبارة"[٦].

تقوم هذه التصورات على أن مفهوم (البلاغة العامة) بالصورة البلجيكية[٧]،

---

(١) نفسه، ص٤٥.

(٢) نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) محمد الجلاصي، ابتكار المعاني خطر، ضمن تقديمه لكتاب: حمّادي صمّود، بلاغة الانتصار في النقد العربي القديم- رسالة أبي بكر الصولي إلى مزاحم بن فاتك أنموذجًا، (تونس: المعهد العالي للغات، د.ت)، ص٦.

(٤) نفسه، ص١٤.

(٥) نفسه، ص١١٤.

(٦) نفسه، ص١١٥.

(٧) يتعلق الأمر بالتصور الذي أقامته جماعة (مو) البلجيكية لمفهوم البلاغة، وهو تصور يقصي الوظيفية، ويختزل البلاغة في مبدأ الانزياح، على اعتبار أنها بلاغة عامة، أو كما تُسمى معممة، ووجّه أوليفي روبول انتقادا إليهم مفاده أن: "البلاغة تضم في نظرهم كل العناصر ⇦=

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

يشتمل على بعدين؛ أحدهما مقبول، والآخر مردود -في رأي صمّود- مقبول منهما أن تحليل الخطابات المختلفة "ينتهي إلى استصفاء شبكة عامة، هي حصيلة الطاقات المختلفة التي تنتهجها العبارة عن الوجود والموجود"(١)، أما المردود، فهو اعتبار أن هناك كيفية محددة يقع ضمنها الخطاب؛ "لأن ذلك ينتهي إلى اعتبارها وصفة جاهزة"(٢)، لا يمكنها أن تقبل الأنماط الخطابية المختلفة، بما فيها من مواضيع ودلالات متنوعة، وبهذا فالبلاغة العامة "تشبه إلى حد كبير القوانين الكبرى، التي تؤسس نواميس اللغة، ولكن تصريف تلك النواميس لا يتم بالوتيرة نفسها"(٣)؛ فالظاهرة البلاغية لا تتبدل في جوهرها، بل تتغير وظيفتها فحسب، من هنا يأتي تصور صمّود للبلاغة العامة؛ حيث تقتضي الاهتمام بالكيفية التي يحيّن بها المعنى المخصوص الذي يكسبه إياه مرسل الخطاب، عندما ينتقل به من سياق إلى سياق.

بقي أن نشير إلى أن ثمةَ تصورًا قريبًا من تصور صمّود للمفهوم البلاغي، إلا أنه أكثر جلاء فيما يتعلق بتحديد المفهوم البلاغي، يمكن استثماره في إعادة الوعي بحدود البلاغة، وغاياتها، وفي دفع النظر إلى الأمام "قبل أن تتغير الثقافة الإنسانية

= الأدبية في الخطاب؛ أي ما يشكل انزياحا، وهذا ينطبق على صور الأسلوب بوجه خاص، إن لهذا التعريف مزية تعيين العلاقة بين البلاغة والأدب على أقل تقدير، غير أنه ينطوي على اختزال كبير؛ فالواقع أنهم لا يكادون يعلنون عن الشيء الذي يقاس إليه الانزياح.. ومن هنا أصل إلى مأخذي الأخير على هذا التعريف، وهو أنه يهمل الشيء المهم، أي العلاقة الحميمة بين البلاغة والإقناع". أوليفي روبول، هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟ ترجمة: محمد العمري، ضمن كتاب: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، (المغرب، إفريقيا الشرق، ٢٠١٢م)، ص٢١٥.

(١) حمّادي صمّود، حوار بعنوان البلاغة العربية وسؤال التجديد في تجربة حمّادي صمّود، ص١٢٤.

(٢) نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) نفسه، الصفحة نفسها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

التي نتحرك فيها، فتتولد أفكار جديدة، تعدّل مما انتهينا إليه"[١]، يجيء تصور مجدي توفيق تحت سؤال: ما البلاغة؟

يجيب بأن المفهوم البلاغي يتضمن ثلاث دلالات كبرى؛ (المطابقة، وجمال القول، والاتصال)؛ ففي (فكرة المطابقة لمقتضى الحال)، نجده مستنبطًا معنى الحال من سؤال معاوية لصحار: ما هذه البلاغة التي فيكم؟ أن جملة (شيء تجيش به صدورنا) احتوت بعدًا نفسيًّا، وإظهارًا لمعنى غائر في النفس، وفي (الإيجاز) افتراضه للمخاطب الذي يجاب عن سؤاله أو قوله، و(فكرة جمال القول) الشرط الجمالي شرط ماهوي، بمعنى أن ماهية البلاغة لا تتحقق إن لم يكن هذا الشرط متحققا، فإن عَرِيَ الكلام من الحسن، لم يكن بليغا مهما كانت جودته في أداء المعنى، و(البلاغة اتصال) من حيث إن أقدم صورة للبلاغة، هي عَدُّها نشاطًا اتصاليًّا يتمثل في فكرة التأثير بكل ما ينطوي تحتها من معان ودلالات؛ فالبلاغة "لن تكون مجرد تراكيب لسانية تفي بالحال، أو تحقق جمالًا، أو تُحدِث تأثيرا، لكنها ستكون ظاهرةً كامنةً في عملية التخاطب نفسها"[٢]، ويصل من ذلك إلى تعريف مبتكر للبلاغة، منطلقا من الدلالات العتيقة للكلمة، ومنفتحا على مكتسبات نظريات الاتصال، فيقول: (البلاغة فن الاتصال الفعال)، ويحلل توفيق ما يقترحه، فيؤكد أن كلمة (فن) تعني أن وسائلها وأهدافها، متغيرة، ليست ثابتة، ولا تعني اقتصارها على الأدب وحده، أو الخطابة وحدها، "من هنا يمكن أن نتحدث مثلا عن بلاغة الصورة في الفيلم السينمائي، أو اللوحة التشكيلية... يراد منه نفي أن مهارات البلاغة عند البليغ، علم منظم، ولكن البلاغة مهارة ذاتية له"[٣]، أما (الاتصال)، فعند المزاوجة بين البلاغة ومختلف الفنون، يحضر المعنى الاتصالي بالضرورة، "فنتحدث عن بلاغة الإعلام،

(١) مجدي أحمد توفيق، ما البلاغة؟ (مصر: سندباد للنشر والإعلام، ٢٠١٣م)، ص٢٥.

(٢) مجدي أحمد توفيق، ما البلاغة، ص٢٩.

(٣) نفسه، ص٣٤.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وبلاغة السياسة، وبلاغة القضاء.."[١]، واستخدام (الفعال) لتحلّ محلّ الكلمات: المطابقة، الجمال، التأثير، ويعقب "ولا شك أنها أفضل كثيرا من كلمة الإقناع التي استخدمت طويلا، والتي تُوهِم أن البلاغة ضرب من الجدل العقلي الاستدلالي المحض، ولا تخلو البلاغة قطعا من هذا الجدل، ولكنه لا يشملها كلها"[٢].

ب- التجريب:

شاع التجريب بوصفه مصطلحًا في أواخر القرن التاسع عشر، في مجال العلوم الإنسانية، وفي الممارسات الأدبية، بدلالات متعددة تعددَ زوايا النظر، ومجالات البحث، يفصل القول فيها أحد الباحثين[٣] ليجد أن منها ما يَعُدُّه ظاهرةً إنسانيةً ترتبط برفض الثبات، وتروم التغيُّر، قائمة في كل الأزمنة والأمكنة، ومنها ما يراه تكسيرا للنمط، وتحطيما للعُرْف، ويقوم في جوهره على ثقافة خاضعة للمراجعة الشاملة، ومنها ما يرى أن التجريب سؤال مفتوح البتة، ينطلق من الشك والافتراض، كالسؤال الفلسفي تماما، ومنها ما يعده مغامرة ومجاهدة قد تصل حد المخاطرة، ومنها ما يعده حرية في التفكير تقوم على تقويض كل سلطة؛ سواء كانت دينية، أو سياسية، أو أخلاقية، شريطة ألا تقترن هذه الحرية بالعشوائية، بل تتأسس ضمن تصورات فكرية لها أبعاد واضحة المعالم، وهكذا تتعدد دلالات المفهوم بوصفه ظاهرةً تروم بناء أشكالها التعبيرية الخاصة.

يتلقانا صمّود في إطار انشغاله بدائرة الاتجاهات النقدية، محاولًا استقراء دلالات مفهوم التجريب، بوصفه أداةً من أدوات قراءة النص، وبوصفه قضية

(١) نفسه، ص٣٥.

(٢) نفسه، ص٣٣.

(٣) يُنظر: عبد العالي السراج، التجريب: إشكالية المصطلح ودلالة المفهوم-محاولات في التعريف وعرض الإشكالات رصد ومساءلة، (فاس: مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، مج٢، ٢٠١٨م)، ص٣٧٤ وما بعدها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وإشكالية مطروحة تحتاج إلى معالجة، وهي على قمة هرم قضايا القصيدة العربية المعاصرة. تشير الدراسة أولا إلى أنها لن تستعرض التفاصيل الدقيقة التي سلكها صمّود؛ ليصل إلى جوهر المفهوم، ويناقشه تطبيقا على بعض النصوص المختارة؛ فقد سبق عمل جاد إلى ذلك(١)، بل ستحاول استجلاء الخيط الرفيع الذي ينظِّم هذا المفهوم في عقد المفاهيم المكوِّنة للنسق المعرفي الممثل في خطاب صمّود البلاغي والنقدي؛ بُغيةَ الإفادة من تلك القراءة في بناء النظرية البلاغية والنقدية الحديثة.

شرع صمّود في تقصِّي الظروف السياقية الحاضنة لولادة مفهوم التجريب، بدءًا من بداياته الكبرى في العالم الغربي، حينما خرج المسرح عن التراجيديا إلى الملحمة، بما هي نابضة بالحياة اليومية، ومن المسرح إلى الأدب بشكل عام، خاصةً في الجنس الروائي؛ لهيمنته على بقية الأجناس الأدبية، وقابليته للانغماس في اليوميات، وصولًا إلى البيئة العربية، ممثلة في التلقي التونسي؛ كونه أول وسط عربي شاع فيه مفهوم التجريب؛ حيث كان مرتهنا بالوضع السياسي المرتبط برواج بعض الأفكار من قبيل احترام الخصوصيات والنوعيات، وإمكانية تغيير الواقع، والخروج عن الأنماط السائدة، (وتجريب طرق بكر في كل شيء)، وكذلك ارتبط بمفهوم (التّوْنَسة)، الذي نادت به "شرائح من المثقفين، وافق خطابها في الأدب والفن، خطاب السلطة السياسية في دعوتها إلى التركيز على الخصوصية التونسية"(٢).

فالمفهوم لا يرتبط بتلك الدلالات التي يتداولها الخطاب النقدي بشكل آلي، ومنها: (التجربة: وهي سعي، وبذل للجهد على قدر الطاقة، وتعهد النص، واستمرار الكتابة(٣)، ومنها المحاولة: مقرونة بمفهومي الكتابة والإبداع)؛ فالتجريب خروج،

(١) يُنظر: حسين العروي، حمّادي صمّود وقضايا الشعر العربي الحديث، ضمن كتاب: أعمال مهداة إلى الأستاذ حمّادي صمّود، (تونس: مجمع الأطرش لنشر وتوزيع الكتاب المختص، ٢٠١٩م)، ص٨١.

(٢) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، (الدمام: مكتبة المتنبي، ط١، ١٤٣٣م)، ص١٧٧.

(٣) يُنظر: نفسه، ص١٦٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وتمرد، وتغيير، وجمالية تختلف عن الجمالية الكلاسيكية؛ كونها جمالية واقعية تتجلى فيها جدلية الأشياء -كما يرى-، وهو كما ورد عند مرجع صمّود في هذا المفهوم، "تلك العملية الفنية التي يقوم بها الفنان أو الأديب؛ لرفض ما للثقافة، والأدب، والفن، والتقاليد الحضارية، من عناصر متعفنة تنافي في جوهرها روح العصر، وتطور المجتمع، وحرية الفرد"(١)، يترتب على ذلك التغيير تجاوز ما بين الأشياء في الظاهر من تناقض، (وربط عرى الحوار مع القارئ)، والقصد من ذلك إخراج الأدب من دائرة ما لا يحتاج إليه، إلى دائرة الضروريات اليومية التي تُتاخِم حياة الأفراد، وتساعدهم على فعل التغيير(٢).

وبهذا يمكن صياغة مفهوم التجريب وحدّه حسب ما احتفظ به حمّادي صمّود بعد تتبعه لدلالات المفهوم وخصائصه، على أنه: (طريقة جديدة تنشأ عن طريق تكسير النمط الموروث، والخروج عن النموذج الوافد، عابرة لكل أنماط الكتابة).

ويتلخص رأي صمّود في مضمون التجربة، بقوله: "لا نختلف في تقدير مداها، وقيمة ما حققته في دفع الكتاب صوب مدارات يواجه فيها النص قدره، ويبحث في ذاته عن ذاته، كتابة واعية منشقة، تولد في منعطف كل صورة ولادة جديدة، وفي فضاء كل نص تحكي بداية الإنسان قادما من عدمه"(٣).

وإذا كان التجريب بهذا المفهوم يدور في فلك الحداثة، بما هي "تحديث الذهنية، تحديث المعايير العقلية والوجدانية"(٤)، والتجريب، "لا يتأتى إلا ضمن سؤال الحداثة، وأن استمرارية وصيرورة الحداثة تظل قائمةً، ومشروطة باستمرارية فعل

(١) عز الدين المدني، الأدب التجريبي، (تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٢م)، ص٢٨.

(٢) ينظر: حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص١٧٥.

(٣) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص١٧٥.

(٤) محمد عابد الجابري، التراث والحداثة، ١٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

التجريب"[١]، فإن هذه التصورات حول مفهوم التجريب التي أجراها صمّود تطبيقا بعد التنظير لها على بعض النصوص الشعرية الحديثة، تتفق مع موقفه الكلي من الحداثة؛ كونها وضع حدود للفكر الجاهز، وللشك، واعتماد ما حدث من جديد في المعرفة. وباعتبار أن الأصل الأول لكل قديم "بنية منفتحة تعيش ما عاش جدلا لا ينتهي بين الحاصل والآتي"[٢]؛ فإن التجريب لكونه مشروعا فنيا ضمن مشروع حضاري أكبر يتواءم ومتطلبات التحديث والتجديد، قاعدته المطردة (الانسجام والتلازم بين التراث والحداثة).

ويندرج تحت مفهوم التجريب مفهومان، هما: الإبلاغ والمقروئية، وفق علاقة السبب بالنتيجة؛ "فالانخراط في مسالك التجريب سعيا إلى تحديث القصيدة العربية المعاصرة بسلوك طرائق جديدة في بناء النص، وإنتاج المعنى، أدى إلى توتر صلة المتلقي بتلك القصيدة؛ لما شاع فيها من غموض حال دون فهمها، والتفاعل معها"[٣]، في هذا الإطار يعالج صمّود قضية الإبلاغ في الشعر الحديث، ليصل إلى نتيجة، مؤداها أن تجدد طرائق بناء النص العربي الحديث يستلزم تجدد آليات القراءة، وهذه المسألة سيعالجها ضمن مفهوم المقروئية، وهذا ما ستخصص له الدراسة جزءا من الفصل الثالث -إن شاء الله.

وهكذا، فإن الكثير من المفاهيم التي استخدمها صمّود، هي مفاهيم دارجة في النظرية الشعرية، وتحديدا في التوجهات اللسانية البنيوية، (دراسة الرومانطيقية) يشهد لذلك إحالته إلى مؤلفات اللسانيين البنيويين، وتردد مقولاتهم بين ثنايا تصوراته[٤]،

(١) عبد العالي السراج، التجريب: إشكالية المصطلح ودلالة المفهوم، ص٣٨٥.

(٢) حمّادي صمّود، ضمن حوار البلاغة العربية وسؤال التجديد في تجربة حمّادي صمّود، ص١٢٥.

(٣) حسين العروي، حمّادي صمّود وقضايا الشعر العربي الحديث، ص٨٨.

(٤) يُنظر: عادل خضر، حمّادي صود وآخر أحفاد الرومنطيقيين: قراءة في: من تجليات الحطاب الأدبي، ص٩٦.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

كما أنها مفاهيم متسعة في الغالب، لا يحدها حدّ واضح، يرجع ذلك إلى استمرارية مشروع القراءة، وانفتاحه الدائم، واستمرارية التحديث بالضرورة، إن كان على مستوى تجدد زوايا النظر في المنجز التراثي، أو على مستوى تجدد الأفكار المتصلة بسياق الحداثة، وما بعد الحداثة.

والواقع كما حكاه العمري، إن بناء مفهوم عام يستخدم كل الخطابات التي تعدّ بلاغية، ما زال يلقى مقاومة من المفاهيم التقليدية المتوارثة، وعلى الجانب الآخر فإن الخلط واقع في الغالب بين هذه المفاهيم والمباحث التي لها صلة بها؛ كالنقد الأدبي، والتحليل السيميائي، ولسانيات النص(١).

والذي يتأكد من خلال ما تمت دراسته في هذا الفصل إن مجمل المنطلقات التي يتكئ عليها حمّادي صمّود في مشروعه، وسائر النتائج التي سيتوصل إليها، لم تكن وليدة مصادفة دون تخطيط، ولم تجيء اعتباطا تقودها الأهواء، إنما جاءت استجابة لجملة من العوامل والسياقات سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية، وجهت متآزرة هذا المشروع البلاغي والنقدي الذي سيتسع اتساع السياق الثقافي، وستنفتح له أبواب متعددة ومسالك متداخلة يلتقي فيها البلاغي بالنقدي وبالفكري بشكل عام.

ولعل من أهم النتائج التي حققتها هذه المرجعيات والعوامل والتي ستشكل بدورها الإطار العام الذي يؤطر مجمل تصورات الرجل البلاغية وممارساته النقدية، ما يتعلق بالمزاوجة بين القديم والحديث. تتجلى هذه المزاوجة في المنطلقات والمقولات التي يؤسس عليها قراءته للدرس البلاغي العربي في نصوصه المؤسسة، خاصة فيما يتعلق بمعالجته قضايا التفكير البلاغي عند العرب عندما قرأ المدونة البلاغية منتقيا منها ما يخدم هدفه إن كان في زاوية النظر الإنشائي أو في الزاوية الحجاجية. وفي استقباله لمختلف التيارات الفكرية الحديثة كما اتضح ذلك عند تعاطيه

(١) يُنظر: محمد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، (المغرب: إفريقيا الشرق، ٢٠١٧م)، ص٧٥.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

النظريات اللسانية والإنشائية وانفتاحه على المقولات الحجاجية وما يتعلق بتحليل الخطاب.

وتجلت تلك المزاوجة أيضا في صياغته للمفاهيم والحدود التي أقام عليها مشروعه البلاغي والنقدي، بعدّها صياغة للتحولات التي تطرأ على الأفكار والتصورات المرتبطة بالبلاغة وبالنقد. وقد تأكد للدراسة من خلال معالجة تلك المفاهيم تحقق ما أراده صمّود من احترام للخصوصية التاريخية والحضارية التي تحملها الأبعاد التراثية والحديثة معا، ففي معالجته مفهوم البلاغة -على سبيل المثال- عمل على قراءته في النصوص التراثية مستنيرا بها لصياغة المفهوم البلاغي الذي يقابل البلاغة اليونانية، مركزا على الشرط الحضاري للمفهومين مما سمح بحصول نتائج منطقية، فلكل بلاغة مفهومها الذي يتسق مع ظرفها وسؤالها ولا مانع من إعادة صياغة المفهوم وفق السؤال المعرفي الجديد، وهذا ما أتاح للرجل الاستفادة من النظريات الجديدة إنشائية كانت أو حجاجية.

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الفصل الثاني

سؤال المنهج ومقولات القراءة

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: حدود المنهج ومقولات القراءة التراثية.
- المبحث الثاني: تحيزات المنهج في القراءة الأسلوبية.
- المبحث الثالث: تحولات المنهج في مقولات القراءة الحجاجية والانفتاح على تحليل الخطاب.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الفصل الثاني
سؤال المنهج ومقولات القراءة

يأتي هذا الفصل؛ ليُجلِّيَ الأسئلة المنهجية التي أسست لمشروع حمّادي صمّود، بوصفه أنموذجًا قرائيًّا أسس لكثير من الاتجاهات البلاغية والنقدية في الثقافة العربية.

والحديث عن سؤال المنهج يقتضي التأسيس على وجود بعدين في خطاب صمّود البلاغي والنقدي؛ البعد التراثي، والبعد الحداثي. ولا شك أن منهج القراءة ونتائجها، أمور مرتبطة برؤية الباحث، وموقفة من قضية ما، وبأهدافه التي ينشدها. من هنا نجد تعامل صمّود مع آليات تقريب المعرفة المنقولة، أنه آخذ بالعمل على دمج منتجاتها الفكرية في بيئتها الثقافية، بما يتوافق مع مقتضيات المجال التداولي الإسلامي(١).

تنطلق هذه القراءة متكئة على مقولات مركزية عُرفت في التفكير البلاغي، اختط بها صمّود لنفسه إطارًا محددًا يمتد على طول الفترة منذ بدايته حتى القرن السادس، محاولا أن يلمّ شتاتها بالاستعانة بمقولات الدرس اللغوي الحديث، وكما أشار شكري المبخوت، فقد لازم هذا الهاجسَ الإبستمولوجيَّ عند صمّود، وعي تاريخي بنشأة الأنظمة الفكرية المنتِجة للمعرفة، ولتحولاتها، "وصاحبها علاوة على هذا تبنٍّ للتمشي المنهجي الذي وجه العلم بالخطاب، وهو يبني نسقه ويسعى إلى حد مقبول من علمنة فرضياته، ومفاهيمه، ونماذجه النظرية"(٢)، من هنا تنطلق فرضية المبحث الثاني الذي سيركز على التحيز المنهجي للمقولات الأسلوبية في خطاب حمّادي صمّود، ثم في الانفتاح على المقولات الحجاجية، على أن كل نظرية في البلاغة هي

(١) يُنظر: طه عبد الرحمن، سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد، (بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع، ٢٠١٥م)، ص٣٢.

(٢) شكري المبخوت، حمّادي صمّود تجديد البلاغة وتأصيل الإنشائية، ضمن كتاب أعمال مهداة إلى الأستاذ حمّادي صمّود، ص٢٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

"نظرية في الخطاب الأدبي، بغض النظر عن الاهتمامات الجزئية أو الفرعية التي قد تطغى على هذا المقصد الأسمى، فتخفيه إلى حين"(١).

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٦١.

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

المبحث الأول

حدود المنهج ومقولات القراءة التراثية

ينطلق هذا المبحث من افتراض مؤداه أن النسق البلاغي الذي رام صمّود أن يفصح عنه، يتأسس على مقولة مركزية أساسية، تتحرك منها جلّ تأويلاته وقراءاته، بمختلف المقاربات البلاغية التي يتوسل بها، يدور هذا المبدأ في حقل الفهم والإفهام، والبيان والإيضاح؛ فقد كرّس حمّادي صمّود في كل مرة، معطيات الدرس البلاغي والنقدي؛ للتأكيد على أن مبدأ (الفهم والإفهام) حاز موقع الوظيفة الأم لكل الاستعمالات اللغوية في فترتي التأسيس والبناء؛ فقد ظلت فكرة الإبانة والتوضيح مسيطرةً على التفكير البلاغي آنذاك، معتمدا على أن أسبابا عديدة أسهمت في رسم معالم هذا التصور، ثم أدت إلى تمكينه في الفكر العربي "حتى أصبح أصلا من الأصول المهمة التي ترتد إليها مختلف المواقف، وإطارا جامعا لا تخرج عن نطاقه مهما تفردت به من خصوصيات"(١).

ثم تنسلّ من هذه المقولة المركزية والأساسية، مقولات فرعية، هي الأدوات

---

* ستركز الدراسة اهتمامها هنا في المرحلة التي أعقبت الجاحظ، وهي الفترة التي وسمها صمّود بمرحلة البناء، والسبب في هذا التركيز، أن معظم المقولات التي جاءت في مرحلة النشأة كما يقول صمّود: "بقيت (جنينية) قلّ أن نقف منها على أمور متبلورة في دراسة نظرية مضبوطة في حدودها ومصطلحاتها". كما أن النشاط البلاغي في هذه الفترة على أهميته "يبدو مشتتا، جزئيا لا ينبثق في الأغلب عن تفكير مطرد في جمالية النص الأدبي". حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١١٩. أما عن المقولات التي واكبت فترة التأسيس (الجاحظية)، فإنها مرحلة خاصة رام صمّود من خلالها إبراز المشاغل البلاغية التي وقف عليها الجاحظ مشاركا في تأسيس البلاغة العربية، تدفعه جملة من الأسباب المرتبطة بالنسق الثقافي والاجتماعي لعصره، ولها موضعها من هذه الدراسة.

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٥٠٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الإجرائية التي تأسس عليها النظر البلاغي، وتعالجها الدراسة في حدود (الصورة الفنية ممثلةً في التشبيه، البيان، النظم، البديع)، ومقولة أخرى أقرب إلى دائرة النقد، (النزعة المعيارية وتقنين الأبعاد الفنية).

قامت قراءة صمّود للبلاغة العربية على تصورا مؤداه، أن العوامل الثقافية والتاريخية والحضارية العامة التي ساعدت على تبلور التفكير البلاغي، حملت الناس على التفكير في اللغة تفكيرًا معياريًّا جماليًّا، يترصد عناصر الجودة، ويصف الأساليب، معتمدا على ما بينها من تفاضل(١)، وجاءت التصورات في هذه الحقبة المادة الخام التي استخرجها البلاغيون والنقاد؛ لاستخدامها في الإجابة عن تساؤلات معينة، تدور في فلك الشعر، وإعجاز القرآن، من هنا كان العامل العقائدي حاضرا بشكل جلي خلف كثير من التصورات البلاغية؛ سواء في أول فترات نشأة البلاغة، أو في مراحل نضجها مع الجاحظ، وكذا في استقرار الدرس البلاغي بعد حقبة الجاحظ؛ فقد كانت فكرة الدفاع عن القرآن تترأس الدوافع الأخرى؛ مما اضطر البلاغيين إلى ضبط القواعد أمام المحاولات التي رامت التشكيك في المعجزة الإلهية الواضحة في نص القرآن الكريم.

تنبثق التصورات البلاغية في مجملها في نظر صمّود، من التراث الجاحظي على وجه التحديد، على أساس أن الجاحظ أول رائد للبيان العربي، بل أول مفكر عربي نقف في تراثه "على نظرية متكاملة تقدر أن الكلام -وهو المظهر العملي لوجود اللغة المجرد- ينجز بالضرورة في سياق خاص يجب أن تُراعى فيه، بالإضافة إلى الناحية اللغوية المحضة، جملة من العوامل الأخرى كالسامع والمقام وظروف المقال"(٢)، تلك العوامل غير اللغوية التي اجتهدت الدراسات الحديثة في التنظير لها، "ولا نبالغ إن قلنا إن مبادئه اللغوية العامة، وجملة تصوراته البلاغية، ومقاييسه

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢١.

(٢) نفسه، ص١٨٥.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الأسلوبية، مستمدة من هذا الأصل الذي يمثل في نظرنا العمود الفقري لنظريته، والسبب في تداخل المعطيات اللسانية والبلاغية عنده تداخلا مُضنيًا أحيانا"[١].

ورأينا في الفصل السابق كيف تطور مفهوم البلاغة بتأثير تصورات الجاحظ، ومن سبقه، وامتزج بمفهومي الخطابة والبيان، فتنوعت مقاييس ضبط الوجه البلاغي الواحد، آخذة في حسبانها الملفوظ والتلفظ معا[٢]، ومراعيةً المقتضيات المختلفة للمشافهة والكتابة، فاتسع مجالها، واتسعت حدودها، وتعددت مقاييسها.

ثم ينتقل صمّود إلى الفترة الأخيرة من فترات بناء النظرية البلاغية، منتقيًا المقولات المؤسسة للبلاغة حسب مقياسين مهمين في تصوره ومنهجه[٣]:

-أن تكون هذه المقولات من أسس التفكير البلاغي، ومسائله المهمة.

-أن تكون لها فاعليتها في رسم ملامح التطور والاستقرار الحاصلين في التفكير البلاغي.

ويؤكد صمّود أن مفهوم البلاغة ستضيق حدوده في هذه الفترة؛ لتصبح جميع هذه المقولات مسخَّرةً لمعالجة أصل واحد، هو (النص). وعليه، ستكون البلاغة هنا أداةً لا تنفك منطلقاتها عن تحيّن النواميس المتحكمة في إنشاء ذلك النص، وإلباسه لباسًا مميزا تُلوّنه الأدبية، فيتضح فضله على غيره من النصوص[٤]. مستعينًا بمقولة عبدالقاهر الجرجاني عن البلاغة من حيث هي العلم الذي له اختصاص بعلم أحوال الشعراء، والبلغاء، ومراتبهم، وبعلم الأدب جملة[٥].

---

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٨٥.

(٢) يُنظر: نفسه، ص٣٤٢.

(٣) يُنظر: نفسه، ص٣٥١.

(٤) يُنظر: نفسه، ص٣٥١.

(٥) يُنظر: عبد القاهر الجرجاني، الرسالة الشافية- ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٨م)، ص١١٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

❑ الصورة البيانية: التشبيه وتجليات الفهم والإفهام

يأتي تركيز صمّود على مبحث الصورة الفنية مبررا، بوصفه ممثلًا لأهم الأدوات الإجرائية التطبيقية التي حدد بها البلاغيون والنقاد بلاغة النص وجودته، من الجانبين؛ الشكل والمضمون. ولأن البحث في الصورة الفنية حسب ما يذهب إليه(١)، يسمح بمعرفة ما إذا تطورت نظرة البلاغيين إلى الوظيفة التي يؤديها النص مرتبطا بظروف إنجازه، أم أن ركائز المعايير التي طُرحت في حقبة التأسيس، بقيت متحكمةً في عملية التذوق الأدبي، ثم إن تركيزه سينصب على التشبيه، منطلقًا من مقولة عبدالقاهر الجرجاني في أسراره؛ حيث يجد فيه "جل محاسن الكلام إن لم نقل كلها، متفرعةً عنها، وراجعةً إليها، وكأنها أقطاب تدور عليها المعاني في متصرفاتها، وأقطار تحيط بها من جهاتها"(٢).

---

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٣٥٣.

ويقدم صمّود في دراسته لأثر المعنى في توظيف الصورة عند العرب الأوائل من خلال كتابه (في نظرية الأدب عند العرب) بعض التصورات التي تفسر مسالك الفكر العربي القديم في تحديد العلاقة بين اللفظ والمعنى، يجملها صاحب النقد العربي الحديث، ومدارس النقد الغربية، على النحو الآتي: أولا: أن العرب أوْلَوا للأشياء مرتبة سابقة للتمثلات الذهنية، معتبرينها مرتبطةً بعلاقة طبيعية وإن لم تكن مطابقة لها، تأثرا بالفلسفة الإغريقية. ثانيا: أن العبارة تستدعى لتأدية الشيء لقدرتها على التشخيص، والتجسيد، والتصوير، وبذلك تتسع المسافة بين الشيء واللفظ، بحكم أن هذا وسيط لا يمكن الاستغناء عنه لتأدية المعاني المنطبعة في النفس. ثالثا: يستتبع التصور الثاني أن المعنى قائم بذاته، وأن وظيفة اللغة لا تتعدى مجرد التعبير عنه، وإخراجه من حيز الوجود بالقوة إلى حيز الوجود بالفعل، وعلى هذا نشأت أدبيات الفصاحة القائمة على تأدية المعنى بأوضح الأساليب، وأقربها إلى الفهم، حتى انحصرت وظيفة الصورة في تقريب المعنى، وتجسيده، ذلك هو الوضوح الذي بحث عنه صمّود في معظم تصوراته. يُنظر: محمد الناصر العجيمي، النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، (تونس: دار محمد علي الحامي، ط١، ١٩٩٨م)، ص٧١٣ وما بعدها.

(٢) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص١٢٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

هناك ثلاثة محاور أساسية تتحرك من خلالها الرؤية البلاغية والنقدية للصورة الفنية، يحاول صمّود البحث عن مبدأ قار وجامع لها، هذه المحاور هي[١]:

- جعل التشبيه أصلًا للاستعارة، وغلبة اهتمامهم به.

-ربط البلاغيين البراعة في التشبيه، بتأليف المختلف، والجمع بين المتباعدات، مع اقتضاء الوقوف على العلاقات الدقيقة الرابطة، "وربطهم صحة الاستعارة وقيمتها، بالمقاربة والمناسبة، ووضوح العلاقة بين المستعار منه، والمستعار له، وهي أحكام تثير الحيرة والاستغراب؛ لما يبدو عليها في الظاهر من التناقض والتنافر"[٢].

-إجماع البلاغيين على أن للصورة الفنية وظيفةً مركزيةً تكمن في التمثيل الحسِّيِّ للمعنى.

إن أول مظاهر التفات العرب إلى مبحث الصورة الفنية، يتجلى في ربطهم البراعة في نظم الشعر، بالبراعة في صياغة الصورة الفنية، دون أن يتحول ذلك إلى دراسة منظمة ومحللة لهذه الصور، ثم مع اهتمام اللغويين والنحاة بالشعر تحقيقا لمقاصدهم، مبرزين الأهمية البالغة التي حظي بها مبحث التشبيه بوجه خاص، فقد كان من الوجوه البلاغية التي حاولوا ضبطها، وتحديد أقسامها، وفحص الجيد والرديء منها.

ومع الاهتمام بقضايا الإعجاز في القرآن، وذيوع صيت المتكلمين، وما تضطر إليه بعض الفرق الكلامية من تأويل لكثير من الآيات التي يتنافى ظاهرها مع أصولهم العقائدية، أخذوا يحملونها على المجاز، فضبطوا دلالته مقابلا للحقيقة، وتهمنا في هذا السياق إشارة صمّود إلى أن الظرف الحافَّ بتأليف مجاز القرآن لأبي عبيدة، جعله من أول المباحث العربية في قضية الصورة الفنية، وطرق استعمالها، والأسس النفسية التي ترتكز عليها، لكن غرض صاحب مجاز القرآن، هو التقريب بين طرق القرآن

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٤٧٥.

(٢) نفسه، الصفحة نفسها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

في التعبير، وطرق العرب في استعمالها لغتها، ومن هنا يدرج صمّود مجاز القرآن "ضمن زمرة المؤلفات التي تتحرك من منطلق عقائدي"(١)؛ لأن همه هو ربط أسباب ورود النص القرآني على طريقة مخصوصة، وسبل العرب في التعبير، بصرف النظر عن المقاصد الفنية. ولأجل ذلك جاءت المباحث لا تعدو بعض الإشارات المتفرقة، إلى التشبيه، فيذكر الوجه فقط دون أبعاده الفنية. والصورة الوحيدة المتبلورة هي الصورة المركبة التي ذكرها بمصطلحها التمثيل(٢)، "دالًّا به على الصيغة اللغوية المثلى، التي لا وجود لها في الواقع، أو التي لا ينفك وجودها عن الاستعمال؛ إذ إننا نتصور وجودها، ونعرف حدودها انطلاقا منه"(٣).

والحق -كما ذهب جابر عصفور- أن دراسة الأنواع الأدبية البلاغية للصورة الفنية، وعلاقتها بخصائص الشعر، لم تكن الهاجس الأول بالنسبة للغويين، "لقد كانت مشكلتهم الأولى هي الحفاظ على اللغة العربية نفسها.. وكان اهتمامهم بالشعر في أغلب الأحيان راجعا إلى أنهم عدُّوه بمثابة وثيقة متعددة الفوائد"(٤).

أما في الفترة التي أطلق عليها (التأسيس)، ومدار الأمر فيها على ما قدمه الجاحظ من تصورات أسست لمجمل التصورات اللاحقة، فيمكن القول هنا إن انتباه الجاحظ إلى فكرة المواضع المبنية على مقتضيات الوظيفة، وتوليدها مقولة الملاءمة التي تقود بدورها إلى القول بمبدأ (الاختيار)، رسخت هذه التصورات جملة المنطلقات الفنية المتعلقة بخصائص الكلام الأدبي، كان من أبرزها عند صمّود، ما يفصم العروة بين الأدب والأسس الأخلاقية؛ كالصدق، والكذب، ويستبدلها بمعايير من الطاقة

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٩٥.

(٢) يُنظر: نفسه، ص٩٣.

(٣) نفسه، ص٩٨.

(٤) جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، (القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٤٢٤هـ)، ص١١١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

اللغوية ذاتها، وقدرة المبدع على التصرف فيها، وصوغها كيفما تتحقق الوظيفة الفنية، وإن كانت التصورات التي يعرضها صمّود في الفترة اللاحقة لا تكشف عن هذا الفصل الذي رآه صمّود كما سنرى.

والمتتبع لأطوار التفكير البلاغي، يدرك أبرز مظاهر الجدة في الفترة التي أطلق عليها صمّود فترة البناء، خاصةً فيما يتعلق بالقسمة الثنائية؛ الحقيقة، والمجاز؛ فالمبرد (ت٢٨٦هـ)، على سبيل المثال، يقدم مبحثًا تطبيقيا لهذه القسمة، من خلال مفهوم الكناية، ويلاحظ صمّود هنا أن الدرس البلاغي بدأ يخرج من "طور التحسس الانطباعي الخالي من كل تجريد، إلى طور أمكن فيه إدراج القضايا الفرعية ضمن قضايا كلية أعم منها"(١).

وقد كان للمبرد دوره في تطوير مسائل التشبيه بصورة كان لها أثرها فيمن بعده؛ حيث أفرده بباب مستقل، معتمدا على الاستقراء والاستنتاج الشخصي، لا على الرواية والنقل، أما الكناية عند المبرد فهي أقل حظًّا من مبحث التشبيه، ووجه الطرافة يكمن في المدخل النظري المخصَّص لضروب التعبير اللغوي، ويحسب للمبرد - حسب صمّود- خروجه في الكامل بالتصوير من العلاقة المنطقية إلى علاقة وجودية وجدانية أساسها رؤية الكاتب للعالم، وهو بهذا يبتعد عن مقولتي الصدق والكذب، إلا أن هذه المبادرة لم تتجاوز ما جاء به المبرد هنا، وعاد التفكير إلى ضرورة مطابقة الصورة للحقيقة الموضوعية.

ومن الملاحظات التي يوظفها صمّود في بناء النسق البلاغي، ما ذهب إليه المبرد في تعبيره عن الحقيقة، يقول: "ما يكون في الأصل لنفسه"(٢)، ويعلق صمّود على هذا الاستخدام الدقيق من قِبَل المبرد، بأنه على الرغم من "عدم تمكنها في

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٣١٦.

(٢) محمد بن يزيد المبرد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: جمعة الحسن، (بيروت: دار المعرفة، ط١، ١٤٢٥هـ)، ج٢، ص٢١٤.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الاصطلاحية، فهي أبلغ من مصطلح الحقيقة"[١]، وعلته في ذلك أن هذا التعبير أقرب إلى الموضوعية؛ حيث خلعت عنه الحمولات المنطقية، والأخلاقية، والفلسفية، الملابسة لمفردة الحقيقة، كما كشف هذا التعبير عن الفرق الجوهري بين أصناف التعبير، وهي على صنفين[٢]:

-الأول: لا يحتاج إلى واسطة لبيان المعنى، أو يتم الوصول إلى المعنى فيه من خلال العلامة الموضوعة له أصلًا في اللغة، وهذا الضرب هو الذي لا يشير إلى شيء خارج اللغة.

-الثاني: تتعدد فيه الوسائط، وتولّد ثنائية اللفظ والمعنى؛ ففي الكلام يندسّ كلام آخر، يقصده المتكلم بطريق غير مباشر، "فجعل الكلام الماثل في النص لفظه ومعناه، علامةً على المعنى الغائب، ومسلكًا لإدراكه"[٣].

يضرب صمّود مثالًا بما ذهب إليه المبرد في قوله: "وأحسن القول ما قارب فيه القائل إذا شبه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة"[٤]، تعليقا على قول الشاعر:

فَلَوْ أَنَّ مَا أَبْقيتِ مِنّي معلّقٌ .:. بعُودِ ثُمامٍ مَا تَأوَّدَ عُودُها

يجد صمّود أن ما ذهب إليه المبرد من شرح لغوي للفظة (الثمام)[٥]، إنما جاء من قبيل التعريض، والإشارة إلى التجاوز، وشدة المبالغة، ثم شرع المبرد قانونه العام على جودة الشعر، بأن أحسنه ما قارب الحقيقة، أو أصابها، مقررًا قانونًا عامًّا، ومقياسا لجودة النص الأدبي، بل إن كثيرا من المعارك الأدبية "ولا سيما التي كان

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٣١٦.

(٢) يُنظر: نفسه، ص٣١٦.

(٣) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٣١٦.

(٤) محمد بن يزيد أبو العباس المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج١، ص١٧٣.

(٥) **"والثُّمام نبتٌ ضعيف له خُوصٌ، أو شبيهٌ بالخُوص، وربما حُشي به وسُد به خَصاص البيوت"**. جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، باب الميم، فصل الثاء، ص٨١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

محورها المفاضلة بين البحتري وأبي تمام، تتركز على قرب الصورة، أو بعدها، وسيؤاخذ أبو تمام.. بإبعاده بين النموذج والمثال، وإغراقه في المباعدة بين الأطراف إلى حد الإغراب"[١].

وعلى كل، فقد توقع صمّود النتيجة السلبية التي يفرزها إهمال النقاد العرب تفسير الحقيقة على التصورات البلاغية والنقدية في تلك الحقبة التي أطلق عليها مسمى (البناء)، وتتضمن الآثار الآتية[٢]:

-وجهت ضرورة الإلحاح على إصابة الحقيقة، مباحث النقد العربي إلى البحث عن الصورة في إطار الصدق والكذب، لا في إطار القيمة الفنية والتعبيرية التي يكسبها إياها السياق.

-الحدّ تبعا لذلك من طاقة الخيال؛ لأنها مرتهنة بصورة نموذجية لا تستطيع في ضوئها الانطلاق والتحليق.

ويدقق صمّود السبب في اهتمام البلاغيين بالتشبيه، معتقدا أن المحاور الأخرى تنبثق عن هذا الاهتمام، ومن جملة تلك الأسباب التي اعتادت الأدبيات البلاغية والنقدية على طرحها، ما يرجع هذا الاهتمام إلى شيوع أسلوب التشبيه في الشعر الذي بُنيت عليه هذه التصورات النقدية، بحكم أن الممارسة الأدبية تسبق الممارسة النقدية، ومنها ما يَعُدُّ الاهتمام بالتشبيه مظهرًا من مظاهر المحافظة، والنسج على المنوال، كما برزت في مناهج النقد عند العرب، ومنها ما يربط هذا الاهتمام بطبيعة روح العصر، الممثلة في صراع بين قوى الإنسان العقلية، وقواه المتخيَّلَة، "وكلما كان العصر أكثر انصياعا لأحكام العقل والمنطق، برز التشبيه، واحتل صدارة الأساليب والمقاييس، أما إذا تقهقرت العقلانية... برزت الاستعارة؛ لأنها تمنح الأديب حريةً

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٣١٩.

(٢) يُنظر: نفسه، ص٣١٩، ٣٢٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

أكثر في تصريفه مشاعره، والتعبير عنها"[١].

وعلى كل حجة تقبع داخل هذه الآراء المطروحة، يرد صمّود برأي مضاد؛ لأن هذه الآراء إما أن تكون مبنيةً على تصور منقوص لوظيفة النقد والناقد، أو لأنها غير متأكدة الصحة؛ لحاجتها إلى ضبط إحصائي على الأقل؛ للتأكيد أن التشبيه بقي الصورة الغالبة على الشعر في الفترة التي برزت فيها أهم الآثار النقدية. أو لأن بعض هذه الآراء بُنيت على الحدس، والتخمين، وإيغال في التعميم الذي ينقص من قدرتها على التفسير[٢]، لينتهي إلى أن السبب في الاهتمام بالتشبيه، لا ينكشف إلا بدراسة التشبيه نفسه، وباستعراض طريقة النقاد الأوائل في طرح مسائله، وكشف الجوانب النسقية الكامنة خلف هذه التصورات.

يتتبع صمّود تعريفات التشبيه التي استقرت في المدونات البلاغية؛ ليقرر أنها تلتقي في التركيز على بيان وظيفته، وموجبات حسنه، أكثر من التركيز على حقيقة التشبيه، وحقيقته "هي التقريب بين الطرفين، والمقارنة بينهما؛ لاشتراكهما في معنى من المعاني، أو صفة من الصفات، أو في حال وطريقة"[٣]. ويقدم عبدالمطلب اعتراضا على صمّود في مذهبه القائل بمحاصرة البلاغيين للمبدعين بجملة من الشروط والقوانين، كان من أبرزها (تقارب طرفي التشبيه)، أن هذه المحاصرة -إن صحت- كانت ناتجا لمنهج وصفي دقيق، كان يتابع النصوص الراقية؛ ليستخلص منها مواصفاتها، معتمدا على الخبرة الذوقية من ناحية، وعلى الخبرة النحوية واللغوية من ناحية أخرى[٤]، "وهذان الأخيران هما اللذان ربما أكسبا الوصف طبيعةً معياريةً"[٥]،

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٤٧٧.

(٢) يُنظر: نفسه، ص٤٧٥ وما بعدها.

(٣) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٤٧٨.

(٤) يُنظر: محمد عبد المطلب، قراءة القراءة في نظرية الأدب عند العرب، (جدة: مجلة علامات في النقد، مج٤، ج١٦، ١٤١٦م)، ص١٣.

(٥) نفسه، ص١٣.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

ويؤكد عبد المطلب أنه على الرغم من ذلك، تقبل البلاغيون تجاوزاتِ أبي تمام، كونها تجاوزات إبداعية، كما أن التقارب الذي طلبه عمود الشعر، قد اهتزّ بعد بلاغة صاحب الدلائل، والأسرار، وصاحب الطراز.

أما الرماني (ت٣٨٤هـ) فقد صاغ الدعائم النظرية للتشبيه، التي تربطها بالإبانة، والتوضيح، والإفهام، وبالعلم الحاصل عن طريق الحواس، ويؤكد صمّود هنا أثر النزعة العقلية والمنطقية، والصفة الكلامية عند الرماني التي "خولت له أن يُلقم أبحاثه البلاغية بشيء غير قليل مما كان رائجا في بعض البيئات حول نظرية المعرفة"(١).

وكذا يرتبط التشبيه في رأي صمّود عند ابن سنان الخفاجي (ت٦٤٤هـ) أيضا، بالظهور والبيان، ذلك أن وظيفة التشبيه هي تمثيل "الغائب الخفي الذي لا يعتاد بالظاهر المحسوس المعتاد، فيكون حسن هذا لأجل إيضاح المعنى، وبيان المراد"(٢)، "ولا غرابة في الأمر؛ فالرجل نظر إلى مختلف الأسباب البلاغية من زاوية الفصاحة، وهي عنده الظهور والبيان، وهذا المعنى الذي تبناه... هو القاسم المشترك الأعظم بين جميع الوجوه، وإليه ترتد جميع الوظائف"(٣).

كما يرجع صمّود جمالية التمثيل أيضا، إلى وظيفة التبيين والتوضيح، مؤكدا أن إقرار الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ذلك جاء في تفسيره الغرض من استعمال الأمثال والتشبيهات؛ إذ قال الزمخشري في كشافه: "التمثيل إنما يُصار إليه؛ لما فيه من كشف المعنى، ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب وإدناء المتوهَّم من المشاهَد"(٤)، وقال

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٤٧٩.

(٢) عبد الله ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، تحقيق: علي فودة، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٢، ١٤١٤هـ)، ص٢٤٦.

(٣) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٤٨٠.

(٤) جار الله أبو القاسم الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه =⇦

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

في موضع آخر: "الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المحتجِبة في الأستار؛ حتى تبرزها، وتكشف عنها، وتصوِّرها للأفهام"(١).

فالكشف عن المعنى، ورفع الحجاب، وإبراز المعاني المتخفّية خلف الأستار، ثم تصويرها للأفهام؛ جميعها دلالات تضم إلى حقل دلالي واحد، هو الإيضاح والإفهام، وهكذا تتسق نظرة صمّود مع مشروعه القرائي الذي ينظر إلى البلاغة العربية من خلال مفهوم الفهم والإفهام، ويؤكد صمّود هذه النتيجة بقوله: "سيطرة فكرة الإبانة والتوضيح على النظرية الأدبية، وبقاء التفكير البلاغي مشدودًا إلى الأسس التي تبلورت في مراحل العلم الأولى، كما حددها الجاحظ في البيان والتبيين خاصةً"(٢).

لذلك وجد صمّود أن تحديد النقاد والبلاغيين قيمة الأسلوب، مرتهنة بمقدرته على الإفهام، وهذا ما تحقق على مستوى الصورة الفنية، التي وجد فيها صمّود دليلًا ناصعًا على سيطرة وظيفة الفهم والإفهام في مختلف أنماط التفكير البلاغي؛ فقد انطلق البلاغيون في معالجة مبحث الصورة، من منطلق قدرتها على التوضيح والتبيين، "فحددوا فعاليتها الفنية من جهة وضوح العلاقة بينها وبين المعنى"(٣).

يجد صمّود أن دلالة التشبيه انحصرت في رصد وجوه المشاكلة والمناسبة بين الطرفين، والإخبار عنها، ويُشترَط في تلك الوجوه أن تكون موضوعيةً حقيقيةً، "بمعنى أن ترتد إلى ذات الشيء"(٤)، ولا تنبع من "المواقف والانفعالات النفسية التي يتشكل منها نسيج التجربة الشعرية"(٥).

= التأويل، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ)، ص١١١.

(١) نفسه، ص٥٥.

(٢) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٥٣٦.

(٣) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٥٤٢.

(٤) نفسه، ص٤٧٩.

(٥) جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والباغي عند العرب، ص٢٠٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وعلى الرغم من هذه المقدمات، ينتهي صمّود إلى أنه (يحترز) مما ذهب إليه بعض النقاد، من أن "إيثار التشبيه عند العرب، أمر يرتد إلى نظرة عقلانية صارمة، تؤمن بالتمايز والانفصال، وتنفر من التداخل والاختلاط، وترفض في حزم كل ما يبدو خروجًا عن الأطر الثابتة، والمتعارَف عليها على أي مستوى من المستويات"(١)، ويبرر صمّود دواعي احترازه، نوردها في صورة موجزة، وهي:

-استمداد البلاغيين خصائص الفكر العربي من مظاهر قارة في التشبيه، لا يتسنى وجوده بدونها مهما كانت البيئة الفكرية التي تمارسه؛ "فالحرص على التمايز بين المشبه والمشبه به، هو أس التشبيه، وعماده، وبدونه لا يكون"(٢).

-النزعة العقلانية نزعة عامة في الفكر الإنساني، ويؤكد ذلك بأن بروز فكرة التماثل لم تكن للحضارة الإنسانية إلا بعد بلوغ مراحل من التطور الفكري "أمكنه بفضلها التقريب بين الموجودات، وإدراك وجوه الشبه بينها، وقياس بعضها على بعض"(٣).

-النظر في التشبيه من زاوية التوضيح والإبانة ليس خاصا بالعرب؛ فالتشبيه أداة ضرورية للتوضيح؛ "لأن الفكر الإنساني لما يصل إلى المرحلة التي يمكنه فيها الاكتفاء بالمجردات وتمثل الأفكار والمفاهيم بمعزل عن المعطيات المادية الملموسة"(٤).

-إن ربط غائية النص القصوى بإفادة المعنى، وحصول النفع المباشر، يقتضي تصدر الإبانة والإفهام سُلَّم الوظائف التي تؤديها اللغة، وتقتضي بقاء النص الأدبي وسيلةَ إبلاغ في المقام الأول، ثم إن قبول ضروب الفن القولي المعدولة، رهين قدرتها

(١) نفسه، ص٢٤١.

(٢) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٥٠٥.

(٣) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٥٠٥.

(٤) نفسه، الصفحة نفسها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

على الإبانة والتوضيح، "وعلى هذا الأساس تكون وظيفة الإبلاغ والإفهام، هي الوظيفة الرئيسة التي تسعى إلى تحقيقها جميع مستويات اللغة"(١).

إن من يدقق النظر في هذه المبررات، يجد أنها لا تختلف مع موقف النقاد الذي يروم صمّود الاحتراز من القول به، وبعبارة أخرى، لا يبدو صمّود مختلفا مع ما ذهب إليه النقاد من أمثال مصطفى ناصف في الصورة الأدبية، وجابر عصفور في الصورة الفنية، من أن البلاغيين والنقاد في تعاملهم مع الصورة الفنية انطلقوا من تصورات عقلية منطقية، بعيدة عن الخيال، يؤكد ذلك مصطفى ناصف بعد أن ذهب إلى أن النقد العربي لم يعرف الاحتفال بالقوى النفسية ذات الشأن في إنتاج الشعر، حتى وإن كانت هناك إشارات إلى الطبع، والذكاء، والفطنة، لكنها لا تسمح بتحليل مدلولاتها، المستمدة من الفقه اللغوي لكلمة شعر، والتقريب بينه وبين الفطنة والعقل، ويؤكد مذهبه بقوله: "والحق أن لدينا قرائن أخرى تكشف عن إهمال الخيال في النقد العربي"(٢)، ويذكر من ذلك عَدَّ الشعر الأعلى ما لم يحجبه عن القلب شيء، "فقد نافس التأثير العاطفي روعة الخيال إن لم يكن استبعده"(٣)، ثم إن مسألة الصدق والكذب لم تسفر عن مناقشة عميقة لنشاط الخيال في الشعر، بل كان وضع الصدق في مقابل المبالغة والغلو "كفيلا بأن يضيق معناه إن لم يجعله شاحبا ينطوي على ما يشبه علو الواقع، وسيطرته على الشاعر"(٤)، ومنها رواج تصورات المناطقة للمخيلات في البيئات البلاغية والنقدية، وهي تصورات توهن صلة الشعر بالخيال، وتؤكد كل هذه القرائن عند ناصف، الأجواء الدينية التي ولدت فيها تصورات النقد والبلاغة؛ فهي لا

(١) نفسه، ص٥٠٦.

(٢) مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، (بيروت: دار الأندلس، د.ت)، ص١١.

(٣) مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، ص١١.

(٤) نفسه، الصفحة نفسها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

تُسوِّغ "أن يؤكد الناقد صلة الشعر بمنشئه على نحو ما يؤكد صلته بسامعه"(١).

وهذه القرينة الأخيرة قد أكدها صمّود في تصوره إحلال البلاغيين للمبحث البلاغي محل الوسيلة؛ للوصول إلى مقاصد الرسالة الدينية، وذلك في نشأة الدرس البلاغي؛ حيث كان طريقهم إلى ذلك تأكيد الوظيفة الإفهامية، ولم يعطوا الوظيفة الشعرية المكانة التي أُعطِيَت لقرينتها، وعنده أن هذه الطريقة هي التي شجعت على سيادة القول بأن البلاغة ضرب من الزينة، يقصد من ورائها إخراج المعنى في أحسن صورة، ثم كان نتيجة لذلك أن البلاغيين لم يتصوروا العلاقة بين الكاتب ونصه إلا ما ندر، "ولعل هذا من العوامل التي تفسر ضآلة البعد الوجداني في النقد العربي، على كثرة ما هنالك من أدب يطفح بذلك"(٢).

وإذا عدنا إلى تلك الدواعي التي أورها صمّود، سنجد أن إيثار (التشبيه عند العرب أمر يرتد إلى نظرة عقلانية صارمة)، وفي المقابل الفهم والإفهام، وما يدلان عليه من وضوح وإبانة، جميعها صفات لعمليات ترتبط بالعقل والمنطق، ثم إن ربطه للوضوح والإبانة بمبدأ الاختيار، وهو من أهم المبادئ التي قام عليها الدرس البلاغي على إجماع الدارسين؛ بل إن المنهج البلاغي برُمَّته كما وصفه صمّود في الفصل الأخير من كتابه، قائم على النظم، وما النظم إلا توخٍّ واختيار، بناءً على هذا فإن صمّودا يسلم بشكل أو بآخر، صراحةً وضمنًا، بوجود المنزع العقلي في مجمل التصورات المؤسسة للتفكير البلاغي عند العرب.

تأسيسًا على ما سبق، فإن الظاهر للدراسة من خلال مبررات صمّود السابقة، أنه لا يسير في اتجاه معاكس لما ذهب إليه جابر عصفور، من بناء العرب الصورة الفنية على الأساس العقلي، على الرغم من اختلاف الوسائل المستخدمة في المعالجة، واتكاء صمّود على المنطلقات اللسانية في القراءة، إلا أن المحصلة واحدة، وهي

(١) نفسه، ص١٢.

(٢) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٤٣.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

تفعيل العقل في الصورة الفنية على حساب الخيال.

❑ البيان والوظيفة الإفهامية:

يقرر صمّود أن الجاحظ لم يستعمل مفهوم البيان بالمعنى الضيق الذي ضبطه البلاغيون في العلوم الثلاثة. إن مفهوم البيان يتدرج عند الجاحظ من العلامية، إلى العلامة اللغوية بمستواها العادي، وبهذا فالبيان يضم دلالاتٍ متعددةً[١]:

-وسائل التعبير الممكنة بين البشر، ومختلف طرائق تأديتهم المعاني.

-العلامة اللغوية بوصفها أداةً تمكن المتكلم من التعبير عما يريد.

-خصائص النص الأدبي الذي توظف فيه العلامة اللغوية؛ لتكتسب سماتٍ مميزةً عن الاستعمال العادي.

والبيان عند الجاحظ يكتسب صبغةً خاصةً "ولَّدتها طريقته في فهم ظاهرة الكلام، وتحليله لمقوماتها"[٢]. ومن أبرز سمات هذه الصبغة الخاصة، عَدُّ الخطاب اللغوي عملية تواصلية، تقتضي وجود عناصر ثلاثة على الأقل تربط بين هذه العناصر وظائف يؤديها الخطاب نفسه؛ (وظيفة إفهامية، ووظيفة خطابية، ووظيفة شعرية)، والبيان في مفهومه العام يقتصر على الوظيفة الإفهامية[٣]؛ لأن البيان عند الجاحظ: "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي يُجْرِي القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٥٧.

(٢) نفسه، ص٢٧٠.

(٣) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٩٥.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

ذلك الموضع"[١]. وغني عن الذكر أن البيان هو أصل الوضع، (ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ) [سورة إبراهيم: آية ٤]، لكن مقصد الجاحظ في البيان ليس لغويا عاديا، "وإنما هو بحث عن سبل إخراج الكلام على هيئة تمكِّن له في الفصاحة، والبلاغة، وتقوّي مفعوله عند السامع"[٢]، وللبيان عنده مقتضيات عامة، لكل أنماط الخطاب الفني؛ سواء كان شفاهيًّا، أو مكتوبًا، ومقتضيات خاصة بالوضع الشفاهي.

وهكذا، ارتبط مفهوم البيان عند الجاحظ، "بالغايات لا بالوسائل، ويتحدد بالوظيفة لا بالبنية أو الشكل؛ مما جعله خلوا من كل أبعاد فنية وبلاغية، لا هم لصاحبه إلا الوقوف على الوسائل التي تضمن التواصل بين أفراد المجموعة؛ لقضاء الحاجات"[٣]، إلا أن هذا المعنى الوظيفي الذي تكسبه قراءة صمّود لمفهوم البيان، لا يعني انعزاله عن وجوه البيان الأخرى، بل يربط صمّود بين مختلف صور البيان، بالبيان باللغة، ومن هنا اكتسب البيان بالإشارة أهمية كبرى، بجعل الإشارة نهجا وأسلوبا في التعبير البليغ، مؤكدا أن البيان بمفهومه الجاحظي، يشكل بنية متكاملة تتضام فيها عناصر الدلالات على المعاني، تجلى فيها البعد المنطقي لقراءة صمّود؛ فهو يقرر أن ثمة انتقالًا تدريجيًّا منظمًا في موقف الجاحظ من التعلق بالغايات، والمقاصد، وتحقيق الوظيفة الإفهامية إلى إدراك الوسائل، ومسالك الأداء، ومعنى ذلك أن البيان باللغة بحاجة إلى وسائل تعضده؛ ليحيط بالمعاني، ويحقق مقاصد المتكلمين وأغراضهم، "وينبني رأيه هذا على مذهبه في علاقة الأسماء بالمسميات، ونظريته في المعاني"[٤].

قلنا إن صمّودا يرى أن للبيان اللغوي عند الجاحظ ارتباطًا بكل الوسائل التي

(١) عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ص٨٢.

(٢) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢١٩.

(٣) محمد عبد البشير مسالتي، الجاحظ في قراءات الدارسين المحدثين، ص٢٩٠.

(٤) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٦٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

تساعده في الإحاطة بعالم المعاني، وتحقيق مقاصد المتكلم، ومن أهم هذه الوسائل هنا الإشارة "وينبني رأيه هذا على مذهبه في علاقة الأسماء بالمسميات، ونظريته في المعاني"(١)، هذه النظرية وجهت مسار ثنائية اللفظ والمعنى، وساهم الجاحظ بتصوراته في تثبيت هذه الثنائية.

وهكذا يحلل صمّود تصورات الجاحظ، ومذهبه في قضية اللفظ والمعنى، المستند إلى عَدِّ البلاغة مرادفًا للخطابة؛ ليربطها بموقفه العام من مسائل كبرى، يأتي في مقدمتها موقفه من الإعجاز المبني على تصورات عقدية اعتزالية، ثم بعض الملابسات السياسية والاجتماعية التي عاشها الجاحظ، وهنا يتساءل صمّود "أليس من حقنا أن نرى في دفاعه عن الفصاحة، موقفا سياسيا يدعو إلى تركيز السلطة -سلطة الكلمة- في يد الجنس العربي، والفئات التي انصهرت في بوتقته انصهارا تاما، بحذقها لغته، وتمثلها موروثه الحضاري والفكري؟"(٢).

ويقرر صمّود أن في تأكيد الجاحظ فكرة المعاني المطروحة في الطريق، إشارةً ضمنيةً إلى أن الارتباط بالمعنى يعني تَساوِي حظوظ الأجناس المتعايشة على مختلف الطبقات الاجتماعية في البلاغة، وتتفاوت هذه الحظوظ عند التركيز على جانب الشكل والصياغة(٣)، وتستحضر الدراسة ههنا نقدا موجها إلى صمّود، مفاده "إن ذلك يظل استنتاجا باهتا، ويبتعد عن القضية الأساسية التي طرحت -في مسارات متعددة- في كثير من مؤلفات معاصرة، حول نظرية المعنى في تراثنا البلاغي والنقدي"(٤)، ولا يخفى على القارئ المتأني، المسلك الذي اتخذه صمّود في قراءة الجاحظ؛ إذ يركز

(١) نفسه، ص١٦٩.

(٢) نفسه، ص٢٧٥.

(٣) يُنظر: نفسه، ص٢٧٥.

(٤) رجاء عيد، عرض ومناقشة لكتاب التفكير البلاغي عند العرب، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ع١، مج ٥، ١٩٨٤)، ص٢٣٥.

رسالة الدكتوراه، الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

على الوظائف التي يؤديها الخطاب اللغوي، أكثر من اهتمامه بقضايا مشكلة في الدرس البلاغي.

ويقع إنجاز الكلام لغايات، ويتنزل في مقامات؛ لذلك وجب الاهتمام بمقولة المقام، والاهتمام بالمقام، والملاءمة بينه وبين المقال قديمة؛ فهي "ملتحمة وجوديا بكل فعل لغوي يتجاوز قائله، ويقصد منه الإبلاغ"(١)، ولهذا فإن المتكلم يركز على جملة الضوابط اللغوية التي تحقق عملية الإفهام مرتبطة بمنزلة المخاطب.

ومما يدرجه صمّود في هذا السياق ضمن مقتضيات الوظيفة -وهي الفهم والإفهام- أن ما قدمه الجاحظ في العلاقة بين المستوى اللغوي ومكانة المتكلم الاجتماعية، ينطلق من نظرة مادية، تتولد بمقتضاها (البنى الفوقية)، يكشف عنها بواسطة اللغة. كالمشاعر، والانفعالات، والاستجابة للحاجات الضرورية، تتولد هذه البنى بطريقة تصاعدية تجعل اللغة في قمتها(٢)؛ لأن البيان هو تاج مراتب القوى كما يشير الجاحظ(٣).

يجد صمّود أن ثمة مصطلحاتٍ تواترت في مؤلفات الجاحظ، تشير إلى دلالتين متقاربتين، وهذه المصطلحات هي: المقام، الموضع، الحال، الأقدار، المقدار، المشاكلة، المطابقة، وينتهي إلى أن جميعها "فروع عن أصل ثابت في تفكيره.. هو فكرة المناسبة والملاءمة"(٤)، ويقسم هذه المصطلحات إلى صنف يرتبط بعلاقة المقال بالظرف العام الذي يحتضنه، وآخر أكثر خصوصية يتعلق بالكلام، وما على المتكلم مراعاته في ضم العناصر بعضها إلى بعض، وفي ملاءمتها بين مكونات الكلمة، وصولًا إلى العلاقة بين الألفاظ والمعاني، وتكمن أصالة ما يضيفه الجاحظ في ربط

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢١٣.

(٢) نفسه، ص٢٠٥.

(٣) يُنظر: عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٧٧.

(٤) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٠٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

النتائج والأسباب بالوضع اللغوي النوعي الذي يعكس التركيبة الاجتماعية، "وبذلك وفق إلى إدراجها ضمن إطار تاريخي مؤهل موضوعيا لإفرازها إفرازًا ذاتيًّا، فينسى القارئ أصولها، ويغلب على ظنه أنه اخترعها اختراعًا"(١).

وسنلاحظ مع صمّود أن أهم فكرة متولدة عن نظرية الجاحظ في المقامات، تتمثل في نسبية الأحكام الأسلوبية، وعليه ستصبح البلاغة بلاغاتٍ، والفصاحة فصاحاتٍ، وهذا سيؤدي بدوره إلى مقولة أثيرة في الدرس الأسلوبي، وهي (الاختيار).

❑ النظم والروابط المنطقية:

تناول حمّادي صمّود نظرية النظم في صورتها المستقرة عند عبدالقاهر الجرجاني، في إطار حديثه عن المنهج ضمن أهم قضايا التفكير البلاغي إلى القرن السادس. ويقتضي المنهج البلاغي عند صمّود، تدقيق المسالك الهادية إلى مواطن الجودة في الكلام، وسبر غور المستندات النظرية التي على أساسها واجه البلاغيون مسألة القيمة الفنية(٢)، واقتضى الحديث عن المنهج أن يمر بحث صمّود بمرحلتين؛

---

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢١٤.

(٢) يُنظر: نفسه، ص٤٣٠. تكتفي الدراسة هنا بمناقشة مقولة النظم والعلاقة المنطقية، على الرغم من أن صمّودا استفاد منها في معالجته الأسلوبية، وتعليق الأسلوب بالدال والمدلول؛ حيث جمع الجرجاني بين الشكل والمضمون، جمعًا لا انفصام فيه، والأسلوب عند الجرجاني في تقدير صمّود يرتد إلى ما ينتظم من علاقة بين البنية السطحية والبنية العميقة؛ فالأولى تتمثل في أن اللغة توفر لمستعمليها إمكانياتٍ متعددةً لصياغة نفس الوظيفة النحوية، وبين هذه الإمكانيات فروق معنوية توافق مقامات معينة، وتخدم أغراضا محددة عند تضامها مع أخواتها. "ولتجسيد ذلك يسوق الدارس مثالا أورده الجرجاني، ويخص مختلف الاستعمالات اللغوية، والصيغ التعبيرية؛ لتأدية وظيفة نحوية واحدة تحل بمثابة البنية العميقة، وهي الحال، والمستخلص من هذا أن التنويعات التعبيرية تفيد تنويعا في المعنى، أي أنها ليست ضربا من اللغو أو الزينة اللفظية... ومزية هذه التنويعات تحقيق الملاءمة بين أغراض المتكلم ومقاصده". محمد الناصر ⇦=

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الأولى يشترك فيها جميع علماء البلاغة قبل الجرجاني، والثانية استأثر بها الجرجاني، ومن سلك طريقه، وسنكتفي هنا بالتعليق على ما ذكر صمّود في المرحلة الثانية؛ لأهميته، وقيمته بالنسبة لمنهجه البلاغي والنقدي.

يشير حمّادي صمّود في قراءته لنظرية النظم، إلى جهد أستاذه المهيري في التعريف بجهود عبدالقاهر الجرجاني؛ لأنه يرى أن الدراسات التي صيغت لآراء عبدالقاهر، اتفقت في كثير من تصوراتها، ولم يجمعها في حيز واحد ويدرسها بمنطلقات منهجية لسانية، إلا عبدالقادر المهيري في إسهامه بالتعريف بآراء عبدالقاهر الجرجاني، ولاتفاق المنطلق اللساني، سنجد أصداء هذا العمل، بل التعويل على نتائجه في كثير من المرتكزات النظرية التي ينطلق منها صمّود. نورد هنا بعض المرتكزات النظرية التي استعان بها صمّود من دراسة المهيري:

-المشغل القار في مؤلفات الفترة ما قبل الجرجاني، أساسه إرساء قوانين نقد الكلام وصناعته، والاهتمام بالتبويب، وتنظيم المادة، وعليه، فالبلاغة تلك الفترة بلاغة العبارة والكلمة، لا بلاغة تركيب وسياق(١).

-تفسير بعض الدارسين لمفهوم النظم، من خلال ربطه بمفهوم الوظائف النحوية(٢).

= العجيمي، النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، ص٤٧٩.

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٤٣٤.

(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٤٥٧. نشير هنا إلى أن من أهم جوانب تكوين النظم عند عبد القاهر: العلائق التركيبية المكونة للكلام، والرؤية الكلية للبيان؛ فمزية النظم كامنة في التعالق، والترابط بين الكلمات، وهو الارتباط المبني على توخي معاني النحو الملائمة لغرض المتكلم، ولأجل هذا لا قيمة للفظة المفردة داخل السياق، إلا بانضمامها إلى التركيب؛ إذ يقول عبد القاهر في الدلائل: (وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها) ص٥٥. فالتركيب والسياق هما اللذان يمنحان الكلمة قيمة؛ "لذلك كان البحث البلاغي خطوةً أبعدَ من البحث النحوي، فإذا كان النحوي مهتما ببيان المواقع النحوية ⇦=

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

-اعتباطية العلامة اللغوية في نظر الجرجاني؛ فنظم الحروف في الكلمة هو "محض اصطلاح وتواضع لا يمكن أن نجد له تعليلا معنويا، لا أسبابا عقلية"(١).

ويقتصر صمّود في الحديث عن آراء الجرجاني المتعلقة باللفظ والمعنى، وعن أسسها الفكرية في حديثه عن المنهج، ويذكر صمّود أنه عالج المنهج محتَرِما الطابع الجرجاني في التأليف، فزاوج بين الإبرام والنقض، وإلى هذا الزوج يرد أحد الباحثين البنية المنهجية التي ارتكز عليها صمّود في معالجة مسألة النظم، ليخلص إلى أنه يمكن أن يضم إلى زوج (النقض والإبرام)، "أزواجا معجميةً تواطئه، وتنتظم في دائرته؛ كالوصل والفصل، أو العزل والضم، أو الإقصاء والاستدعاء، أو الأخذ والرد"(٢).

ويبرز صمّود ما يراه إفراطًا من الجرجاني عند تحمسه لنظرية النظم، أوقعته هذه الحماسة في الانتصار لنظريته التي يرى فيها الطريقة الوحيدة لإدراك أسباب البلاغة، والاهتداء إلى دلائلها، بعبارة عبدالقادر المهيري؛ فمن المفاهيم التي ترددت كثيرا في مناقشات البحث في إعجاز القرآن، مفهوم النظم؛ فقد استعمل في القرن الثالث عنوانا لبعض المؤلفات، وكان قضيةً مهمةً في القرن الرابع، لم يتفق البلاغيون على ضبط مبادئها، أما عبدالقاهر الجرجاني فقد مهدت الطريق أمامه في خضم الجدال الدائر حول الإعجاز في القرن الرابع.

كان التمييز بين اللغة والكلام، من أهم مقومات تفكير الجرجاني، يظهر ذلك من

= للكلمات، فإن مهمة البلاغي هي الكشف عن أسرار هذه المواقع، وعن مدى وفائها بالدلالات المرادة"، فالبلاغي يبحث في الفقه الدلالي لظاهرة نحوية، وفي المقتضى السياقي الذي اقتضى ذلك التعبير. يُنظر: عبد الله بن عبد الرحمن بانقيب، مناهج التحليل عند علماء الإعجاز، من الرماني ٣٨٦هـ إلى عبد القاهر الجرجاني ٤٧١هـ، ص٣٨٩ وما بعدها.

(١) نفسه، ص٤٢١.

(٢) محمد الناصر العجيمي، النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، ص٧١٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

خلال نهيه عن الخلط بين الاثنين[١]، لا لدرجة القطيعة، إنما إلى الحد الذي يمكن من تمييز وظيفة كل منهما داخل السياق اللغوي، وهما وظيفتان متصلتان مكملتان لبعضهما، وخلاصة ما يقدمه الجرجاني في معالجة مسألة الإعجاز، إيمانه بأن أسباب الإعجاز خالدة في النص، لا في عبارات معينة، بل في نظمها، وتأليفها، وتوخي معاني النحو وفق الأغراض والمقاصد التي يرومها المتكلم، "فعوض مبدأ بلاغة العبارة الذي يوهم بأن وسائل حسن الكلام، يمكن أن تحصى، بمبدأ بلاغة السياق الذي يفتح المجال واسعا للاختراع والإبداع"[٢].

ولعل الإضافة الأكثر طرافة فيما يقدمه صمّود بشأن النظم، تصوره أن أصول التفكير اللغوي عند الجرجاني تلتقي بمنطق جماعة بور رويال[٣]، الذين كانوا يبحثون عن نظام عام يمكن تطبيق أسسه على كل اللغات، فقرروا أن اللغة محاكاة للفكر، لا تقع بالألفاظ، إنما بالنظم الحاصل في السياق، ويضيف صمّود "كان موقفهم من المفارقة الحاصلة بين ما يفرضه توالي الكلمات من تجزئة للمعنى، وبين الوحدة

(١) يُنظر: عبد القادر المهيري، مساهمة في التعريف بآراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة، (تونس: حوليات الجامعة التونسية، ع١١، ١٩٧٤م)، ٩٨.

(٢) عبد القادر المهيري، مساهمة في التعريف بآراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة، ص١٢٤.

(٣) يذكر حمو النقاري أن منطق بور رويال أحد أكبر المؤثرات النظرية في الفكر الغربي الحديث، وهو في جوهره استمرار للتوجه الديكارتي وإعمال له في انتقاد منطق أرسطو، كما يذكر أن صاحب منطق بور رويال الأول هو (أرنولد الكبير ١٦١٢- ١٦٩٤) الذي ألف كتابا بالاشتراك مع (بيير نيكول ١٦٢٥- ١٦٩٥). وخلاصة نظرية جماعة بور رويال أن المنطق فنٌ للتفكير الجيد لمعرفة الأشياء، ويشمل فن المنطق حسب هذه الجماعة كل ما تحصل للبشر من نظرهم وتدبرهم لعمليات الذهن الأربع الأساس: عملية التمثل والتصور، وعملية القضاء والحكم، وعملية التدليل والتعليل، وعملية تنظيم وترتيب التفكير بكل العمليات السابقة. يُنظر: حمو النقاري، في منطق بور رويال، (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، نسخة الكترونية د.ت)، ص٨، ٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الجوهرية بين أجزاء الفكرة، شبيهًا بموقف الجرجاني"[١]، وتفسيره لذلك، أن المناطقة حين يحللون التفكير، فإنهم يقسمونه إلى موضوع ومحمول، ويقدمون تعريفا لكل طرف معتمدا على الطرف الآخر، وعليه فإنه يمكن لأي تحليل لغوي أن يراعي وحدة الفكرة إذا انطلق من هذا التصور.

تأسيسا على ما سبق، يؤكد صمّود أن معاني النحو عند عبدالقاهر، تمثل خضوعًا من الكلام لنواميس الفكر، والكلام إنما يأتي على هيئةٍ تحاكي الروابط المنطقية التي يقيمها بين المعاني، وهكذا فالبنية اللغوية (صدى) لبنية عقلية منطقية[٢].

ومعلوم أن الألفاظ المفردة لا تحمل في ذاتها قدرةً على محاكاة الفكر، والسبب في ذلك ارتباطها بالمواضعة، بالتالي فإن نظم أصوات هذه الألفاظ، لا يقوم على رسم العقل، ولأن صمّودا لا يقنع بذلك، فإنه يقرر أن العلاقات التي تؤلف بين هذه الألفاظ، (وهي معاني النحو) "قادرة على تلك المحاكاة، ولا بد من أن يكون بينها وبين المعاني الحاملة لها شبه"[٣]، ويعقب أن هذه النزعة الذهنية الطاغية، تفسر لنا الاهتمام المفرط الذي أولاه الجرجاني للتراكيب، وفي المقابل إهماله الأصوات بشكل واضح، "فكأن اللغة في نظره تنحصر في التراكيب التي توفرها للمستعمل؛ لأنها وحدها القادرة على تحقيق التطابق بين اللغة والفكر"[٤].

وعليه، فإن موقف صمّود من نظرية النظم في صيغتها الجرجانية، يؤكد لنا شغفه بالقول إن بلاغة عبدالقاهر قامت على الأساس العقلي، على الرغم من موافقة صمّود لأستاذه المهيري، وزميله المسدي، أن إدراك الفرق العقلي بين المعاني، لا يُعَد

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٤٦٣.
(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٤٦٣.
(٣) نفسه، الصفحة نفسها.
(٤) نفسه، الصفحة نفسها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

نتيجةً بقدر ما يُعَد "مقدمة ضرورية؛ لإدراك الفروق بين مختلف الأشكال اللغوية"[١]، وينضاف إلى ذلك ما ذهب إليه صمّود في معالجته مبحث الصورة عند الجرجاني[٢]، وكيف أنه لم يستعملها بالمعنى الفني، إنما في معنى قريب من استعمال المناطقة، في مقابلتهم بينها وبين المادة، بما فيها من تجريد عقلي يمكن التوصل إليه بالنظر والفكر.

❑ البديع وتضييق الحدود الفنية:

إن أهم ما نقف عليه في قراءة صمّود لكتاب البديع لابن المعتز (ت٢٩٦هـ)، هو تأويله سبب التأليف، منطلقا من السياق المعرفي الذي يتنزل فيه كتاب البديع، ومفاد هذا التأويل، أن الكتاب مبني أولا على موقف من قضية نقدية مهمة، أثيرت في القرن الثالث عندما قام جماعة من الشعراء "أغلبهم من أصل غير عربي، وجهوا عنايتهم إلى الصياغة الشعرية، وأشكال التعبير والتصوير الفني، ولم تخل نزعتهم هذه من روح عدائية تجاه عمود الشعر، أملتها خلفيات (إيديولوجية)، عرقية، حضارية، عُرفت في تاريخ المجتمع العربي الإسلامي بالشعوبية"[٣]، فنتجت عن ذلك الحركة النقدية التي عرفت بالخصومة بين القدماء والمحدثين. وإلى مثل هذا يذهب جابر عصفور في قراءة التراث النقدي؛ فقد جعل انتصار ابن المعتز للقدماء، يرتبط بالسياق السياسي والأيديولوجي، وتفسير ذلك أن صفة القدماء تحيل إلى أنصار الاتّباع، وأهل النقل، وتحيل صفة المحدثين إلى الابتداع، وأهل العقل، ومرحلة تأليف الكتاب هي مرحلة انحياز الخلافة العباسية إلى أنصار الاتّباع من القدماء؛ لتأكيد الحق المقدس في الحكم، عبر تأويل يسمح بتحويل الحق في هذا الميراث إلى تنزيه مطلق

(١) عبد القادر المهيري وآخرون، النظرية اللسانية والشعرية في التراث العربي من خلال النصوص، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٨م)، ص٥٢.

(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٤٦٦.

(٣) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٣٤٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

للحاكم في علاقته بالمحكوم، وعلى هذا يصبح البديع متصلًا دلاليًّا بالبدعة، بدعة هدى على مثال الأصل الأول، وبدعة ضلالة منقطعة عن ذلك الأصل(١).

من هنا يجد صمّود أن الروح التي أملت الكتاب، روح نقدية، لا بلاغية، تعكس روح العصر، وإلى مثل هذا يذهب إحسان عباس؛ فقد ذكر أن كتاب البديع لا يمس النقد الأدبي إلا بصورة عارضة، "غير أن الروح التي أملت الكتاب، كانت تمثل جانبا من الحركة النقدية في القرن الثالث، على نحو طريف معكوس؛ فبدلا من إنصاف الشعر المحدَث، ذهب ابن المعتز ينصف القديم، وعن هذه الطريق أكد أن البديع لم يكن مستحدثًا، وإنما كان الفضل فيه للقدماء"(٢)، وعلى هذا فالبديع ممارسة عرفها التراث، راسخة الأصول، ولا عيب في سلوك هذه الممارسة إلا إذا أتت بصورة مفرِطة مغالية.

وإذا عدنا إلى صمّود الذي أكد هذه الروح النقدية، فإنه يفكك موقف ابن المعتز، فيجده موقف المدافع عن القدماء، مرجعا إليهم الفضل في التجديد الذي ادعاه المحدثون(٣)، وهنا تتجلى طرافة ما يضيفه صمّود؛ فبعد أن أثبت الدواعي لتأليف الكتاب، وهي دواعٍ دفاعية، انطلق فيها ابن المعتز من تبنّيه تلك الأساليب الجديدة، ومحاولته تأصيلها في التراث العربي، أكد أن ما قام به ابن المعتز، هو أشبه بالمعادلة بين موقف وممارسة لا تتفق في ظاهر الأمر؛ "فهو معدود من الموَلَّدين.. والأخبار

(١) يُنظر: جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص١٥٤ وما بعدها، نقلا عن: عبد الله بانقيب، تباين الرؤى حول كتاب البديع لابن المعتز دراسة في آراء الباحثين المعاصرين، (جدة: مجلة جامعة الملك عبد العزيز للآداب والعلوم الإنسانية، م٢٧، ع١، ٢٠١٨م)، ص٧٤.

(٢) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، (عمان: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٦م)، ص١٠٩.

(٣) يُنظر: بدوي طبانة، دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث، (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٦٩م)، ص٢٦٥.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الأدبية التي تضعه في زمرة شعراء التصنيع، وكثرة البديع، تكاد لا تحصى"[١]، وفي الوقت ذاته عُرف مدافعا عن القدماء، يحتج لهم، وينتقي النماذج القرآنية والشعرية من أرقى كلام العرب، بطريقة "تخدم خطه الشعري، وتبرّر لهجه بالبديع، أحسن من التأكيد على أصالته في الموروث الأدبي"[٢].

إلا أن صمّودا يعزو الخلل في تطور معالجة الصورة الفنية، إلى طريقة ابن المعتز هذه؛ كونه سدّ منفذًا من المنافذ النقدية المهمة؛ لسبر أغوار التجربة الشعرية، ويتمثل هذا "في اعتباره الكم فاصلًا أساسيًّا بين القديم والحديث، وربطه الإساءة بالإفراط، ومحاكمة أبي تمام على أساس ذلك"[٣].

وهكذا، يصبح تأثير كتاب البديع على المؤلفات من بعده، جليًّا في الزاوية التي ينظر فيها أصحاب هذه المؤلفات إلى البديع، وهي نظرة تتجه نحو قضية الصراع بين القدماء والمحدثين، ولا يخفى كيف تؤثر هذه النظرة التي تجعل الصورة (مقطوعة عن سياقها)، لا يعتدّ فيها بالتطور الحاصل جرَّاء تطور التفكير، ونمو التجارب الفنية.

ويجد صمّود في التحام النقد والبلاغة عند ابن المعتز، دلالةً على تطور مفهوم البلاغة، إلا أن هذا التطور يضيق الحدود، فيحصر البلاغة في (العبارة)؛ فعند ابن المعتز لا وجود إلا للنص، بقطع النظر عن مجموع العناصر غير اللغوية التي يمكن أن تؤثر في النص، وبهذا يكون ابن المعتز قد انتقل بالتفكير البلاغي إلى "طور جديد، طور العناية بدراسة العبارة، ونقدها، على حين كان الاهتمام مركَّزا أكثر على نقد الأفكار، والمعاني"[٤]، وينتهي صمّود إلى أن لهذا التطور خطورته على البلاغة من

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٣٤١.

(٢) نفسه، ص٥٣٣.

(٣) نفسه، ص٥٣٣.

(٤) عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، (بيروت: دار النهضة العربية، ط٤، ١٤٠٦هـ)، ص٣٩٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

جانبين[١]:

الأول: تأسيسه الطريق الأدبي الخالص للأدبية؛ حيث تتركز الخصائص المميزة للخطاب الأدبي فحسب.

الثاني: يشرّع هذا التطور لظهور مؤلفات تُعرِّف البلاغة على أنها جمع لوجوه البديع، وللمحسنات، وترتيبها، وتصنيفها حسب ما يتطلبه اللفظ، والمعنى، والكلام، ومن هذه المؤلفات: الصناعتين للعسكري، والبديع في نقد الشعر لابن منقذ، وينبغي هنا استحضار فكرة أن ابن المعتز في رصده لفنون البديع، إنما كان يرصد "مادة المعركة النقدية التي نشبت حول شعر المحدثين في العصر العباسي، وما أسرفوا فيه من استخدام لتلك الفنون.. وبوحي من هذه المعركة النقدية كتب ابن المعتز كتابه، وكان صدى لها"[٢].

❑ النزعة المعيارية وتقنين الأبعاد الفنية:

يشير صمّود في أكثر من موضع إلى وجود النزعة المعيارية في الممارسة البلاغية القديمة، فتراه يؤكد أن "نزعتها المعيارية المتجسمة في محاولة تقنين البعد الفني، وتقعيد الجمالية الأدبية، انطلاقا من نماذج محدودة، وقد بوشرت عملية التقنين من زاوية ضيقة، أهملت عناصر ذات بال في تحديد صياغة الأدب، نذكر منها الكاتب، والجنس الأدبي"[٣]، ويسبق هذا التقرير قوله: "البلاغة القديمة -كما هو

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٣٤٢.

(٢) عبد الله بانقيب، تباين الرؤى حول كتاب البديع لابن المعتز دراسة في آراء الباحثين المعاصرين، ص٧٣.

(٣) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٥٤٥.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

معروف- كانت علما معياريا، الغاية منه استصفاء أسس من نص، تصبح فيما بعد أسسا متحكمة في الكتابة، وفي إعادة إنتاج النص"[١].

وإنه من غير المستغرب أن نجد هذه السمة التي وُسمت بها البلاغة العربية، أعني النزعة المعيارية، تُطلق من قِبل كثير ممن يرومون لفظ النظام البلاغي القديم، والخروج إلى المقاربات الحديثة؛ بحجة أن البلاغة علم معياري يرسل الأحكام التقييمية، ويطلق الأحكام المسبقة، والتصنيفات الجاهزة، بل المستغرَب أن يذهب صمّود هذا المذهب، وهو من أكثر البلاغيين اليوم تجذُّرا في قراءة البلاغة العربية، وهو الذي ذهب من قَبْل إلى أن تعريفات البلاغة -وهي مفاتيح العلم- جاءت في مجملها "أقرب إلى الوصف"[٢]، ثم إن الشعراء أنفسهم أسهموا في تحديد "معالم"[٣] الجودة الأدبية في أبيات متفرقة من شعرهم، كانت هذه المعالم من أهم المصادر المؤسسة للدراسة البلاغية. وتحديد المعالم ما هو إلا استدلال وصفي على آثار ونحوها، كما أكد أيضا أن الخصائص الفنية التي طُرحت في طور النشأة لم تكن مطلقة، "وإنما تتغير قيمتها تبعا للسياق الذي تتنزل فيه"[٤]، يُضاف إلى ذلك تأكيده أن الجاحظ في مفهومه للبيان "يقدم المعنى على كيفية إخراجه، والغايات على الوسائل"[٥]، وقد ذكر النتيجة المترتبة على اهتمام الجاحظ بالمقام، وهي "إقراره بأن البلاغة بلاغات، والفصاحة فصاحات"[٦]، وفي هذه المقولة تحديدًا يترسخ مبدأ

(١) حمّادي صمّود، تعليق على بحث: مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية لسعد مصلوح، ضمن أعمال ندوة: قراءة جديدة لتراثنا النقدي، (جدة: النادي الأدبي الثقافي، ١٤١٠هـ)، ص٨٧٣.

(٢) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١١٦ وما بعدها.

(٣) نفسه، ص١٣٣.

(٤) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١١٧.

(٥) نفسه، ص٢٩٩.

(٦) نفسه، ص٣٠٢.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الانفتاح والتعددية في الاتجاهات البلاغية، ومجافاة التقنين والمعيارية.

ثم إن البلاغة العربية منذ نشأتها، تعمل على قراءة الخطابات، والخطاب المهيمن آنذاك هو الخطاب الإبداعي، أو الأدبي (خطاب الشعر، وخطاب النثر)، ولأنه لم تكن هناك أي خطابات أخرى كما تتمازج خطابات اليوم بين السياسي، والديني، والثقافي، والإعلامي، والقانوني، والإشهاري، وغيره، هذه الخطابات التي حدت بالدرس البلاغي أن يخرج عن الأسئلة التي وضعها قبلًا، تلك المتعلقة بشعرية الخطابين الشعري والنثري، إلى أسئلة تتعلق بالمناحي التداولية والحجاجية، إقناعية وتأثيرية؛ فلكل عصر أدواته التواصلية، والجمالية، والإقناعية، وما وضعته البلاغة العربية في القدم، كان ملائما لنوع الخطاب المهيمن.

وتعتقد الدراسة أن هذه السمة المعيارية بدأت في الظهور في تلك الحقبة التي شعر صمّود نفسه بوجودها، وذلك ما أطلق عليه الفترة الحاسمة في التأليف البلاغي، عندما "ظهر نوع من المصنفات المختص بإحصاء الوجوه البيانية، وتبويبها، وإيراد الشواهد الموضحة لبلاغتها، وهي المصنفات التي جرى العرف على تسميتها بالمصنفات البلاغية، وظهورها خطوة هامة في تطور العلم، ومظهر من مظاهر استقلاله"[١]، وهو ما أكده تمام حسان بقوله: "إن هذه المعيارية لتتضح في طريقة التناول، كما تتضح في طريقة التعبير، في جمهرة كتب النحو، والصرف، والبلاغة، لا نكاد نستثني منها إلا قلة ظهرت في أول عهد العرب بهذه الدراسات، فقامت على الوصف في كثير من أبوابها، ولم تقع في المعيارية حين وقعت فيها إلا من قبيل التوسع في التعبير"[٢].

وهكذا، فالبلاغة العربية لم تبدأ معياريةً في طور النشأة، بل اتجهت إلى المعيارية في الفترة التي سُميت فيها بالبلاغة المستقرة، والطريف في هذه التسمية

(١) نفسه، ص٥٣٢.

(٢) تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، (بيروت: عالم الكتب، ط٤، ٢٠٠١م)، ص١٢.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المنصفة، أن فيها نزعة من عملية التذوق لا تنفك عن عملية التقعيد، وضبط المعايير ذاتها؛ ففي تعريف السكاكي -وهو علَم ما سمي بالبلاغة المستقرة- للبلاغة، نجد عبارة "أشد مرونة، وأقل شكلية، وأكثر تنبّها لجوانب البلاغة المتنوعة"(١).

وفيما يتعلق بمقولة الجنس الأدبي المذكورة في عبارة صمّود السابقة، "وقد بوشرت عملية التقنين من زاوية ضيقة، أهملت عناصر ذات بال في تحديد صناعة الأدب، نذكر منها الكاتب، والجنس الأدبي"؛ فقد ذهب صمّود نفسه في سياق الدعوة إلى النظر في مدى إمكانية الاستفادة من الأزواج التصنيفية الأشمل في الثقافة العربية، كزوج الجد والهزل، إلى التأكيد أن فكرة التصنيف في المطلق لم تكن غريبة على المؤلفين العرب في فترات مبكرة، "والذي استطاع أن يقيم جدولا للكائنات كما فعل الجاحظ في بداية الحيوان، لا يمكن أن يكون خالي الذهن من التصنيفية Taxinomia"(٢).

أما ما يتعلق بإهمال الكاتب كأحد أهم عناصر العملية الفنية، فقد أكد في أكثر من موضع أن مباشرة النقاد العرب الظاهرة الأدبية من زاوية نعتها بالضيقة؛ كونها تركز على علاقة الأثر بالعالم الخارجي على علاقة هذا الأثر بوجدان قائله، كما تقيّم الأدب بمدى إمكانية إدراكه من قِبَل المتلقي، وقربه من عملية الإفهام(٣)، إن هذه الرؤية الضيقة -حسب صمّود- أدّت إلى عدم شعور النقاد بالحاجة إلى تفسير (الحقيقة)، ويعتقد صمّود أن هذا عمل لو قاموا به لدفعوا بالنظرية الأدبية في "مسالك بقيت مغلقة دونها، ولاهتدوا إلى شبكة من العلاقات المعقَّدة التي تشد عناصر الأثر

(١) يُنظر: مجدي توفيق، ما البلاغة، ص١٤٢، وتعريف السكاكي المقصود هنا هو قوله: "البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدًّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها". أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد الهنداوي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٠م)، ص٤١٥.

(٢) حمّادي صمّود، حوار بعنوان البلاغة العربية وسؤال التجديد، ص١٢٣.

(٣) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٣١٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الأدبي، وتتحكم في الخلق الفني"[١]، والغريب أن صمّودا لم يفصح عن هذه المسالك، أو عن مضمون هذه العلاقات؛ حتى نفهم كيف يمكن أن تُشدّ عناصر العمل الأدبي، من خلال تفسير مضمون الحقيقة.

أما ما ذهب إليه صمّود من أن النقاد العرب أوْلُوا اهتماما بعلاقة الأثر الأدبي بالعالم الخارجي، أكثر من اهتمامهم بعلاقته بوجدان قائله، فهو تعميم لا ينبغي إطلاقه على التراث النقدي العربي على وجه الخصوص؛ فقد أجمع الدارسون على أن موضوع النقد العربي -وهو الشعر العربي- من أكثر الأنواع الأدبية في الأمم علوقًا بالغنائية والذاتية، ولا تخفى علاقة الاثنتين، وقد عزا أحد النقاد هذه الصفة إلى الوضع الثقافي، "وإذا المسألة الأدبية نفسها، تتحول إلى آلية ثقافية، تكرس باتجاهها الذاتي الغنائي قسما له صفة الانغلاق، والثبات، والتبعية، والسلفية، والأحادية، والضيق بالنقد، ورفض الآخر"[٢]، وعليه فإن مقولات النقد والبلاغة، لا تنفك عن الالتفات إلى الوجدانية بشكل أو بآخر.

بل إن صمّودا نفسه يقرر بعد دراسته لتجليات الخطاب اللغوي الجاحظي، أن ظاهرتي (الملفوظ والتلفظ) تقاسمتا جهده البلاغي؛ فالملفوظ بنية النص، وجملة الخصائص النحوية والبلاغية المكونة له، على أساس أن النص "تشكل لغوي قائم بذاته"[٣]، والتلفظ هو الفعل الذي يؤديه المتكلم في إطار زماني ومكاني محدد، "يخرج به النص من الوجود بالقوة، إلى الوجود بالفعل"[٤]، وهكذا تتجاوز اللغة بنيتها المغلقة إلى عناصر متاخمة؛ كالمتكلم، والمخاطَب، والموضع، أو المقام، أو السياق، ونتيجة

(١) نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) عبد الله الفيفي، الشعر الجاهلي بين الغنائية والموضوعية- قراءة في جدلية الشعر والثقافة من خلال السبع معلقات نموذجًا، (القاهرة: منشورات كلية الآداب بجامعة عين شمس، ٢٠٠٧م)، ص٨٥٧.

(٣) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٩٩.

(٤) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٩٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

لاهتمام الجاحظ اللافت بالمتكلم، فقد برزت ظاهرة التلفظ من خلال تحديده للملفوظ، "من زاوية تلفظه، ويضبط هويته بمتلقيه، وسياقه"(١)، وعليه فقد أسهب صمّود لإسهاب الجاحظ في استجلاء مكانة المتكلم، والدور الواقع على عاتقه، والميزات التي يجب أن يصنعها لنفسه؛ كي يتميز إن كان في إطار صفات المتكلم، أو في ثقافته، أو في إطار نواميس اللغة.

ثم إن بعض مشاريع تجديد الدرس البلاغي اليوم، تنطلق من فكرة رد الاعتبار للمخاطب الذي أغفلته مقولات البلاغة والنقد في ظل انشغالها بالمتكلم. فنجد مشروع عماد عبداللطيف -على سبيل المثال- يحاول تأسيس توجه جديد، يتجاوز مشكلة منح المتكلم ممارسة سلطوية تعزز سيطرته على المخاطب، وقد أطلق على هذا التوجه (بلاغة المخاطَب)(٢).

(١) نفسه، ص٣٠٠.

(٢) يُنظر: عماد عبد اللطيف، بلاغة المخاطب (الجمهور) نحو بلاغة جديدة، (القاهرة: ندوة الأدب المقارن، ٢٠٠٦م)، ص١٦.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المبحث الثاني

تحيزات المنهج في القراءة الأسلوبية

يفترض هذا المبحث عمق التلازم بين الهاجس الإبستمولوجي الدافع لصمّود، ووعيه المحايث للتحولات المعرفية في الخطابين النقدي والبلاغي، ممثلة في التوجهات الأسلوبية، تؤطر هذه الاهتمامات إشكالية التحيز المنهجي، وهي إشكالية كثيرًا ما طُرحت حول المناهج المعرفية، والنقدية الأدبية منها بشكل خاص.

❑ أولاً: تحيزات المنهج: قراءة في المفهوم:

إذا كان الفكر هو "التشكيل المعرفي، والمنظومة الإدراكية التي يتكئ عليها المنهج، ويتحيز لها"(١)، والتحيز المقصود هنا هو ذلك الارتباط بين الثقافة "ومنتجاتها بالخصائص المميزة لتلك الثقافة، وبالظروف الزمانية والمكانية التي حكمت تشكُّل تلك الثقافة، ومنتجاتها في مرحلة معينة"(٢)؛ فإن سؤال التحيز من أكثر الأسئلة المنهجية رسوخًا لا في الفكر الغربي فحسب، بل "في الفكر العربي الإسلامي منذ بدء علاقته بالفكر، والثقافة اليونانية، وأن القول بالتحيز المنهجي هو مما نجده لدى كثير من كبار المفكرين والنقاد العرب والمسلمين"(٣).

إن من الأمور التي يكاد يتفق عليها الباحثون في الفكر الإنساني والعربي بشكل خاص، أنه لا يمكن عزل المناهج، والنظريات، والمقاربات، والأدوات التحليلية، عن سياقاتها التي انبنت عليها؛ فهي لا تنفك عن حمولاتها الفكرية والثقافية النابعة من بيئة

(١) سعد البازعي، ما وراء المنهج: تحيزات النقد الأدبي الغربي، (الكويت: المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مج ١٠، ع٣٨، ١٩٩٠م)، ص٥٩.

(٢) سعد البازعي، ميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، ص١٠٤.

(٣) سعد البازعي، ما وراء المنهج: تحيزات النقد الأدبي الغربي، ص٥٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المناهج نفسها، وعند هجرتها إلى بيئة أخرى، فإنها ستصحب مضامينها أيضا؛ إذ لا يمكن أن تُفرغ المناهج، أو تُجتث من تربتها، مهما ادّعت من موضوعية وعلمية؛ لذلك، فإن من الدارسين من لا يؤمن بعلمية المناهج النقدية الغربية، وموضوعيتها، بل لا يسلم بكونيتها، ويرى أن النقاد العرب انقسموا إلى قسمين بشأن إجرائية المناهج الغربية، وإمكانية توظيفها في القراءة والتأويل(١):

-قسم يقر بصلة هذه المناهج بمضامينها الفلسفية، وأصولها الفلسفية، مع اعتقاده إمكانية الفصل بينها وبين مضامينها، وإفراغها من محتواها عند تنزيلها على النصوص، وبهذا يعتقد إجرائيتها.

-وقسم آخر ينظر إلى المناهج الغربية بوصفها نماذج وقوالب علمية مجردة عن الذاتيات والمضامين الفكرية، وبهذا يمكن تنزيلها على أي مجال.

وبالنظر في الممارسة البنيوية عند حمّادي صمّود، أو كما اختار لها تسمية الإنشائية، فإن الدراسة تفترض تصنيف قراءته ضمن القسم الآخر، ذلك أن استعارة المناهج البنيوية، وتنزيلها على الصورة التي استقرت بها في مظانها النظرية والتطبيقية، كان في نظر رواد البنيوية من العرب، منهجًا صالحًا للتطبيق على جميع النصوص، كونها ذلك المنهج العلمي المجرد الذي يصلح لكل البيئات الثقافية، ولمختلف النصوص، وهذا حال التلقي العربي للبنيوية في أولى مراحله؛ فقد استعاره النقاد، ونزَّلوه كما هو في ثقافته الأصل شكلا ومضمونا، وهذا ما ينطبق على قراءة صمّود الإنشائية.

وفي سبيل تأكيد استحالة سلامة القول بموضوعية المناهج البنيوية، يقدم أحد الباحثين حجة، مؤداها أن جعل البنيوية منهجا علميا لا مذهبا فلسفيا، مقولة لا يجمع على التسليم بها نقاد الغرب أنفسهم. فالبنيوية نشأت مفتقدة للعالمية، وللكونية؛ حيث

(١) يُنظر: حميد سمير، نموذج الحداثة وما بعدها في الفكر العربي الحديث. قراءة نقدية، (نسخة إلكترونية عن دار تكوين)، ص٧٤.

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

أرضها الثقافة الفرنسية؛ فهي مرتبطة بالتاريخ، والجغرافيا، والهوية المحددة لمعالم هذه الثقافة[١]، "اللهم إلا إذا أردنا أن نختزل العالمية في الفكر الفرنسي، وأن نجعل من الثقافة الفرنسية ثقافة إنسانية، وهذه نزعة فرانكفونية استعلائية، تحمل لوثة إثنية"[٢].

❑ ثانيًا: السياق المعرفي لمشروع صمّود الأسلوبي:

أشارت الدراسة في الفصل السابق إلى جملة من المرجعيات الفكرية؛ فلسفية، وثقافية، لسانية ونقدية، تضافرت مكونة لهذه التحيزات في مشروع صمّود. كانت الثمرة الأولى لهذه المرجعيات أن اشترك صمّود برفقة رواد الدرس الأسلوبي الأوائل، في إقامة ندوة حول الأسلوبية، نُشِرت في مجلة فصول[٣] متحدثا عن كتابه

---

(١) يُنظر: حميد سمير، نموذج الحداثة وما بعدها في الفكر العربي، ص٧٨ -٧٩.

(٢) نفسه، ص٧٩.

(٣) نشرت مجلة فصول أبرز وأهم المحاولات الأسلوبية التي أسست لهذا التوجه في الثقافة العربية خلال تلك الفترة، ومن أبرز هذه الدراسات:

- شكري محمد عياد:

مفهوم الأسلوب بين التراث النقدي ومحاولات التجديد، العدد ١، ١٩٨٠م.

قراءة أسلوبية لشعر حافظ، مج٣، العدد٢، ١٩٨٣م.

- حمّادي صمّود، شعرية الشوقيات، مج٣، العدد ١، ١٩٨٢م.

- عبد السلام المسدي، التضافر الأسلوبي وإبداعية الشعر، مج٣، العدد١، ١٩٨٢م.

- محمد الهادي الطرابلسي:

خصائص الأسلوب في الشوقيات، مج ٣، العدد١، ١٩٨٢م.

معارضات شوقي بمنهجية الأسلوبية المقارنة، العدد١، ١٩٨٢م.

- صلاح فضل، علم الأسلوب وصلته بعلم اللغة، مج٥، ع١، ١٩٨٤م.

- أحمد درويش، الأسلوب والأسلوبية، مج٥، ع١، ١٩٨٤م.

- محمد عبد المطلب:

⇦=

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

التفكير البلاغي عند العرب، وقد قال مؤكدا: "وصلة البلاغة والأسلوبية لا تخفى، كما أن الزاوية التي بنت شبكة قراءتي للتراث البلاغي، كانت زاوية إنشائية أساسا، استفادت من مكتسبات الأسلوبية"(١)، جاءت هذه الدراسة متوائمة والسياق المعرفي الذي تعيشه اللغة العربية على مستوى التفكير والدرس. فقد دأب الدارسون على تقسيم الدراسات البلاغية والنقدية واللغوية بشكل عام إلى ثمانينيات القرن الماضي إلى مرحلتين متمايزتين(٢):

-مرحلة التأريخ والتلخيص، والتعريف بالتراث البلاغي والنقدي، وتقريبه إلى القراء. بدت ملامحها مع المراغي في (تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها)، إلا أنها محاولة لم تصل إلى المستوى الذي وصلت إليه محاولة شوقي ضيف في كتابه (البلاغة تطور وتاريخ)؛ فقد أجمع الدارسون على أنه ممثل هذه المرحلة، وكان محمد العمري قد أطلق عليه (مدرسة التمهيد)؛ لأنه يمثل -في نظره- دور المؤرخ والقارئ في آن واحد، وهو أحد الجسور البلاغية التي ينبغي إعادة صياغتها للقيمة المصادرية التمهيدية التي يحملها هذا الكتاب، محاولا إنصاف فكرة التأريخ، بأنها ضرورة لا غنى عنها في فهم سياقات الدرس، "ولكن أكثرنا يستهلكها سرا، وينقضها جهرا"(٣).

-مرحلة الكتابة من منطلق حداثي لساني، ويمثل هذه المرحلة حمّادي صمّود

التكرار النمطي في قصيدة المديح عند حافظ دراسة أسلوبية، مج٣، ع٢، ١٩٨٣م.

قراءة ثانية في شعر امرئ القيس، ١٩٨٤مج٢، ع٤.

النحو بين عبد القاهر وتشومسكي، مج٥، ع١، ١٩٨٤م.

- بالإضافة إلى عدد من الدراسات لعدد من الدارسين المبرزين، منهم عز الدين إسماعيل، كمال أبو ديب، عبده بدوي، وغيرهم.

(١) حمّادي صمّود، طريقي إلى الحرية، ص٢٦٥.

(٢) يُنظر: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، (المغرب: إفريقيا الشرق، ط١، ١٩٩٩م)، ص٨.

(٣) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

في (التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس. مشروع قراءة)، أُعدّ هذا الكتاب في فترة اتخذت فيها الدراسات المغربية طابعا سوسيولوجيا، يتحول إلى الدراسات البنائية ذات الطابع اللساني الشكلاني الذي "يجد سندًا له في الدراسات الغربية التي انطلقت منذ الستينيات تؤرخ للبلاغة الغربية، أو تعيد قراءتها، وتفسر فعاليتها مع بارت (تاريخ البلاغة) وجان كوهن.."[١].

إن عَدَّ الفكر اللساني المنعرج الحاسم في دراسات البلاغة العربية والنقد الأدبي، يأتي عند هؤلاء النقاد لهاجس معرفي، لا يدفعه الانبهار، أو الانقياد لموضة، إنما يجيء إيمانا بضرورة اختيار الأرضية النظرية والوعي التام بأهميتها التي تكمن في حفاظها على النسق المعرفي، وحمايته من التهافت، والتلفيق؛ لذلك وجدوا أن اهتمام اللسانيات بمبحث العلامات، وبالعلاقات داخل النظام اللغوي، أمر مهم، على أساس أن التعالق "هو المولد للصفات التمييزية التي نفرق بها بين علامة وأخرى، ومن أبرز ما ترتب على هذه النظرة، الحرص على الفوز بتلك العلاقات الناظمة التي تبني نسقا مسيجا، هو مولد القوة الضامنة للصيرورة، والدوام، والامتلاء بالمعنى"[٢]، ورأينا كيف تجلى هذا الاهتمام من خلال التركيز على العلاقة بين اللفظ والمعنى، بوصفها المدخل الصحيح لدراسة الظاهرة اللغوية، كما سنرى ذلك يتحقق أيضا على المستوى اللساني في الفقرات القادمة.

ولم يكن التفكير البلاغي هو النموذج القرائي اللساني الأوحد لصمّود، بل شرع في تعامله مع البنيوية تطبيقا في اللحظة التي اقترح فيها دراسة مسألة تتعلق بالمقامة، وجعل المقاربة (أجناسية بنيوية)، كما ذكر صمّود نفسه، تقوم على إبراز مكونات النص، وفحص آلية بنائه، وكان هذا المقترح في التبريز قد صار بابا نشره فيما بعد في كتابه الوجه والقفا. جاء هذا التحيز للبنيوية منسجما مع مشروعه الفكري العام

(١) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص٩.

(٢) حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص٦١.

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

حول قراءة البلاغة العربية، فقد وجد صمّود في (الشعرية البنيوية)[١] التي اقترحت في الستينيات من القرن الماضي، مستندا نظريا وتطبيقيا في التناول، والتحليل، والتأويل؛ "لذلك استلهم روحها ومرجعياتها، باحثا عن أصول النظرية البلاغية العربية، ومدارات وصفها"[٢]، وإذا كانت الأسلوبية[٣] هي بنت اللسانيات والنقد الأدبي، وزاوية النظر التي أقام عليها صمّود قراءته هي زاوية إنشائية معتمدة على مكتسبات الأسلوبية، فإن هذه القراءة ستتخذ بعدين جَلِيَّيْن، الأول نظري يمكن الكشف عنه من خلال استنباط المقولات الأسلوبية التي بنى عليها قراءته للتفكير البلاغي عند العرب، والثاني تطبيقي عالج من خلاله بعض الأجناس الأدبية كالمقامة.

---

(١) ينبغي أن نشير هنا إلى التداخل المصطلحي عند بعض النقاد العرب والتونسيين منهم على وجه التحديد، بين مصطلحات البنيوية (الإنشائية والشعرية)، وصمّود من بينهم. تشي مقولة المسدي عن الأسلوبية إلى شيء من هذا التداخل في قوله: "البويطيقا الجديدة التي تضيق رؤاها حينا، فتصلح لها عبارة الشعرية، وتتسع مجالا واستيعابا أحيانا أخرى، فتحسن ترجمتها بمصطلح الإنشائية". عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص٢٥. ويشير محمد مشبال أيضا إلى ذلك متحدثا عن البلاغة الأدبية؛ إذ يقول: "يستخدم هذا الاتجاه البلاغة والأسلوبية والشعرية، بمعنى واحد تقريبا". يُنظر: محمد مشبال، في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، (عمان: دار كنوز المعرفة، ط١، ١٤٣٩هـ)، ص١٦، ويدقق حسن ناظم في مفاهيم الشعرية الترجمات المتداولة لمصطلح (poetics) ومن بينها (الإنشائية) عند: توفيق بكار، عبد السلام المسدي، فهد عكام، الطيب البكوش، حسين الغزي، وحمّادي صمّود. يُنظر: حسن ناظم، مفاهيم الشعرية دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٤م)، ص١٥.

(٢) شكري المبخوت، حمّادي صمّود تجديد البلاغة وتأصيل الإنشائية، ص٢٠.

(٣) الأسلوبية "فن تكوَّن تدريجيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في نقطة التقاء البلاغة واللسانيات، وقد رأت ميدان صلاحيتها أحيانا ينحصر في المدونة الأدبية وحدها، وأحيانا ينفتح ليسع كل استعمالات اللغة". مجموعة من الباحثين، معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبد القادر المهيري، حمّادي صمّود، (تونس: دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، ٢٠٠٨)، ص٣٣٥.

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

❑ ثالثًا: مقولات القراءة اللسانية الأسلوبية:

يبدو الحديث اليوم عن المقولات الأسلوبية حديثا عتيقا؛ إذ عاش الفكر مرحلة ما بعد البنيوية التي تُعَدُّ مراجعة نقدية لكل فكر بنيوي، تحدوها رغبة في تجاوز الفكر النسقي المغلق، الذي عُرفت به البنيوية في قراءتها للعالم، ويدفعها تَوْقٌ إلى إعادة الاعتبار لمفاهيم الذاتية والوعي، التي غيّبتها القراءة البنيوية زمنا طويلا. بل ليس بالأمر الغريب أن يكون تراجع الأسلوبية -وهي كما يقال بنت اللسانيات[1]- في الأوساط الثقافية الغربية، متولدا -كما يرى صمّود- عن عدم قدرة القائمين عليها على مجابهة أسئلة محورية من قبيل: "أين حدود الأسلوبية وأين حدود النقد؟ ثم أين الوصف اللغوي للنص من التفكير في قضايا الخيال، والنماذج الأسطورية التي ترسبت في أعماق الإنسانية، وأصبحنا نحملها كالبذرة المختفية المتجددة تينع ولا تموت؟"[2]، وعلى الرغم من ذلك، فإن انتهاء البنيوية -كما يذهب بعض النقاد- "أمنية واهمة أكثر منها حقيقة واقعة؛ إذ ما زلنا نجد أن البنيوية متعلقة لا تنفك عمَّا بعدها: ما بعد (البنيوية)"[3].

وعلى كل، فإن الدراسة تحاول في هذا السياق تحليل ومناقشة أبرز المنطلقات القرائية التي ارتكزت عليها كثير من القراءات التي تروم تجديد البلاغة، كما تشير إلى تركيزها على المنطلق أكثر من عنايتها بمظاهره الإجرائية؛ حيث تكمن القضية الأساسية في معرفة مسارات التحول، وطرائق النظر، كما نرى هنا في خطاب صمّود البلاغي والنقدي.

---

(١) يُعنَى الاتجاه الأسلوبي بدراسة الاستخدامات اللغوية التي تتميز بصفة العدول أو الانزياح عن معيار اللغة العادية، ويركز على تصنيف الأساليب انطلاقا من الخطابات الأدبية، وازدهر بازدهار الشعريات البنيوية في النظرية الأدبية المعاصرة، إثر ثورة اللسانيات في العلوم الإنسانية. يُنظر: محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص١٦.

(٢) حمّادي صمّود، الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة، ص٥٩.

(٣) سعد البازعي، ميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، ص٧٤.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

يتجلى خطاب صمّود الأسلوبي بالنظر إلى محاولته إعادة قراءة البلاغة العربية، مشبعًا بالخلفية الألسنية البنيوية؛ سواء على مستوى المفاهيم المركزية، أو على مستوى المنطلقات والمقولات؛ فقد تأسست قراءة صمّود على المرتكزات اللسانية أولا، وأهم ما تأسست عليه اللسانيات **موضوع العلم، وهو اللغة**، من حيث إن اللغة تحمل مظهرين؛ ذاتي، يتمثل في السنن المقررة، والقوانين المستنبطة. ووظيفي، يتمثل في أن اللغة تعمل على كشف ما في الفكر الإنساني من معانٍ وتصوراتٍ يعبر عنها فَيَصِل إلى تطابق مضمون اللغة مع مادة العقل(١).

ثم إن اللسانيات أقامت تعريفها للغة على **مفهوم العلامة**، فتصبح العلامة من أهم مبادئ الفكر الألسني، من حيث هي دليل لا يدل في ذاته، إنما يكتسب دلالته باتفاق يحوله إلى رمز. وللرمز في الغالب قرينة تنفي عنه صفة الاعتباطية. وبهذا تكون اللغة مجموعةً من العلامات التي ترتبط فيما بينها ترابطا عضويا، فتحكمها **علاقات** من التوافق أو التطابق، ومن الاختلاف أو التضاد(٢)، ولا يمكن تعيين ماهية كل عنصر أو وظيفته إلا من خلال علاقته بالعناصر الأخرى، وهكذا "يكون موضوع علم اللسان اللغة في مظهرها الأدائي، ومظهرها الإبلاغي، وأخيرا في مظهرها التواصلي"(٣)، ومن هنا بحثت اللسانيات في مراتب الظاهرة اللغوية؛ الكلام، واللسان، واللغة. على أن اللغة مفهوم كلي، واللسان مفهوم نمطي، والكلام مفهوم إنجازي(٤)، وعلى هذا الأساس تتجلى خصائص الظاهرة اللغوية على مستوى اللسان الذي يمثل خروج اللغة من حيز القوة إلى حيز الفعل، والكلام الذي يمثل خروج اللسان من مجال

(١) يُنظر: عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠١٠م)، ص١٠٧، ١٠٨.

(٢) يُنظر: نفسه، ص١١١.

(٣) نفسه، ص١٤٧.

(٤) يُنظر: نفسه، ص١٥١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الصورة البنائية، إلى الإنجاز الذاتي المرتبط بالجانبين الحيوي والنفسي[١].

إن موضوع اللسانيات يظهر صارخا في قراءة حمّادي صمّود، وهو كما بينت الدراسة آنفا يتمثل في الاهتمام بالظاهرة اللغوية؛ فقد اتكأت قراءة المدونة البلاغية أولا على المدخل اللساني اللغوي الذي يتمثل في شكلين بارزين، يمكن فهمها من قراءة محمد عبدالمطلب:

١- المادة اللغوية التي جُعلت أصلا للفكر البلاغي؛ حيث اعتمد في تأصيل الفكر البلاغي على مصادر العرب اللغوية مدخلا للبلاغة العربية، وهي مادة لغوية خالصة للغة، "همها توضيح المعنى، وتفسير المقال، فتكتفي بالإشارة إلى الوجه دون تعمق أو تحليل"[٢].

٢- التأكيد على أهمية مرحلة (ما قبل اللغة) أو (ما قبل الفكر)؛ كونها تمثل نقطة تحديد الظاهرة اللغوية في علاقتها بالواقع اللغوي، وتتمثل هذه الأهمية في نقطة بؤرية؛ إذ يتشكل التساؤل المستمر: هل الأشياء تسبق أو اللغة؟ "وبالتالي يكون وضع اللغة وضعًا طارئًا تاليًا، وتكون وظيفتها الكشف عن هذا الوجود، والإحاطة به، وإماطة اللثام عنه ببيانه، أم أن اللغة تبني الوجود بحيث لا شكل غير شكلها، ولا إمكان لأن يكون خارجها، وعليه تكون وظيفتها الخلق، والاكتشاف، وإنشاء ما نقوله إنشاء"[٣].

وبهذه التساؤلات المفتوحة، استقرت ثنائية الفكر واللغة على ضرورة الارتباط بينهما، إلى أن التفتت علوم اللغة إلى الجانب اللغوي، موسعة من الدليل إلى العلامة، واللفظ يدخل الإطار الدلالي بوصفه جزءًا من هذه العلامات، ففصلت بعض المنهجيات الحديثة بين اللغة والفكر، "وذلك لأن الإمكانيات المتعددة على مستوى

(١) يُنظر: نفسه، ص١٦٢.

(٢) محمد عبد المطلب، قراءة القراءة في نظرية الأدب عند العرب، ص١٢.

(٣) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٢٥.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الأبنية اللسانية، إنما تعبر جميعها عن فعل تواصلي واحد"[١]، وإن كانت اللغة الأدبية لا تسمح بهذا الفصل؛ لذلك سنجد أن جعل الأسلوب اختيارا، سيركز على شقي اللغة والفكر، على أساس أن أحدهما يرتبط بالآخر بالضرورة.

وعلى الرغم من اختيار صمّود للمدخل اللغوي "فإنه قد تعامل مع بعض التعاريف التي قدمها البلاغيون بوصفها إضافة جعلت المعنى مطروحا كوجود ثانٍ للوجود الأول، وهو الوجود الذي يربط اللغة بالاجتماع الإنساني، وهذا الطرح له نتيجتان:

الأولى: إدراج اللغة في إطار نظرية البيان.

الثانية: أن اللغة أداة ووسيلة، ومن ثم غلب على وظيفتها التوضيح، والتقريب من الأفهام"[٢].

تأسيسًا على ما سبق، يمكن القول إن المقولة الرئيسة التي أُسست عليها قراءة البلاغة، تتمثل لحظة "بداية الوعي بضرورة انطلاق الأحكام من الشعر نفسه، بالنظر إلى خصائص لغته، والاقتناع بأن الألفاظ وإن كانت من نفس الحيز الدلالي، فإن بعضها ألصق بالموضوع من بعضها الآخر، وأكثر ملاءمة للمعنى الذي قصده

(١) حسن ناظم، البنى الأسلوبية دراسة في أنشودة المطر للسياب، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٢م)، ص٥٩، ويشير ناظم في هذا السياق إلى الأسلوبية الجذرية التي تخرج عن النظرة المحايثة للغة، إلى ربط اللغة بالواقع والأيديولوجيا؛ للكشف عن رؤية العالم عبر نص ما، عن طريق فحص الاختيارات التي يقوم عليها ذلك النص، وهذا يعني أن هناك نظرتين لمفهوم الاختيار الذي ستصل إليه الدراسة بعد قليل، مفهوم محايث، وآخر خاضع لتأثير الواقع، وعادة ما يمزج المحلل الأسلوبي العربي بين المفهومين كما فعل ناظم في تحليله لأنشودة المطر، ووصف عمله هذا بالمواشجة التي تروم فتح أفق أرحب؛ لاستشراف الرؤى الخاصة داخل النص.

(٢) محمد عبد المطلب، قراءة القراءة في نظرية الأدب عند العرب، ص١١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الشاعر، ومن هنا أتت ضرورة التفكير فيها، واختيارها طبق الغرض"[١]. والملاحظ أن عبارة صمّود هنا تؤكد لنا فكرتين بنيويتين:

-انطلاق الأحكام النقدية من خلال لغة النص الشعري نفسه.

-ثمة ألفاظ أكثر ملاءمة من غيرها بالنسبة للمعنى المقصود، والمعول على عملية الاختيار.

وهكذا فقد كان من نتائج انصباب البحث البلاغي على الشعر في نشأته، أن اتجهت البلاغة عند العرب في مرحلة نشأتها، وجهةً تختلف عنها عند بلاغات أخرى، "فلم توظف أساسا للإقناع، بل لدراسة خصائص الكلام الأدبي"[٢]، وقد تأتّى هذا للقراءة من خلال بعض المبادئ الأسلوبية، ومن أهمها: (ثنائية اللغة والكلام، مبدأ الاختيار، وعناصر التواصل، وثنائية الطاقة التصريحية، والطاقة الإيحائية، والعدول).

أ- ثنائية اللغة والكلام:

ذكرت الدراسة آنفا، أن الظاهرة اللغوية حسب مدرسة سوسير، تشمل اللغة، والكلام، وحسب سوسير، فإنه "للغة جانب فردي، وجانب مجتمعي، ولا يمكن أن ندرك أحد الجانبين في استقلال عن الآخر"[٣]، أو كما أشار صمّود أنهم عرفوا اللغة بأنها "نظام من العلامات، وجملة من الضوابط والقوانين تتحكم في استعمال المتكلم

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٧.

(٢) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١١٩.

(٣) فرديناند دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة: عبد القادر قنيني، أحمد حبيبي، (المغرب: إفريقيا الشرق، ١٩٨٧)، ص١٨، ويفرق بين اللسان واللغة بقوله: "فليس اللسان إلا جزءا محددا من اللغة، وهو جزء أساسي لا شك فيه، وبهذا الاعتبار يكون اللسان في ذات الوقت إنتاجا مجتمعيا حادثا عن ملكة اللغة، وعن أنواع التواطؤ، والاتفاقات الضرورية التي أقرها المجتمع، وسنها؛ لكي تتأتى ممارسة هذه الملكة عند الأفراد".

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

بها، وعرفوا الكلام بأنه استعمال تلك العلامات باحترام جملة من الأنماط النظرية"[١].

وينبه صمّود إلى إدراك العرب الأوائل هذه الثنائية، منذ لحظة الاهتمام بالقرآن والشعر. مقررا أن ما نعدُّه (قواعد اللغة) قد تأسس معظمه على (الكلام)، وبالتحديد الكلام في خصائصه البنيوية والفنية، "مما أدى إلى امتزاج المبادئ الكلية المرتبطة بالاستعمال الفصيح، بالخصائص النوعية للشعر والقرآن"[٢]. ويربط هذا المسلك بمقولات ابن جني حول الفرق بين الحقيقة والمجاز، مؤكدا أن ما جاء به ابن جني يشكِّل وعيًا صريحًا على مستوى الاصطلاح، وعلى مستوى تحديد الوظائف، والمقصود مقولة ابن جني: "الحقيقة: ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة، والمجاز: ما كان بضد ذلك، وإنما يقع المجاز، ويعدل إليه عن الحقيقة؛ لمعانٍ ثلاثة، وهي: الاتساع، والتوكيد، والتشبيه؛ فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة"[٣]، والجلي هنا ذكر ابن جني مصطلحي اللغة والاستعمال معا، حيث "علق بالأول مفهوم المواضعة، وبالثاني فعل الإقرار، فجاء الاستعمال عنده إقرارًا بمواضعة لغوية ينتج عنه أن الحقيقة ممارسة لغوية تقر القوانين التواضعية، وبذلك تخرج المقابلة بين الحقيقة والمجاز عن كونها مقابلةً بين اللغة والاستعمال، إلى كونها مقابلةً بين استعمالين"[٤]، وبهذا تكون اللغة -بتعبير صمّود- متصورًا وهميًّا لا وجود له البتة.

وفي إطار حديثه عن مشكل مجاز القرآن لأبي عبيدة، يستعين بهذه المقولة؛ لمعرفة ما إذا كانت تختلف اللغة عن الاستعمال في رأي ابي عبيدة، لينتهي إلى أن

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٩٦.

(٢) نفسه، ص٥٠.

(٣) أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، (مصر: المكتبة العلمية، د.ت)، ج٢، ص٤٤٢.

(٤) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٥١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الأخير كان واعيا بهذه الثنائية، متحرجا منها؛ لأنه "حريص كل الحرص على الوقوف على الجملة المقدرة التي تعتبر الجملة الماثلة في السياق مظهرا من مظاهر تحولها، معتمدا في ذلك على منهج التقدير، والإضمار"(١).

ويذهب صمّود في قراءته لمرحلة التأسيس، إلى أن الجاحظ يثير جملةً من الاعتبارات العامة التي تنبّه إلى عَدِّ اللغة والكلام ممارسةً لجملة من العلامات والصور، هي أداة الإنسان في حصوله المعرفة، وطريقه إلى المعنى، ثم يعقب بأن الجاحظ بهذا المذهب يذهب "إلى أن لا علاقة في أصل الوضع بين الدال ومدلوله، ثم إن ما يقوم بينهما بعد ذلك من تلاحم، يعود إلى أسباب خارجية، اجتماعية، نفسية"(٢). وإلى مثل هذا قد ذهب عبد العزيز حمودة في المرايا المقعرة، مستنتجا أن الجاحظ يعبر "عن وعي مبكر بكل ما تمثله الثنائية من احتمالات للجدل الذي انشغل به فكر القرن العشرين"(٣).

كما أن أصول نظرية النظم جاءت "مبنية على أسس لغوية متطورة، قوامها التمييز بين اللغة والكلام تمييزا يضاهي في دقته، واستحكام نتائجه، ما وصل إليه علم اللسانيات الحديثة من آراء في هذه المسألة التي تعتبر من المشاغل المهمة الكبرى، التي حظيت بنصيب وافر من مجهودات اللسانيين الغربيين"(٤). فكان (الكلام) محور آراء الجرجاني؛ لأن البلاغة تهتم بالمنجَز الفردي المتصرِّف في استعمال عناصر النظام اللغوي، ثم في التأليف بينها وفق مقاصد المتكلم، كما أن مقتضيات احتجاج الجرجاني، وتعليله لمذهبه في النظم، حتَّمَت الاتكاء على اللغة؛ كونها الأساس

(١) نفسه، ص٩٧.

(٢) نفسه، ص٢٠٤.

(٣) عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية، (الكويت: مطابع الوطن، ٢٠٠١م)، ص٢٦٥.

(٤) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٥٠٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المنهجي الذي يكشف عن خصائص الطرف المقابل، وهو الكلام.

وينتهي صمّود إلى أن المفكرين العرب اتجهوا -لإبراز أهمية المجاز في تحديد نوعية الأدب- اتجاها نظريا محضا، ربطوا فيه ظهور (الشعرية) بانتقال اللغة من طور التعبير الحقيقي، إلى طور (التجرد) في العبارة، "وهو يعني به الخروج في استعمال اللغة عن احتذاء الْمُوَاضعة والاصطلاح، إلى التصرف في تلك المواضعة، وإجرائها على نسق يلائم غرض المتكلم في التعبير الفني"(١)، وهذه التصورات تتحقق من خلال المقولات المؤازرة؛ كالاختيار، والعدول.

ب- مبدأ الاختيار:

إن التعامل مع الأسلوب على أنه اختيار، منطلق أثير في الدراسة اللغوية التراثية؛ بلاغية ونقدية، وقد اجتهدت الدراسات المعاصرة في التأصيل لهذه المقولة، متكئةً على (لكل مقام مقال)، فوجدت ضالتها في المدونة البلاغية والنقدية التي ربطت دائما بين موقف المبدع، واختياراته اللغوية، وجعلت النجاعة في القول مرتهنةً بتحقيق هذه العلاقة بين المقام والمقال.

كما أن اختيار اللفظ من المبادئ التي تلح عليها الدراسات الأسلوبية، على أساس أن كل عملية خلق فني أساسها الاختيار، ومن ثم ينفي الاختيار عفويةَ الحدث الأدبي؛ اعتمادًا على أن "كل إفراز ألسني فني، إنما هو ضرب من الاختيار الواعي، يستقي به الباثُّ الوسائل التعبيرية الملائمة لغرضه، مما تمده به اللغة وعلومها"(٢).

وجد صمّود أن نشأة المادة البلاغية المبنية على الرؤية المجازية بدايةً في مجاز أبي عبيدة، جاءت في صورة صيغ عارضة، تطرأ على التركيب اللغوي؛ كونها أدرجت في مرحلة متأخرة ضمن بناء النظرية البلاغية في باب المعاني، وهذا دلّه

(١) نفسه، ص٥٣٤.

(٢) عبد السلام المسدي، المقاييس الأسلوبية في النقد الأدبي من خلال البيان والتبيين للجاحظ، (تونس: حوليات الجامعة التونسية، ع١٣، ١٩٦٧)، ص١٥٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

بدايةً على أن هذه المجازات "طرق مخصوصة في القول... وما دامت كذلك، فلا بد أن ترتبط بمفهوم الاختيار القائم على المفاضلة بين مسالك التعبير وسبله، حسب قصد المتكلم من كلامه"(١)؛ فمصطلح الجواز يعني أن المتكلم له حرية اختيار الكلام، وله أيضا أن يتوسع في اللغة، وهو بذلك لا يرتكب أمرا ممنوعا، ويشير صمّود إلى أن استخدام صاحب مجاز القرآن لمصطلح الاحتمال، دلالة على أن بروز مثل هذه الأساليب نتيجة لتفاعل مجموعة من العناصر إذا تضامت أوجبت حصول استعمال لغوي دون غيره، وبهذا يصبح المجال في مجاز القرآن مجال القول، لا اللغة، "وهذا مبحث بلاغي آخر يرتبط مفهوم المجاز فيه، بالاحتمال والجواز، فيصطبغ بصبغة أسلوبية عامة"(٢)، قوام هذه الصبغة التي يحسها صمّود العدول الذي يسلكه المتكلم في خطابه، من طريقة في القول إلى طريقة أخرى، تحكمها ظروف سياقية في الغالب.

ثم إن مبدأ الاختيار متولد عن نظرية الجاحظ في المواضع والمقامات؛ لتمكن الملاءمة بين المقام والمقال، وتتمثل أسس الاختيار عند الجاحظ في "تحقيق الملاءمة بمعنييها العام والخاص، أي بين الأطراف الداخلة في تركيب الكلام، وبين السياق الحاف بها"(٣)، ويقتضي الاختيار من المتكلم أن يكون على دراية بوجوه تصاريف الكلام، وهذا يقتضي الطبع، والخبرة، والدربة.

فقد أدرك الجاحظ إمكانية أداء المعنى بطرق مختلفة، إما أن تكون طريقة عادية لا تتجاوز المعاني المتواضع عليها، وإما أن تكون طريقة تخرج عن العادة، إلى معان غير مألوفة، "وعلى هذا النحو يكون الاختيار حدا فاصلا بين نوعين من الممارسة اللغوية؛ ممارسة اجتماعية، وأخرى فنية"(٤).

---

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٩١.

(٢) نفسه، ص٩٢.

(٣) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢١٨.

(٤) نفسه، ص٢٦٤.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

ويدقق صمّود القول، فيذهب إلى أن ثمة منطلقات فنية نظرية تتعلق بخصائص الكلام الأدبي، وإجراءات عملية تجسم عملية الاختيار، أما النظرية، فيكمن المنطلق الأول في قطع الصلة بين القول الأدبي، والقيمة الأخلاقية، من قبيل الصدق والكذب؛ ليحل محلها معايير يستنبطها المخاطِب من اللغة ذاتها، فيتصرف فيها بطريقة تحقق القيمة الفنية "وإن كان ذلك على حساب مطابقة النص للواقع"(١)، ويتمثل الثاني في فكرة مؤداها أن التعهد والتمرّس، أساس الأثر الفني الجيد والبليغ.

أما الإجراءات العملية المجسمة لمبدأ الاختيار، فيتحقق أولها بتحقيق فصاحة اللفظ، وفصاحة اللفظ تتأتى من البنية الصوتية، وانسجام الحروف في اللفظ، وقد بلور الجاحظ هذا المقياس المركزي في أصول نظريته الأدبية، فهو (الاقتران)، وهو في تفسيره (التشابه والموافقة)، وعلى الرغم من هذا فإن صمّودا يوجه انتقادا لجملة المعايير التي يقررها الجاحظ، أنها انطباعية ذوقية، لا يمكن معرفة مضمونها "مثال ذلك اشتراطه أن يكون الاسم أو اللفظ، كريما في نفسه، وأن يكون الكاتب حر اللفظ"(٢). ويصف هذه الرؤية بأنها تجزيئية تراكمية؛ فاللفظ لا بد أن تتبع خصائصه الجمالية من ذاته، لا بارتباطه ببقية العناصر المؤلِّفة للسياق، هذه الرؤية لا تسمح للفرد أن ينسجم مع النسيج العام إلا بشروط مسبقة، "وهذا يعني من الناحية الجمالية البحت، أن جمال الكل لا يحصل إلا بتجاوز الأجزاء الجميلة، أي أن السياق وحده عاجز عن توليده، ما لم يستند إلى خصائص الجدول"(٣).

أما الإجراء الآخر، فيكمن في علاقة اللفظ بالمعنى، وثنائية اللفظ والمعنى ثابتة في تفكير الجاحظ كما رأينا في المبحث السابق، ويتجلى الاختيار في هذه الثنائية عند إرادة المتكلم إبلاغ معنى ما؛ فإنه يختار ما يعبر عن مقصوده حسب كيفيات معينة،

(١) نفسه، ص٢٦٥.

(٢) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٦٧.

(٣) نفسه، ص٢٦٧.

رسالة الدكتوراه، الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

تتحدد بنوع العلاقة القائمة بين الدال ومدلوله، وبهذا فإن الجاحظ "لا يرضى من البلاغة بمجرد الإفهام، بل يريدها على أن تكون (عبارة) و (أسلوبا)، ومن هنا كان ارتباط حسن البيان عند الجاحظ، بلون من التأنق والحرص في اختيار الحروف وسلامة المخارج؛ عملا على حسن الإفهام، وأنفةً من هُجْنة النطق عند الكلام"(١).

ثم يتطور مفهوم الاختيار عند البلاغيين من بعد الجاحظ، ممثلا في مفهوم النظم؛ فقد وقف المبرد قبل استقرار مفهوم النظم، في إطار حديثه عن مفهوم البلاغة؛ إذ يقول: "حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام، وحسن النظم؛ حتى تكون الكلمة مقاربةً أختها، ومعاضدةً شكلها، وأن يقرب بها البعيد، ويحذف منها الفضول"(٢)، يتمثل وجه الطرافة في هذا التعريف في التأكيد على مفهوم الاختيار في قوله: (واختيار الكلام)، بوصفه سلوكا يؤديه المتكلم أو الكاتب، وهذا يرتبط عند صمّود بالشق الأول من التعريف؛ حيث (إحاطة القول بالمعنى) تعني احتواء الدال لمدلوله على المستوى اللغوي. وبتعاضد الشقين الأول والثاني، يخرج الكلام عن المستوى المعجمي، إلى مستوى أكبر وأعمق، يتصل بانتظام هذه الأصوات المعجمية في الجملة(٣)، وهذا ما يُعرف في الأسلوبية بالخروج من محور الاختيار إلى محور التوزيع، والتوزيع "عملية ثانية تلحق عملية اختيار المتكلم من رصيده لأدواته التعبيرية، وتتمثل في رصف هذه الأدوات، وتركيبها بحسب تنظيم تقتضي بعضه

(١) عبد الحكيم راضي، نظرية اللغة في النقد العربي. دراسة في خصائص اللغة الأدبية من منظور النقاد العرب، (القاهرة: مكتبة الآداب، ط٣، ٢٠١٧م)، ص٣٢، والواضح في هذا المنقول أن صاحبه يردّ الرأي القائل باقتصار فهم الجاحظ للبلاغة على الفهم، ويقول بعد أن يحيل على ما ذكره إبراهيم سلامة في كتابه بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، وعبد القادر حسين في أثر النحاة في البحث البلاغي، أن هذه النظرة غير دقيقة.

(٢) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، الرسالة في البلاغة، تحقيق: رمضان عبد التواب، (مصر: مكتبة الثقافة الدينية، ط٢، ١٩٨٥م) ص٨٠.

(٣) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٣٤٥.

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

قوانين النحو، وتسمح ببعضه الآخر مجالات التصرف"[١]، وتسمى العلاقات الناتجة عن عملية التوزيع، بالعلاقات الركنية؛ لأنها تخضع لقانون (التجاور)[٢]. والواضح أن تفكير صمّود بعلاقة التجاور هذه، هو الذي قاده إلى القول إن مصطلح النظم مستقطب عن هذا الخروج بالعناصر اللغوية من محور الاختيار أو الاستبدال، إلى محور التوزيع، وأن فكرة (النقل) عند بلاغيي القرنين الخامس والسادس، هي التي جعلتهم ينظرون إلى الكلمة من زاوية (استبدالية)، بمعنى أنها زاوية تطرح إمكانات التبادل الممكنة بين الوحدات المعجمية، وإن لم يهتموا بالعلاقات (السياقية)[٣]، وقادته ذات الفكرة أيضا إلى تأويله ما أورده المبرد في التعريف (أن يقرب بها البعيد)، أنها عبارة شكلية مجردة، لا تحيل على معيار وضبط خارجها، وجعلها ضابطة للفن اللغوي في "أن يصبح المجهول معلومًا، والمحسوس مدركًا، وما لا شكل له ذا شكل مضبوط يحيط به، ويبين عن حدوده"[٤]، والطريف في ربط صمّود هذه المقولة بمقولته الأثيرة في الفهم والإفهام، حيث توسعت دلالة هذه المقابلة عند البلاغيين حتى جعلوها مقياسا لتقييم الأعمال الأدبية، ومنطلقا للتفكير في المفهوم البلاغي.

وهكذا تتجلى عمليتا الاختيار والتوزيع في أدق مقولات الدرس البلاغي-أعني النظم_ ، والملاحظ أن عبد القاهر "نقل الاختيار من منطقة المعجم، ووصله بالإمكانات النحوية؛ لتكون خاضعةً للطاقات الفنية عند المبدع، وبهذا يصبح الخطاب كله واقعا تحت طائلة الاختيارات في مستوى الإفراد، أو مستوى التركيب"[٥]، وقد أكد صمّود مسبقا أن مراعاة التركيب داخلة في عملية الاختيار، بل إن الملاءمة بين

(١) عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص١٠٩.

(٢) يُنظر: نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٤١١.

(٤) نفسه، ص٣٤٦.

(٥) محمد عبد المطلب، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، (مصر: الشركة المصرية العالمية للنشر–لونجمان، ط١، ١٩٩٥م)، ص١١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

التركيب وبين أغراض المتكلم، تحكم الاختيار، بمعنى أن الاختيار "محكوم بمدأين متضامنين، أولهما الملاءمة بين نمط التركيب والغرض -أي بين البنية اللغوية الموضوعية، والبنية الفكرية -النفسية الذاتية- وثانيهما الملاءمة بين العنصرين السابقين، ومتطلبات السياق"(١)، مؤكدا أن النظم لا يتأتى إلا "بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض"(٢).

وقد ارتبط مفهوم الأسلوب المستند إلى الاختيار بنظرية التواصل(٣)، على اعتبار أن النظام اللغوي يتيح للمتكلم إمكانات وخيارات متعددة، تحكمها ظروف مختلفة، وهنا نجد أربعة أنماط من الاختيار(٤):

-اختيار غرضه التوصيل.

-اختيار موضوع الكلام.

-اختيار الشفرة اللسانية على مستوى تعدد اللغات واللهجات.

-اختيار نحوي على مستوى الأبنية اللسانية الخاضعة لقواعد نحوية، من هنا يمكن الحديث بإيجاز عن التواصل في الوعي البلاغي القديم، ممثلا في أنموذج الجاحظ كما رآه حمّادي صمّود.

ت- عناصر التواصل:

يلاحظ صمّود انتباه الجاحظ إلى أن الفعل اللغوي يقوم على عناصر رئيسة تمثل الحد الأدنى للبيان اللغوي، وهي: المتكلم، والسامع، والكلام، "ولئن لم نقف في

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٥٢٧.

(٢) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٨٧.

(٣) يُنظر: حسن ناظم، البنى الأسلوبية دراسة في أنشودة المطر للسياب، ص٥٩.

(٤) يُنظر: صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، (القاهرة: دار الشروق، ط١، ١٩٩٨م)، ص١٠٠–١٠٣.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

مؤلفاته على صياغة نظرية مباشرة لهذا الاعتبار، كما هو الشأن عند أرسطو مثلا، فإن كل تحليلاته اللغوية، ومقاييسه البلاغية، ترتكز على ما بين هذه العناصر من تلاحم وتفاعل"[١].

لقد وظف رومان جاكبسون (ت ١٩٨٢)[٢] هذه العناصر توظيفا كان مسبوقا بأبحاث متراكمة حول تحديد خصائص الخطاب الأدبي، في مقارنته بالخطاب العادي، فوجدت من المزالق التطبيقية ما وجدت، جراء إغفال العناصر المجاورة للخطاب، من هنا جاءت نظرية التواصل "تؤكد على أن ظروف المقال غير اللغوية؛ كالمتكلم والسامع، تقوم بدور هام في تحديد خصائص الخطاب، والكلام العادي... فالخطاب، كل خطاب، لا بد أن يقوم على اجتماع كل الوظائف، بما في ذلك الوظيفة الإبلاغية والشعرية"[٣]. والفرق بين خطاب وآخر، يبرز حسب الوظيفة المهيمنة؛ فالخطاب العادي تهيمن فيه الوظيفة الإبلاغية، والخطاب الأدبي تهيمن فيه الوظيفة الشعرية، ولا يعني ذلك بالضرورة انعدام إحدى الوظيفتين في خطاب ما.

إن هذه العناصر حاضرة في وعي الجاحظ وهو يؤسس نظريته في البيان، وعلى الرغم من ملاحظة صمّود "عدم التوازن" عند الجاحظ في الاهتمام بعناصر الخطاب؛ إذ لم يُولِ السامع أو المتلقي عناية كبيرة كما فعل في عنايته بالمتكلم، والخطاب نفسه، على الرغم من ذلك فعند صمّود "هو أول مفكر عربي نقف في تراثه

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٨٢.

(٢) يتشكل الجهاز التخاطبي في نظرية الإخبار عند جاكبسون في ستة عناصر، يؤدي كل عنصر منها وظيفة محددة، هي: المرسل، ووظيفته تعبيرية، والمرسل إليه، ووظيفته إفهامية، والرسالة، ووظيفتها إنشائية، وهي محتوى الإرسال، وتستند إلى سياق، ووظيفته مرجعية، وتقوم على سنن، وظيفتها معجمية، يشترك فيها طرفا الجهاز، وتربط المرسل بالمرسل إليه، قناة، هي أداة الاتصال، لها وظيفة انتباهية. يُنظر: عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ص١٢١.

(٣) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٨٤.

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

على نظرية متكاملة"[١]، تشير إلى أن الكلام ينجز في سياق خاص يجب أن تراعى فيه جملة من العوامل المتآزرة؛ لغوية وغير لغوية، منتهيا إلى أن جُلَّ المبادئ والتصورات والمقاييس الأسلوبية التي يوردها الجاحظ "مستمدة من هذا الأصل الذي يمثل -في نظرنا- العمود الفقري لنظريته"[٢].

ويعزو صمّود السبب في عدم تركيز الجاحظ على السامع، إلى أن دور الأخير لا يعدو كونه مستهلكا للنص، تكمن مهمته في "حسن الاستماع، والفهم، والاستجابة للقصد"[٣]، كما أن دوره لا يحده نموذج، أو نمط معين، "يمكن أن ينتمي إلى كل الأوساط الثقافية والاجتماعية؛ مما يجعل تحديد ملامحه أمرا صعبا"[٤]، وهذا ما أكده أحد الدارسين، محاولا استنباط العوامل التي تحكم عملية التلقي، منتهيا إلى أنه "حتى نعرف دور الذات في الحكم الجمالي، لا بد من الرجوع إلى أحكامه هو ذاته"[٥]، حتى وإن كانت هذه الأحكام ذاتية انطباعية، يستمدها مما تمليه عليه خلفيته المعرفية والجمالية، وبصورة أكثر دقة ومنهجية، تذهب دراسة إلى القول إن التفكير بنقل مجال الاهتمام أو التوجيه العام من المتكلم إلى القارئ، تتضح فيه جملة العوامل التي تؤكد وعي الجاحظ بدور المتلقي، "فإذا كان رواد نظرية التلقي قد حولوا الاهتمام من المؤلف إلى المتلقي، فإن الجاحظ قد عمل جاهدا لإيجاد هذا المتلقي، وإرضائه، ومن ثم إقامة علاقة صداقة معه"[٦]، ومعنى ذلك أن الجاحظ سلك مسلكا عمليا لا تنظيريا فيما يتعلق بدور المتلقي، وكأنه يسن سنه في الكتابة يترك فيها للمتلقي القيام بدوره،

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٨٥.

(٢) نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) نفسه، ص١٨٦.

(٤) نفسه، الصفحة نفسها.

(٥) أحمد غنام، فلسفة النقد عند الجاحظ، (سوريا: دار العراب، ٢٠١٩م)، ص١٢٩.

(٦) سميرة سلامي، إرهاصات نظرية التلقي في أدب الجاحظ، (اتحاد الكتاب العرب، مج٢٧، ع١٠٦، ٢٠٠٧م)، ص٢١٩.

رسالة الدكتوراه، الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

يظهر ذلك في نهجه في التأليف، واعتماده التلوين والتنويع؛ للترويح عن القارئ، "فإني أرى الأسماع تمل الأصوات المطربة، والأغاني الحسنة، والأوتار الفصيحة، إن طال ذلك عليها"(١)، وفي خلطه بين الجد والهزل، ودعوته القارئ إلى التثبت والإنصاف، والبعد عن الهوى، وتجنب التعصب لفكر ومذهب، وغير ذلك من المسالك التي سلكها هو في تأليفه.

وخلاصة القول في هذا أن مهمة المتلقي لا تتوقف عند الجاحظ على حسن الاستماع، بل للمتلقي دوره في تحقيق غاية البيان، ووظيفته التي يرومها الجاحظ، وهذا مستنبط من تعريف الجاحظ للبيان في قوله: "حتى يفضي السمع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"(٢).

أما **الكلام**، فهو عند صمّود "من أشد القضايا تشعبا، وأكثرها استعصاءً على الضبط في تراث الجاحظ"(٣)، فنوجز تصورات صمّود حول وظائف الكلام في المخطط الآتي:

(١) عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، ج٣، ص٧.

(٢) عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٨٢.

(٣) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٨٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

ويستنتج صمّود من هذه الوظائف، أن الوظيفة الأساسية هي الفهم والإفهام، وبدونها لا وجود للوظائف الأخرى، ثم سينتج عن هذه الوظيفة كل المقومات المتعلقة بالمتكلم. والملاحظ في تصور صمّود هذا، تركيزه على جنس الخطابة في المقام الأول، ثم خروجه عن الوظيفة الأسلوبية إلى المباحث البلاغية التي تركز على الخطابية، وفي صلب الخطابي يكمن الجمالي، وكان صمّود قد أدرك هذا التصور بعد تفكيكه لوظائف الخطاب عند الجاحظ، ثم اتصاله بالمباحث الحجاجية؛ فكل ما يحدث في تصاريف اللغة من أساليب، ليس مستدعًى للتحسين والزينة فحسب، "وإنما هو جزء من فعل يريد المتكلم أن يفعله في السمع، وقوة ضاربة من قوى الصورة على مستوى الإقناع"(١)، وسيشكل هذا الوعي منعرجًا في تفكير صمّود، ستكشف عنه الدراسة في المبحث القادم.

أما المتكلم، فالمقومات المتعلقة به -حسب صمّود- ثلاثة(٢):

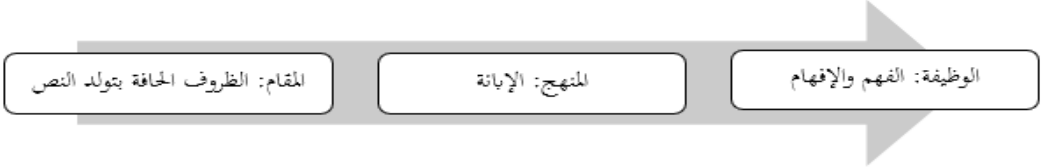

(١) حمّادي صمّود، حوار بعنوان البلاغة العربية وسؤال التجديد، ص١١٨.

(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٠١ وما بعدها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

تقتضي الوظيفة احتراما للسنن اللغوية المعروفة والمألوفة، ويقرب الجاحظ في هذا العنصر تحديدا بين أركان العملية التواصلية الأربعة؛ المتكلم، السامع، الخطاب، البنية والموضوع، ويضيف من وجهة عملية تطبيقية، مفهوم السنة؛ لأن التفاهم الحاص بين المتخاطبين يتأتى "من انتمائهما إلى سنة لغوية مشتركة، يتم بموجبها التكامل بين عمليتي تركيب الرموز من المتكلم، وتحليلها من طرف السامع"[١]، **ويقتضي المنهج** المتعلق بالإبانة، جملة المقولات البلاغية المتعلقة بالبيان، وذكر أهمها في إطار الحديث عن البيان، ومقتضيات المتكلم، **أما المقام** فيركز فيه على المقام الخَطابي؛ كونه أبرز المقامات التي اهتم بها الجاحظ، وهذا يعود إلى جملة الأسباب التي فصّل صمّود فيها القول عند مقتضيات الخطاب، والعلاقة التي تربط بين هذه الأطراف هي الوظائف: الإفهامية، وهي أصل كل وظيفة "إذ لا يتصور الجاحظ خطابا لغويا، مهما كان مستواه، لا يكون الفهم والإفهام قاعدته"[٢].

وتأكيدا على وعي الجاحظ بوجود المعجم الخاص بالمتكلم، يرى صمّود أن أصل هذا التصور يُبنَى على أن المتكلم لديه قدرة على تمثل اللغة، لكن هذه القدرة ليست مطلقةً، بمعنى أنها تأتي وفقا لمكتسباته ضمن البيئة الاجتماعية والثقافية التي ينتمي إليها، وبهذا فإن صورة الفكر واستعداد الفرد للفهم، لا يخرجان عن التجربة، ومفعول الزمن، وعليه، فإن عملية الفهم لا تتحقق إلا لمن فهم أصول الصناعة، كما يشير الجاحظ "والتعابير النموذجية التي قد ينفرد باستعمالها قوم من الأقوام، أو صناعة من الصناعات، كذلك الشعراء والكتاب، فتجدهم يقبلون على عبارات وألفاظ دون الألفاظ"[٣].

أما مقياس تحديد الجدول المعجمي الذي ينبغي على المتكلم مراعاته، فقد جعلت

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٠٢.

(٢) نفسه، ص٢٩٩.

(٣) نفسه، ص٢٠٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

البلاغة مكانه أن يأتي في منزلة وسطى بين طرفين، هما الغريب الوحشي، والساقط السوقي، وهذا ما أطلق عليه الجاحظ مفهوم (المقدار)، "وهو مفهوم نوعي، لا كمي، يقترب معناه مما نطلق عليه اليوم (السجل اللغوي)"(١)، ثم-إن السعي وراء المنزلة الوسطى، كان له أثره في توجيه بعض الأساليب اللغوية من قبيل الإيجاز والإطناب، وهذا يتجلى أولا في تعريف البلاغة بأنها: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل(٢)، ويلاحظ صمّود هنا جملة من الملاحظات لعل أهمها، أن البلاغة أصلا تقع بين طرفي الإيجاز والإطناب، وهو موقع يصفه بالظاهري، يعدل الجاحظ من حدته بنظريته في المقامات، فتصبح "الإطالة بموجبها: إيجازا، والإيجاز: حذف الفضول"(٣)؛ فالظرف المحيط بالموقف الكلامي هو المعول في تحديد البلاغة موافقةً للأسلوب الذي يتطلبه الموقف. وعليه، فلا يمكن تحديد قاعدة مطردة للحكم على أسلوب ما بجودة أو عدمها، دون مراعاة الظرف المحيط بالكلام(٤).

ث- ثنائية الطاقة التصريحية والطاقة الإيحائية:

تقرر الدراسات اللغوية أن في القول علاقات تقوم بين الكلمات في تسلسلها "تعتمد على خاصية اللغة الزمنية كخط مستقيم يستبعد فيه إمكانية النطق بعنصرين في وقت واحد، بل تتابع العناصر بعضها إثر الآخر"(٥)، وتتشكل في سلسلة كلامية متآلفة تسمى (العلاقات السياقية)، وتثير هذه الكلمات المستخدمة في العلاقة السياقية، كلماتٍ أخرى عن طريق التداعي والإيحاء، خارج سلسلة القول "لكنها تشترك معها في

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٨١.

(٢) يُنظر: عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٩٧.

(٣) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٨٧.

(٤) يُنظر: نفسه، ص٢٨٧.

(٥) صلاح فضل، علم الأسلوب والنظرية البنائية، (القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط١، ٢٠٠٧م)، ج٢، ص٣٥٢.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

علاقة ما بالذاكرة"[١]؛ فمقرها في ذهن الفرد؛ لذا فهي تختلف من فرد إلى آخر حسب مخزونه اللغوي، ويطلق على هذه العلاقات عند علماء اللغة (العلاقات الإيحائية).

والاعتماد على الطاقة التصريحية، ليس بالأمر المتواتر الذي يقصده المتكلم في كل حين، "فلئن اقتضى السعي إلى تحقيق وظيفة الفهم والإفهام، التصريح، فإن مقتضيات المقام والمواضعات الاجتماعية من ناحية، وأصول الاعتقاد الاعتزالي من جهة أخرى، استوجبت عند أبي عثمان، الإقرار بأهمية الطاقة الإيحائية في الظاهرة اللغوية"[٢].

والطاقة الإيحائية في الظاهرة اللغوية، هي سبب التأويل، ومن هنا "بنى الجاحظ احتجاجه لغزارة الدلالات في اللغة، وشرعية اختلاف المذاهب في التأويل، مع بقائها على أصول الشرع على تصور فلسفي كلامي.. يطابق فيه بين أصول اللغة، وأسس الدين والدنيا"[٣]، وتفسير هذا أن الله -جل وعلا- في قدرته أن يجعل كلام المرسلين بيّنًا لا يحتاج إلى تفسير، لكن اللغة كأمور (الدين والدنيا) "لم تدفع للناس على الكفاية.. والكفاية تعني سقوط البلوى والمحنة، وذهاب المسابقة والمنافسة"[٤]، وهذه الأمور هي مقاييس التفاضل بين الخلق في العبادات والمعاملات.

وعلى هذا المنوال فقد فسر البلاغيون والنقاد، تأثير القول الأدبي بقدرته على تحريك واستنفار كل الطاقات اللغوية الكامنة، والتعويل في أداء المعاني على الإيحاء، وترك التصريح، ويؤكد صمّود أن بلاغة الإيجاز والحذف التي تضمنتها الآثار البلاغية، سياقات متضافرة تؤكد وعي البلاغيين بهذه الثنائية، ومن ذلك تصورهم "أن الإيحاء يوسع مجال التأويل أمام المتلقي، ويجعل الوهم يذهب في فهم النص كل

(١) نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٧٧.

(٣) نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) نفسه، ص٢٨٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

مذهب، حتى لكأن عملية القراءة تنقلب إلى ضرب من الاستبطان الذاتي، وإذ ذاك تصبح لغة النص مجرد قادح تتداعى له المعاني في النفس، وتصبح دلالتها غائبةً، لا تقل شأنا عن دلالتها حاضرةً"[١]، مركزا على إبراز المزالق التي واجهها النقاد والبلاغيون إثر الفصل بين اللفظ والمعنى، أو بتعبير صمّود (بنية النص الخارجية وبنيته الداخلية)، وجد في تلك المواقف شيئا من المغالاة التي يشوبها التردد، ذلك أن فريقا فهم مقولة الجاحظ (المعاني المطروحة في الطريق) على ظاهرها، فدافع عن اللفظ المفرد، والشكل، باعتبارهما جوهر البلاغة. وفريق آخر قلل من شأن الصياغة، وربط البلاغة بحركية المعاني، وانسجامها مع العقل، وتعامل مع البنية اللغوية على أنها انعكاس للمعاني[٢].

ج- العدول: من المستوى المثالي إلى المستوى المنحرف[٣]:

يقرر صمّود ابتداءً، احتواء النظرية الأدبية عند العرب على وجوه "الطرافة

(١) نفسه، ص٥٥٢.

(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٥٣٥.

(٣) عقد عبد الحكيم راضي في كتابه نظرية اللغة في النقد العربي، فصلا عن المثالي والمنحرف، يُعَدُّ من أعمق الدراسات التي عالجت مفهوم العدول في التراث اللغوي والنقدي والبلاغي، بُني الفصل على فكرة مؤداها: أن اللغويين والبلاغين والنقاد الأوائل، كانوا على وعي عميق بقيام اللغة الأدبية على الانحراف عن النمط المثالي، إلى الحد الذي التقت فيه الأساليب البلاغية مع ما سُمِّي بالضرورات الشعرية، ومع كل خروج عن القاعدة المطردة التي أقرها اللغويون. يُنظر: عبد الحكيم راضي، نظرية اللغة في النقد العربي، ص١٩٣ وما بعدها، والمهم الذي ترومه الدراسة في هذا المحور، هو التنبيه على استفادة صمّود من هذا المفهوم الأسلوبي، وتفعيله في تدعيم تحيزاته المنهجية، وتركيبه في صلب المشروع القرائي؛ ليسد ثغرة اعتقد وجودها الدارسون المعاصرون، تتعلق بتشريعية وتعليمية المباحث البلاغية، في حين أن التأكيد على وعي البلاغيين بالمبدأ العدولي -وهو المبدأ الأثير في التحليل الأسلوبي- يدل على أن البلاغة لها قدرة تشخيصية ووصفية أيضا كما عرفت الأسلوبيات اللسانية بهذه النزعة.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

والحداثة الشيء الكثير"[١]، وتتجلى هذه الطرافة في تمييز العرب بين الكلام الأدبي، وصنوف الكلام الأخرى، وتمثل ذلك من خلال جملة من المصطلحات التي تدل بجلاء على أن الأدب إنما يستمد خصائصه من خروجه في توظيف اللغة عن الأنماط المألوفة في الكلام العادي.

وهذا يعني أن اللغة على مستويين؛ مستوى يجري فيه المستعمل على العادة والعرف، ويحترم أصول المواضعة، عبروا عنه بـ (الاحتذاء)، ومستوى يتصرف فيه المستعمل في المواضعات، ويجري اللغة حسب مقاصده، عبروا عنه بـ (الإنشاء)، "وبالمقارنة بين هذين المستويين، اكتشفوا ذلك الوقت مفهوما يعتبر من دعائم الأسلوبية اليوم.. وقد أشاروا إليه بوضوح في مصطلحات من قبيل (الخروج، أو العدول، أو التغيير)"[٢]، وعلى هذا التصور فقد فهم البلاغيون أن اللغة الأدبية تتميز عن اللغة العادية بكونها تخرج عن الوضع اللغوي المألوف، إلى أوضاع مبتدعة، وأنماط غير مسلوكة، لا يصل المتلقي إلى المعنى إلا بواسطة. ورأى صمّود أن هذه الاعتبارات بلغت ذروتها في الوقت الذي ربط فيه البلاغيون "نشوء الشعرية بالتصرف في اللغة على غير الأصل، وبخلق سنة جديدة تنضاف إلى السنة الأولى؛ إذ البلاغة لا تكون إلا بتراكب السنن"[٣].

وفي إطار معالجة صمّود لمرحلة استقلال التأليف البلاغي، ذكر أن لابن قتيبة محاولة جادة لها أهميتها في تطوير البحث البلاغي؛ فقد أدرك الأخير في وقت مبكر تفرد الأدب بطرق خاصة في الأداء، "وهو مظهر لا يخلو من الطرافة؛ لأنه يفصل بين مدلول العبارة في اللغة، ومدلولها في الشعر، ويحمل المعنى على غير ما تقتضيه الدلالة الوضعية المنطقية، وهو بهذا الصنيع يساهم في تأسيس منطق للشعر يغاير

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٣٩٦.

(٢) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٥٤٩.

(٣) نفسه، ص٥٤٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المنطق الصوري"[١]، خروجا يصل باللغة إلى التعبير عن الانفعالات النفسية، ورغبات المتكلم المتوارية في نفسه خلف لغته.

ويهمنا من هذه المعالجة، إيجاز طريف يقدمه صمّود لمسألة التأويل عند ابن قتيبة؛ حيث يربطها بالبحث الأسلوبي، ومراد ذلك أن التأويل في تعامل ابن قتيبة، يتصل بإعادة الأنماط اللغوية الظاهرة أو السطحية، إلى أنماط عميقة أصلية تكشف عن المعنى بالدلالة الوضعية، ثم يبين أن الخروج عن مألوف العبارة لا يغير من ذات المعنى "وإنما هو معنى إضافي يتركب على المعنى الأصلي، ومن هنا برزت ضرورة تزامن وصف الأشكال الأصلية، والأشكال المعدولة، والبحث في كل مرة عن المصطلح الملائم لنوع العدول، أو الخروج، وتعليقه بمعنى من المعاني"[٢].

والطريف في معالجة صمّود هذه، إيجازه لتصور العدول في أربع مراحل[٣] نعيد تشكيلها بدءا من أعلى درجات الكلام، وهو الإعجاز، إلى المستوى الأدنى من الاستعمال اللغوي، وهو المستوى التواصلي، ويأتي ذلك على النحو الآتي:

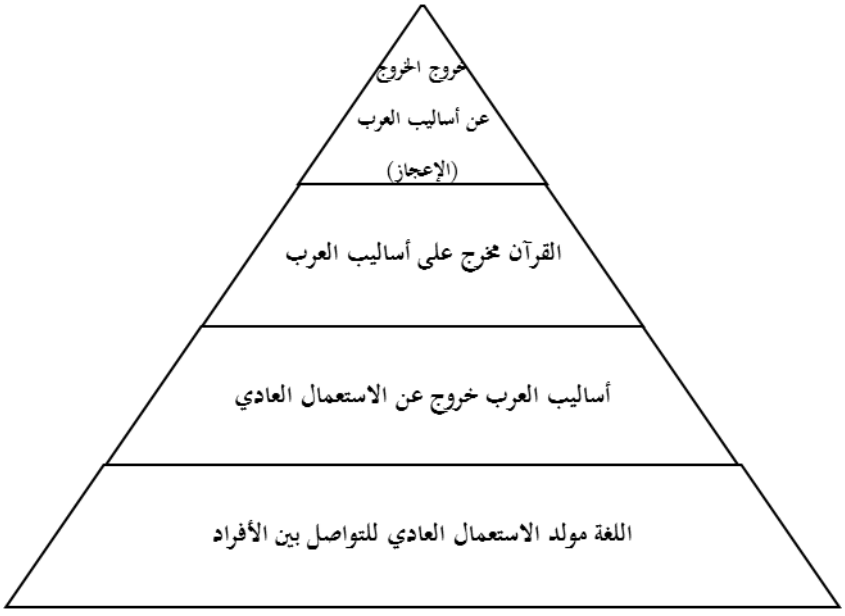

(١) نفسه، ص٣٢٤.

(٢) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٣٢٩.

(٣) يُنظر: نفسه، ص٣٣١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

وهكذا نجد أن اللغة في المستوى التواصلي، تحتل أول درجات الهرم، وأوسع قاعدة؛ حيث تنضوي تحتها مجمل الاستعمالات اللغوية العامة، تتلوها وتعلوها منزلة اللغة الخاصة، التي تعدل عن المستوى التواصلي المألوف إلى مستوى آخر، ثم تأتي لغة القرآن؛ فهو "وإن خرج عن مألوف الكلام، فهو ليس خارجا عن أساليب العرب"(١)، وتعلوها مرتبة مساحة خاصة؛ للخروج على الخروج، هذه القمة التي تمثل الإعجاز القرآني.

وعليه، يمكن القول إن المعرفة بهذه الطبقات في الكلام، معرفة ضرورية؛ "حتى ينتهي بك العلم إلى أن تعرف أقصى الطاقة الإنسانية، أعني الكلام الذي يمثل أقصى الطاقة، ولا يتجاوزه لسان البشر، ثم تعرف بعد ذلك ما هو فرق ذلك الذي هو كلام الله"(٢).

وعلى هذا، يقرر صمّود أن كثيرا من تصورات البلاغيين في القرن الخامس، تؤكد خروج القرآن عن الكلام المألوف، ولكنه في الوقت ذاته ليس بخارج عن أساليب العرب، بل إن هذه النتيجة أصبحت تمثل قناعةً في كل المحاولات البلاغية التي رامت البحث في وجه الإعجاز. ويفسر صمّود إصرار البلاغيين على هذه المقولة، أنها تخدم الدرس البلاغي من ناحيتين(٣)؛ تكمن الأولى في أنها تخدم تصورات البلاغيين في قضية الإعجاز، أما الثانية ففي عَدِّها مخرجا للآيات القرآنية التي تخرج عن المواضعة العامة للكلام العربي، إلى مواضعة أخرى خاصة، هذه المواضعة عنده تمتد إلى كل الأساليب الجديدة التي تتراكم فتصبح بمنزلة السنة الكلامية الخاصة التي تنضاف إلى سنة لغوية عامة.

من هنا أخذ البلاغيون والنقاد إلى القرن السادس يبحثون عن معيار يعول عليه؛

(١) نفسه، ص٣٣١.

(٢) محمد أبو موسى، مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، ص٢٧.

(٣) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٣٣١,

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

لمعرفة مدى ضبط مظاهر الخروج؛ "ليكون للمصطلح مضمون فِعْلِيٌّ يساعد على إخراج دراسة الأدب عن محض الانطباع والتذوق الشخصي"(١)، ووجد صمّود في تتبعه للمباحث اللغوية والبلاغية من بعد الجاحظ إلى القرن السادس، المصطلحات التي وضعها البلاغيون في وصف الكلام الأدبي، وأبرز ما ذكر:

-**العدول** عند ابن جني في إطار حديثه عن المعاني التي يعدل من أجلها من الحقيقة إلى المجاز، وهي الاتساع، والتوكيد، والتشبيه.

ويورد صمّود مستشهدا، حديث ابن جني في خصائصه عن قول النبي ﷺ عن الفرس: هو بحر(٢)، ويتسع الحديث عن مبحث العدول في فكر ابن جني، الذي اشتغل على مظاهر متعددة للانحراف بالدلالة الحقيقية، إلى دلالات مجازية، "وقدم - لمن جاء بعده - مادَّة جيدة للبحث الأسلوبي في مسألة الدلالة المجازية في بابه المعروف بشجاعة العربية، كما وسع دائرة العدول، لتشمل الخطاب الأدبي، دون مراعاة لاختلاف أجناسه، فذهب إلى أن العدول في الشعر ليس من الاضطرار، وإنما الدافع إليه رغبة الشاعر في التعبير المبني على الاختيار"(٣)، وهذا ما سبق إليه عبدالحكيم

---

(١) نفسه، ص٤٠٢.

(٢) يقول صاحب الخصائص: فمن ذلك قول النبي ﷺ في الفَرَس: (هو بحر)؛ فالمعاني الثلاثة موجودة فيه، أما الاتساع، فلأنه زاد في أسماء الفرس التي هي: فرس، وطرف، وجواد، ونحوها البحر، حتى إنه إن احتيج إليه في شعر أو سجع أو اتساع، استعمل استعمال بقية تلك الأسماء، لكن لا يفضي إلى ذلك إلا بقرينة تسقط الشبه... وأما التشبيه فلأن جريه يجري في الكثرة مجرى مائه، أما التوكيد فلأنه شبه العرض بالجوهر، وهو أثبت في النفوس منه، والشبه في العرض منتفية عنه، ألا ترى أن من الناس من دفع الأعراض، وليس أحد دفع الجواهر". أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، ج٢، ص٤٤٥.

(٣) عيد محمد شبايك، استثمار الأسلوب العدولي في تذوق النص القرآني، (مكتبة فلسطين للكتب المصورة، ٢٠١٦م)، ص١٦.

ويدل على أن العدول عند ابن جني في الشعر ليس من باب الاضطرار، قوله: "فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها، وانخراق الأصول بها، فاعلم أنَّ ذلك على ⇦=

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

راضي في أن إدراك العرب لتخطي الأصل، والانحراف عنه في المجاز، هو الذي جعلهم يربطون بينه وبين صفة الإقدام، والجرأة، أي شجاعة العربية، منذ الجاحظ الذي أدرك أنه للعرب "إقدام على الكلام؛ ثقة بفهم أصحابهم عنهم"(١)، وهي فكرة "طورها ابن جني، وأحكم الربط بينها وبين الانحراف عن النمط المألوف، وذلك في حديثه عما سماه شجاعة العربية، التي يندرج كثير من مظاهرها ضمن المجاز"(٢).

ولا يخفى أيضا وعي ابن جني بالعدول في مختلف مستويات اللغة؛ الصرفية منها والتركيبية، وإذا كان ابن جني يحسب على اللغويين، واللغويون -كما قرر عبدالحكيم راضي- يهمهم بالدرجة الأولى المستوى المثالي من اللغة، أي اللغة في مستواها العادي، فقد كان واضحا عند ابن جني بما حمل من فكر بلاغي وعيه "بالمقابلة بين الصورة البليغة، وبين الأصل المثالي الذي انحرفت عنه هذه الصورة"(٣)، ويؤكد راضي أيضا أن ابن جني ومن قبله من النقاد والبلاغيين، لم يتجاهلوا منحنى الانحراف عن الأصل المثالي، "وإن كان ابن جني قد قطع خطوات أبعد بالنسبة لسواه، حتى اللاحقين منهم في الطريق إلى تبين أبعاد جديدة لهذا الانحراف"(٤).

على الرغم مما ذُكر، فإن صمّودا يقتصر على إيراد ما يدخل عند ابن جني في

= ما جَشِمَهُ منه وإن دل من وجه على جَوْرِه وتعسُّفه؛ فإنه من وجه آخر مؤْذِن بصياله، وتخمُّطه، وليس دليلًا على ضعف لغته، ولا قصورًا عن اختيار الوجه الناطق بفصاحته، بل مَثَلُهُ في ذلك عندي مَثَلُ مُجْرِي الجَمُوح بلا لجام، ووارد الحرب الضَّروس حاسرًا من غير احتشام، فهو وإن كان مَلُومًا في عنفه وتهالكه، فإنَّه مشهود له بشجاعته، وفيض مُنَّتِه". أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، ج٢، ص٣٩٤.

(١) عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، ج٥، ص١٦.

(٢) عبد الحكيم راضي، نظرية اللغة في النقد العربي، ص٢٤٤.

(٣) عبد الحكيم راضي، نظرية اللغة في النقد العربي، ص٢١١.

(٤) نفسه، ص٢٢٦.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

باب المجاز، ليأتي منسجما مع خطة مشروعه في إطار حديثه عن المفاهيم التي تمثل في نظره قمة الاستخلاص النظري الناتج عن معرفة ماهية العلم، وعن الجهد الذي بذله البلاغيون في إيجاد أدوات إجرائية مبنية على دقة الأبعاد الأصولية التي تأسس عليها الدرس البلاغي، مستثمرا هذه المقولات في إعادة صياغة ما يتناسب منها والتصورات الأسلوبية.

ويلتفت صمّود إلى العدول عند عبدالقاهر الجرجاني في معرض حديثه عن الإظهار والإضمار، والحسن الناتج عن الحذف أو الذكر، "فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانا إذا لم تُبِنْ"(١)، ويخص صمّود بالذكر تحليل عبدالقاهر لإظهار مفعول المشيئة، "وقد يتفق في بعضه أن يكون إظهار المفعول هو الأحسن"(٢)؛ لأنه صرح بلفظ العدول في قوله: "ولكنه كأنه ترك تلك الطريقة، وعدل إلى هذه"(٣)، ومع أن عبدالقاهر لم يحدّد في هذا المبحث معيارا دقيقا، بل كان يستنطق من كل شاهد يطرحه، قاعدته، ويجتهد في استكشاف العنصر الذي يكون فيه النشاط العقلي، وهذا العنصر -كما ذكر محمد أبو موسى- "لا بد أن يكون قابلا للتغيير، والتبديل، والتعديل، والتحوير، وأن تكون إمكاناته في هذا التغيير والتشكيل، لا حدود لها؛ لأنه هو الذي تعمل فيه ألسنة المتكلمين جميعا.. ولا يلتقي عليه لسانان، وإنما كل لسان له طريقته، ومذهبه، وهذا العنصر يمدها كلها بما تشاء من تباين وتغاير"(٤)، قلت: ومع ذلك فإن عبدالقاهر ميز بشكل صريح وجلي بين الوجهين "المثالي والمنحرف" عند طريق العدول، حتى لو لم يذكره بلفظه في كثير من

(١) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٤٦.

(٢) نفسه، ص١٦٤.

(٣) نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) محمد محمد أبو موسى، مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، ص٥٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

تصوراته التي لا يتسع المقام لبيانها.

ومن تلك الاصطلاحات التي تدل على العدول والانتقال من الكلام العادي إلى الكلام الأدبي، ما جاء في المدونة البلاغية التي حددها صمّود في صورة مقابلات بين:

-القول الشعري، والقول الحقيقي.

-حد البلاغة، والكلام الغفل.

-الكلام الذي فيه ضروب المجاز، والكلام العريان(١).

❑ الوجه والقفا: المقامة من منظور أسلوبي:

جاء الحديث عن المقامة عرضيا؛ فقد عدها صمّود -كما أشار بنفسه- محاولة لرد النثر إلى الشعر أسلوب كتابة في إطار ما أطلق عليه (التدافع بين النثر والشعر في تاريخ الكتابة العربية). يقول صمّود إن أصل هذا التدافع ناجم عن التحولات العميقة التي طرأت على البنية الثقافية العربية في أواخر القرن الثاني، ومطلع القرن الثالث(٢)، وإن كانت هذه الأنماط تحمل في ظاهرها شكلا أدبيا.

وقد خصّ صمّود المقامة بقراءة أسلوبية(٣)، مستعينا بمقولات الأسلوبية التعبيرية؛ لأن بروز المقامة كان "بدعة أدبية"(٤)، تتجلى في هذه البدعة أبرز أشكال الخروج عن المألوف. ثم إن الدراسات السابقة وعلى الرغم من اختلاف مرتكزاتها

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٣٩٨ وما بعدها.

(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، ضمن حوار مناهج دراسة الأدب مكسب معرفي والنقد الثقافي تنويع على النقد الإيديولوجي، (الرياض: النادي الأدبي، مجلة حقول، ع٩، ٢٠١٠م)، ص١١٣.

(٣) الجزء التطبيقي الذي خصصه صمّود للمقامة في كتابه الوجه والقفا، هو خلاصة درس ألقاه عام (١٩٨٢/ ١٩٨٣م) بباريس على طلبة التبريز في اللغة والآداب العربية بدار المعلمين العليا.

(٤) حمّادي صمّود، الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة، ص٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

النظريـة، وآلياتهـا التطبيقيـة، لـم تـتمكن مـن سـد الْهُـوَّة الفاصـلة بـين المقامـة، وبقيـة النصوص التي لها صلة بها، والسبب في ذلك عند صمّود، هو نقص أدوات المعالجـة، وضعف الزاد النظري في قضية نشأة الأجناس الأدبية. ولا يدعي صمّود مقدرته علـى سد هذه الفجوة، إنما تكمن محاولته فـي دراسـة خصـائص الجملـة الأدبيـة(١) فـي نـص المقامة، ولا يعني هنا الخصائص التركيبية المعروفة فـي البحـث البلاغـي، بـل يقصـد بها "القوانين الكلية التي متى حكمت في إنتاج نـص مـن النصـوص ولـدت أدبيتـه"(٢)، مسـتعيرا هـذه المفـاهيم مـن مايكـل ريفـاتير (ت٢٠٠٦)، فـي نمـاذج الجملـة الأدبيـة؛ فموضوع الدراسة الأسـلوبية عنـد ريفـاتير هـو الـنص الأدبـي الراقـي، ويحـدد الـنص الأدبي جعله ضربا من التواصل، وجنسا من الإخبـار، يركـب فيـه صـاحبه خصـائص شكلية معينة توصل المتلقي إلـى قـدر مـن الانفعـال يقـرره الكاتـب، والأسـلوب حسـب

(١) تستحضر الدراسة في هذا السياق، محـاورة دقيقـة حـول اهتمـام الأسـلوبية بالجملـة، أم بالقطعـة الأدبية كاملة، نورد جزءا منها لأهميتها، وصـلتها الوثيقـة بتصـورات صـمّود الأسـلوبية. يقـول سعد مصلوح في معالجته لمشكل العلاقة بين البلاغة والأسلوبية، إن البلاغة العربية قامت علـى الجملة، والأسلوبيات اللسانية ينبغي أن تقوم على النص، يطرح صمّود هنا سؤالا يحمل ضـمنيا إجابته، وهو "هل الأسلوبيات استطاعت أن تقوم على النص؟" ويجيب مصـلوح أنـه انتهـى فـي بحثه إلى أن "توظيف البلاغة القديمة داخل المبحث الأسلوبي، لا يقع في الأبعاد الإبستمولوجية، وإنما يقع في الإجراءات البحثية"، وفـي السـياق ذاتـه يـذكر شـكري عيـاد أن "أهـم مـن قصـدوا الأسلوبية وصنفوها وأعطوها شكلا أقرب ما يكون إلى المدرسة، هم الأسـلوبيون الفرنسـيون... فهم يبدؤون من الحروف (الأصوات)، وينتقلون إلى الكلمات، ثم إلى التركيب، وينتهـون أخيـرا إلى الفقرة، أو القطعة. ويرد صمّود هذا المتصـوّر؛ لأنـه "لا يصـدق فـي المدرسـة الفرنسـية إلا على المحاولة الأولى فقط، محاولة شارل بـالي، وقـد انتقدت هـذه المحاولـة بأنهـا سـقطت فيمـا سقطت فيه البلاغة العربية، وهـذا يعنـي أن مـن جـاء بعـده قـد تخلـص مـن هـذه المسـألة. سـعد مصلوح، تعقيب على مداخلات حول: مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسـلوبيات اللسـانية، ضمن أعمال ندوة: قراءة جديدة لتراثنا النقدي، ص٨٧٥.

(٢) حمّادي صمّود، الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة، ص١٥.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

ريفاتير "كل شكل مكتوب علق به صاحبه مقاصد أدبية"[١]، وفي تطبيق أسلوبية ريفاتير على المقامة، يلاحظ صمّود ارتكازها على مبدأين:

١- التواتر والعودة: يتعلق هذا المبدأ بوجود عناصر ثابتة في النص، تمثل بنى أساسية لا يمكن بناء النص دونها، ومن أبرز هذه العناصر: (العنوان، المزج بين الشعر والنثر، التزام السجع، التكلف في اختيار العبارة، رواية في مجلس، حديث مسند، شخصية أساسية، واقعة في الغالب تدور حول الكدية، شكوى الدهر وكثرة العبارات الوعظية).

٢- الحركة والتحول: يُعنَى هذا المبدأ بمظاهر التبدل والتغير التي تطرأ على بنية المقامة؛ فهي وإن بدت بنية ثابتة مستقرة، فإنها "تؤسس بالمؤتلف المختلف، وتصرف متشابه القسمات ألوانا من التصريف تولد من المفرد جمعا، ومن الأصل الواحد أنواعا"[٢]، ويتم التحول في تلك البنى الملزمة التي افترضها صمّود، إن كان في بنية الراوي، أو في الخروج عن المزاوجة بين الشعر والنثر إلى "القول الشعري"، أو في الاستعارات التي تتحرك من خلالها الشخصية من حال إلى حال، أو في تحول مفهوم القيمة المادية من الكدية إلى مظاهر الجشع والزهو[٣]، وكل هذه التحولات والانتقالات تمثل شكلا صريحا من أشكال العدول الأسلوبي.

وفي القراءة المقترحة، نراه تارةً يربط بنية النص من خلال العنوان، والافتتاح بالأرضية الفكرية والعقائدية، التي تأسس عليها ذلك النص[٤]، وتارةً أخرى يربط الانعراج المفاجئ في بنية النص بالأوضاع المجتمعية، وبالنواميس المتحكمة في

(١) نفسه، ص٩٣.

(٢) نفسه، ص٢٠.

(٣) يُنظر: نفسه، ص٢٢ وما بعدها.

(٤) يُنظر: حمّادي صمّود، الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة، ص٣٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

علاقات أفراد المجتمع بين مختلف طبقاته، تجمعهم المنفعة المادية[١]. وينتهي صمّود في رصد مظاهر التواتر والتحول، إلى أن هذه المراوحات تشير إلى "صورة لتدافع التيارات في صلب المجتمع، وإشارة إلى أن ذلك المجتمع كان مقبلا على تحولات نوعية عميقة، تشي بمظاهر اجتماعية جديدة"[٢].

وهكذا، فالأسلوبية حسب صمّود، تقوم بدور المنبه والحافز فحسب؛ وليس من الإنصاف مطالبتها أن تسبر كل الأغوار التي تحجب عنا الأدبية، وعنده أن أهم ما فيها "أنها أقضت مضاجع النقاد.. وشككتهم في كثير من المسلمات المنهجية وحفزتهم بالتالي على تجاوز قصور هذه المناهج التي كانوا يعتقدون في حكمتها وصلاحها"[٣].

إن هذه الممارسة التي أكد صاحبها في غير موضع أنها مقترحة، يمكن جعلها قراءة تفاعلية[٤]، تمت ضمن سياق ثقافي معين، متأثرة بالعديد من العوامل الذاتية والموضوعية، وجهت القارئ -وهو هنا حمّادي صمّود- نحو نمط معين من أنماط التحليل والمعالجة. أسفرت هذه القراءة عن كفايات القارئ من أحدث طرق تحليل النصوص الأدبية؛ حيث جمعت بين النصي الذي ينطلق من بنية صغرى إلى بنية دلالية كبرى، تمثلت الأولى في انطلاقه من قراءة عنوان المقامة التي تحمل اسم (المضيرية)، والثانية في ربطها بالوضع الاجتماعي والطبقي الذي يعيشه مبدع النص، وبين النموذج الذاتي الذي يعني دخول القارئ إلى عالم النص، وهو مزود بمعارف متعددة تمكِّنه من القيام بعملية حوارية وتفاعلية مع النص، تجلت هذه المعارف في المكتسبات البنيوية، وفي الخلفية الثقافية، والأدبية، والتاريخية، التي

(١) يُنظر: نفسه، ص٤٩.

(٢) نفسه، ص٣٥.

(٣) حمّادي صمّود، في نظرية الأدب عند العرب، ص١٩٨.

(٤) يُنظر: حميد سمير، شعرية التواصل في التراث الأدبي تنظير وتطبيق، (جدة: النادي الأدبي الثقافي، ط١، ١٤٣٠هـ)، ص٢٥.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

يمتلكها حمّادي صمّود.

وهكذا، يمكن القول كما ذهب جابر عصفور، إن هذا المشروع القرائي يحتفظ "بما يصله بالمنظور التاريخي... في تنافره مع النمطين الاستعادي والإسقاطي للقراءة، ولكنه الوصل الذي سرعان ما ينقطع؛ ليتأكد حضور القارئ، في حدث اتصال فعال، يثبت -إلى جانب دور الباث أو مرسل الرسالة- دور المستقبل لهذه الرسالة، ومِن ثَم دور القارئ المعاصر، في عملية تجعل الهدف من القراءة مرهونا بغائية المشروع البنيوي كله"(١).

والذي تصل إليه الدراسة هنا، هو القول إن صمّودا استطاع -رغم وعورة المسلك الذي سلكه- بالاستعانة بمفاهيم ومكتسبات الإنشائية البنيوية، أن يفتح بابا للمساءلة، ويشرع طريقا لتجديد النظر من خلال أبواب مهمة "يفضي كل واحد منها إلى آخر، بعد أن غلقت الأبواب أو شبه ذلك لمن كان يكتفي من الدارسين للتراث، بأدوات من التراث"(٢)، تشهد لذلك جملة الدراسات والأبحاث الأكاديمية التي انطلقت مما طرح صمّود، مزاوجا بين المسلكين البلاغي التراثي، والأسلوبي المعاصر، إن كان على مستوى التنظير، أو على مستوى التطبيق، أو من باب المساءلة، والقراءة على القراءة.

(١) جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص٤١.

(٢) شكري المبخوت، حمّادي صمّود، تجديد البلاغة وتأصيل الإنشائية ضمن كتاب أعمال مهداة إلى الأستاذ حمّادي صمّود، ص٢٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المبحث الثالث

تحولات المنهج في مقولات القراءة الحجاجية والانفتاح على تحليل الخطاب

أسلفت الدراسة القول في الخلفيات الفكرية والمنهجية التي بُنيت عليها القراءة الحجاجية في خطاب صمّود، ولا يخفى أن هذه الخلفيات والمرجعيات، ستخرج في صورة منهجية منظَّمة تقوم على علل، ولأجل غايات، وتتعامل مع وسائل، وأدوات، وتقنيات، استعان بها صمّود قارئا للتراث البلاغي، لا ينفصل عن مقولاته الأساسية، ورؤاه المعرفية، مؤكدا في كل مرة الوظيفة التي بنيت عليها البلاغة العربية، وهي المرتبطة بالفهم والإفهام، ومحققا للمبدأ الأثير الذي وضعه نصب عينيه منذ بداية مشروعه الممثل في تلازم التراث والحداثة، يأتي هذا المبحث؛ ليجلي التحول المنهجي في خطاب صمّود البلاغي والنقدي، ويظهر هنا في الانتقال من المقاربات الأسلوبية والإنشائية المتولدة عن المنهجية البنيوية واللسانية، إلى التصورات الحجاجية والخِطابية التي اتخذت من إعادة النظر في التراث البلاغي في شقيه الغربي والعربي، مرتكزا نظريا، وتطبيقيا، دون الانفصال عن علوم اللسان والإنسان، التي تأسست في عصر النهضة.

❑ أولاً: السياق المعرفي لبلاغة الحجاج:

في خضم تجدد التيارات وتصارعها، ونفيها فرضيات بعضها، عرفت الثقافة انفجارا معرفيا جديدا وقديما في الآن ذاته، شكك في كثير من المسلمات التي روجتها الأسلوبية الإنشائية، وطرحت استدراكا على ذلك فرضيات أخرى، على أساس أنها أكثر نجاعةً وقدرةً على الكشف عن حقيقة الكلام الذي يتداوله الناس فيما بينهم، ويجمل صمّود هذه الفرضيات فيما يأتي:

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

١- بطلان حيادية الفعل اللغوي، حتى وإن كان غرضه التواصل، وهذا يعني أنه يحمل معنى ثانيًا متضمنًا في المعنى الأول، يكون الكشف عنه بالتأويل والاستدلال، "وبهذا تتعطل الثنائيات التي تحكمت في تصورنا اللغة منذ عهد بعيد؛ ثنائية الكلام العادي، والكلام الأدبي مثلا، وثنائية الحقيقة والمجاز"(١).

٢- اللغة سلسلة متتابعة، واسترسال تجتمع في كل قطعة من قطعه جميع الوظائف التي تؤديها اللغة؛ لهذا تبطل فكرة المستويات المنفصلة التي يؤدي فيها كل مستوى وظيفة معينة، ثم إن هيمنة وظيفة دون الأخرى "رهين كيفية تضافر العناصر المعنية بالفعل اللغوي"(٢).

٣- اللغة تمتلك سلطة، وهي مجمع رغبات، يهدف المتعاملون معها "إلى السيطرة، واحتلال المواقع، والظهور على الخصم، وحمله على الفعل"(٣).

بناءً على هذه المعطيات، تظهر المعالجة البلاغية الجديدة التي تروم إحياء البلاغة الغربية ضمن توجهات التيار الذي يسعى أصحابه إلى إعادة النظر في الخطابة اليونانية من منظور جديد، يحل المشكلات الاختزالية التي عانتها البلاغة، يبغي الإعلاء من قيمة الخطابة، وإعادتها إلى شكلها الأرسطي قبل اختزالها في باب العبارة، وانتزاع مبحث إعداد الحجج، ويسمي الدارسون هذه العملية بالإحيائية، حيث اتخذت بعدين:

الأول: موضوعه بلاغة الصور، وهو بعد يعمل على تكريس ما انتهت إليه البلاغة قبل موتها، وتركز اهتمامه على الوجوه البلاغية، وإعادة قراءتها، ضمن المكتسبات اللسانية الحديثة، وقام بهذا العمل أعلام، منهم رومان جاكبسون، وجماعة مو، وجان كوهن.

---

(١) حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص٧٥.

(٢) نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) نفسه، الصفحة نفسها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الثاني: ما سُمِّي ببلاغة الحجاج، وهو بعد أعاد النظر في الخطابة اليونانية والأرسطية منها على وجه الخصوص، من حيث هي دراسة لوسائل الإقناع، وجمع هذا البعد في تصوراته بين الجدل الأرسطي والخطابة؛ لصياغة نظرية حجاجية أطلق عليها الخطابة الجديدة. وارتبط بأعمال شاييم بيرلمان الذي هاجر إلى بلجيكا سنة (١٩٢٥)[١]. مركزا على الوظيفة الإقناعية بعدّها الركن الجوهري في الخطابة، الذي لا يعوّل على التحسين والمعرض الأنيق، بقدر تعويله على المناسبة، ثم ترتيبها، وما ينضوي تحت هذه الآليات من أفكار وتصورات يعيد قراءتها، ويقلب النظر في مفاهيمها؛ بغية التفاعل معها. ظهر هذا الحراك الذي شهده الإرث الخطابي اليوناني، في صورة تكشف عن تعدد وجهات النظر، وتجدد الأسئلة والرهانات[٢]، وإكساب

(١) يذكر محمد العمري في هذا السياق، أن بداية التحقيق والتدقيق في مجال التداول والحجاج، ونظرية الأدب وعلم النص، واكتشاف أهمية الخطابات الاحتمالية المؤثرة في البلاغة القديمة، تتمثل في مجهودات أعلام تحليل الخطاب الأربعة، وهم: عالم المنطق شاييم بيرلمان، وفي النقد الأدبي تودروف وتيري إيكلتوم، وفي اللسانيات فان ديك الأول، ويشير إلى بيرلمان رائد المدرسة المنطقية، الذي لاحظ أن في بلاغة أرسطو ما يتفق مع منطق القيم الذي يبحث عنه، فتمثل دوره في غربلة البلاغة الأرسطية حسب مراده في منطق الحجاج. يُنظر: محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص١٥.

وأساس ذلك عند بيرلمان تفكيره في القاعدة الصورية التي توصل إليها، ومفادها أن: (الكائنات المنتمية إلى فئة أساس واحدة، ينبغي أن تعامل بطريقة واحدة)، وحتى يتمكن من الاستدلال في مجال القيم، أخذ يبحث عن منطق للقيمة، فوجد أن الطريقة الأكثر نجاعةً تكمن في "تجديد المنطق الصوري، منظورا إليه باعتباره منطقا إجرائيا يسمح بإجراء عمليات حسابية، وليس بوصفه منطقا تصنيفيا مثل المنطق الكلاسيكي الأرسطي... ما كنا نبحث عنه كان قد تبلور في مبحث قديم جدا، منسي ومحتقر حاليا، أعني صناعة الخطابة". شاييم بيرلمان، الإمبراطورية الخطابية صناعة الخطابة والحجاج، ترجمة: الحسين بنو هاشم، (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٢٢)، ص٥٩، ٦٠.

(٢) يُنظر: حاتم عبيد، من الخطابة إلى تحليل الخطاب مفاهيم خطابية من منظور جديد، (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٨م)، ص٧، ٩.

رسالة الدكتوراه الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المفاهيم الخطابية دلالاتٍ جديدةً تنسجم مع أسئلة العصر، وحسب صمّود، من أبرز الأقسام التي حرصوا على إحيائها، قسمان؛ الظَّفَر بالحجة، وترتيب الأقسام، يلي ذلك في الأهمية قسم العمل أو الفعل، وإلى بيرلمان يرجع الفضل "في إعادة الاعتبار للبلاغة، وذلك بتصحيحه المنظور الذي كان يرى فيها مجرد زخرفة وتزيين، وبقيامه يجعلها المبحث الذي إليه نعود، إذا أردنا دراسة الخطاب الإقناعي، أي أنه جعلها تنفتح على كافة الخطابات الإنسانية، باستثناء البرهنة الصورية والرياضية"[١]، ثم توسع إطار النظريات الحجاجية، وتعددت، حتى توزعت بين المنطق الطبيعي واللسان[٢].

من هنا كان التحول الثاني في زاوية النظر البلاغي مع صمّود[٣]، مع وحدة

---

(١) الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص٢٨.

(٢) يذكر أبو بكر العزاوي أن الحجاج المنطقي عند (جون بليز غريز) هو: مجموعة من الاستراتيجيات الخطابية لمتكلم ما، موجه إلى مستمع معين؛ من أجل تغيير حكم لديه عن موضوع ما. فهو ينظر إلى الحجاج بعدّه نشاطا منطقيا خطابيا؛ لأن الأمر عنده يتعلق بتفكير كلامي، والوسيلة المستعملة للتواصل هي اللغة، وينتمي إلى المنطق الطبيعي؛ لأنه يتشكل من خلال مجموعة من العمليات الذهنية، وينطلق من مفهوم الخطاطة، فلا يمكن عنده أن يقوم إنتاج خطابي دون أن يؤدي إلى خطاطات وتمثيلات، أما الحجاج اللساني عند (أوزفالد ديكرو) فهو: نظرية لسانية تدرس الحجاج في اللغة باعتباره ظاهرة لغوية، وفعل لغوي له ووظيفة أساسية للغة؛ حيث إن هناك أدواتٍ وروابطَ وعبارات لغوية، يكمن دورها الوحيد في تأدية العمليات الحجاجية. يُنظر: أبو بكر العزاوي، من المنطق إلى الحجاج، ص٢٤، ٢٥.

(٣) لم يكن حمّادي صمّود هو الباحث الوحيد الذي التفت إلى هذه الزاوية من النظر البلاغي؛ فقد صدرت أعمال بالموازاة مع هذا العمل، متكاملة معه في التحول المعرفي والمنهجي من المشغل الشعري، إلى المشغل الحجاجي، نجد ذلك في محاضرات محمد العمري التي نشرت ١٩٨٦م تحت عنوان (في بلاغة الخطاب الإقناعي)، والندوة التي نظمتها (مجلة دراسات أدبية)، وتذكر المصادر أن صمّودا نفسه صرح بتقاسم الهاجس المعرفي مع زميله العمري في مكتوب خطه بيده إهداءً للعمري، قال فيه: "عزيزي محمد، هذا هم مشترك يؤرقنا في بحوثنا، وحياتنا الجامعية، أرجو أن تجد فيه ما يحببه إليك. تونس ٤/ ١/ ٩١. حمّادي صمّود". يُنظر: البلاغة ⇦=

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

البحث في البلاغة والحجاج، التي أُسست؛ لتدعيم الدرس الحجاجي على المستويين النظري والتطبيقي(١)، وخرجت للساحة العربية أولى الدراسات الحجاجية في المؤلف الجماعي الذي أشرف عليه صمّود، وهو كتاب: (أهم نظريات الحجاج في الثقافة العربية من أرسطو إلى اليوم)، جاء هذا الكتاب -كما عبر شكري المبخوت- حدثا كبيرا في العربية، قدم صورة أولية عن أبرز النظريات برؤية شاملة وعميقة، أسهم بقدر لا يمكن إنكاره في دفع الباحثين العرب إلى هذا المبحث البلاغي في أبرز مكوناته، وساعد على معرفة مسار تطوره؛ مواكبةً لمستجدات النظر، والبحث في الدرس البلاغي.

ويردّ بعض النقاد الأساس الذي بنى عليه صمّود كتابه (التفكير البلاغي عند العرب) إلى المسلك الحجاجي أيضا(٢)، ولعل من ذهب هذا المذهب رأى أن تركيز

= العربية وسؤال التجديد في تجربة حمّادي صمّود، حوار عبر (مجلة البلاغة وتحليل الخطاب)، ص١١٥.

(١) يشير صمّود في هذا الصدد إلى جملة من الدراسات الحجاجية التي مثّلت نقلةً مهمةً في مستويات البحث الحجاجي العربي، وكانت جميعها تحت إشرافه، وتحتل هذه الدراسات مكانها في تصورات صمّود؛ إذ تساعد في الإمساك بالخيط الناظم للنسيج الفكري الذي نسجه صمّود -كما عبر شكري البخوت عن ذلك- وهذه الدراسات هي:

- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: عبد الله صولة، ٢٠٠١م.
- الحجاج بين المنوال والمثال نظرات في أدب الجاحظ وتفسير الطبري: علي الشبعان، م٢٠٠٨.
- الحجاج في نماذج ممثلة من تفسير سورة البقرة، علي الشبعان، ٢٠٠٩م.
- الحجاج في المقام المدرسي، كورنيليا فون راد، ٢٠٠٣م.
- مفهوم اللغة في كتاب الحيوان للجاحظ والاحتجاج بها، كورنيليا فون راد.
- الحجاج في الشعر العربي إلى نهاية القرن الثاني أبنيته وأساليبه، سامية الدريدي، ٢٠٠٨م.
- علم الكلام والنظرية البلاغية عند العرب، محمد النويري، ٢٠٠١م.

(٢) يذهب إلى مثل ذلك محمد مشبال؛ حيث يرى أن صمّودا في التفكير البلاغي عند العرب، استلهم ⇦=

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

صمّود على بلاغة الجاحظ في التفكير البلاغي، يعني التركيز على سلطة القول؛ فاللغة عند الجاحظ -كما رأينا- ليست أداة تعاون وتواصل فحسب، وإنما هي أداة سيطرة، وهيمنة، وإخضاع، وسلطان، وكان ذلك قد انكشف للجاحظ من خلال الدور الذي أدته اللغة في عصره؛ حيث الجدل والنزاع حول مسائل الاعتقاد، فكانت الاستعانة باللغة الوسيلة المناسبة للتأثير، ولَيّ الأعناق والإقناع، والواقع الذي يظهر للدراسة غير ذلك؛ إذ أكد البحث من خلال التحليل في المبحث السابق، أن الأساس الذي بنى عليه صمّود التفكير البلاغي، أساس بنيوي، برهنت على ذلك تصريحات صمّود في غير موضع، بالإضافة إلى جملة المنطلقات التي انطلقت منها القراءة، والوسائل المستخدمة في المزاوجة بين المقولات البلاغية، والمقولات الأسلوبية، وفي النتائج التي توصل إليها بشأن التفكير البلاغي عند العرب.

ذكرت الدراسة في معرض حديثها عن مفهومي البلاغة والخطابة -في الفصل الأول من هذه الدراسة- إشارة عبدالقادر المهيري إلى أن تصورات حمّادي صمّود الحجاجية، تنطلق من رؤية مفادها: أن نشأة البلاغة العربية كانت مرتبطةً بجانب العبارة والجملة، يؤيد هذه النشأة جانب التأليف؛ حيث جهدت المؤلفات البلاغية بجمع

= بلاغة الحجاج، لكن سيطرة مناهج النقد الأدبي والبلاغة البنيوية على الحركة النقدية في العالم العربي حينها، لم تسمح لهذا الكتاب بتلقِّي الصدى المطلوب، ثم يؤكد أن الانطلاقة الحقيقية لبلاغة الحجاج في الثقافة العربية، بدأت مع الكتاب الجماعي الذي أشرف عليه صمّود: "أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم". يُنظر: محمد مشبال، في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات، (عمان: دار كنوز المعرفة، ط١، ٢٠١٨م)، ص٣٣.

ويذهب جلال مصطفاوي إلى قريب من ذلك؛ إذ رأى أن قراءة صمّود للجاحظ ركزت على بلاغة البيان التي اهتم فيها الجاحظ بالحجاج، والجدل المنطقي، وأولى مكانةً كبيرةً للمتكلم، إلى جانب اهتمامه بالحدث الكلامي. يُنظر: جلال مصطفاوي، قراءة في تلقي البلاغيين العرب للبلاغة الجديدة في العصر الحديث: حمّادي صمّود ومحمد العمري نموذجًا، (العربية والترجمة/ دراسات، مج ٨، ع٢٧، ٢٠١٦م)، ص١١٤.

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وتصنيف الأساليب البلاغية، وبضرب الأمثلة والشواهد من القرآن الكريم، والشعر، وبليغ كلام العرب. انطلقت تصورات صمّود الحجاجية من هذه الزاوية الممثلة في تساؤلات عن علة اقتصار البحث البلاغي على العبارة، وهي من قبيل[1]:

-هل ارتبطت البلاغة منذ نشأتها وفي نصوصها المؤسسة في هذا المجال الضيق؟

-هل يمكن أن يظفر الباحث في النصوص المؤسسة، أو في جملة المؤلفات البلاغية إلى القرن الخامس، بما يحيل على خصائص الخطاب الأخرى؟

-هل نشأت البلاغة العربية منحسرةً في الوقت الذي تولدت فيه بلاغات مماثلة متسعة لم تعرف الانحسار إلا في مراحل متأخرة؟

-إذا تذهب بعض الآراء إلى أن البلاغة العربية قامت على ضم الجناحين؛ الخطابي والشعري، فلماذا لم تهتم المصنفات البلاغية بخصائص الخطابة غير اللغوية؟

-إذا أُخذت تصورات الجاحظ في البيان والتبيين والحيوان (وهو رجل محاجة ومناظرة، عارف بوجوه الاحتجاج) بعين الاعتبار، فلماذا لم تتسلل هذه التصورات إلى المصنفات البلاغية التي تلته؟

-إن اعتبرنا عبدالقاهر الجرجاني نظير الجاحظ صاحب جدل وحجاج، فلماذا لم يفتح آفاقا لدراسة الخطاب في أبعاده الاستدلالية المنطقية؟

عبر هذه التساؤلات، وانسجاما مع منهج صمّود في إعادة قراءة البلاغة

(١) يذكر عبد القادر المهيري أن التساؤلات المطروحة أعلاه، هي التي حملت صمّودا على تكوين حلقة بحث جمع فيها نخبة من الدارسين "قصد النظر في البلاغة والحجاج، بل في الحجاج في علاقته بالبلاغة؛ لأنه هو الذي يبدو في نهاية الأمر مغمورًا في التراث البلاغي حسب النظرة السائدة إليه". عبد القادر المهيري، مقدمة أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص٥ وما بعدها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

العربيـة، والتفتـيش فـي منابتهـا وجـذورها، وصـولا إلـى امتـداداتها، يسـلك المسـلك الحجاجي؛ لبحث علاقته مـع البلاغـة العربيـة فـي صـورتها الأولـى، ولأن النظـر فـي الحجـاج، وبحـث علاقتـه مـع البلاغـة لا يتـأتى دون الانطـلاق مـن الأصـول الأولـى للبلاغة الإغريقية القديمة، منذ نشـأتها فـي صـقلية، ثـم فـي نموهـا عنـد السفسـطائيين، ومعلمي صناعة الخطابة، مرورا بتصورات سقراط، وأفلاطون، وانقلاب أرسطو فـي خطابته حتى استوى عودها النظري ليصبح "النسق النظري الوحيد الذي عرفه تـاريخ بلاغة الحجاج إلى حدود العصر الحديث، والذي لا تشكل بلاغة الحجاج الحديثة سوى امتداد له"(١)، كان لزامًا على صمّود -بمشاركة فريق البحث- سـبر غـور هـذا التـراث الفلسفي بشكل عام؛ لأنه يمكّن من رسم منهج يعيد قراءة التراث البلاغي.

يحاول صمّود تدقيق المصطلح؛ لتوضـيح الفـرق بـين التقاليـد الأرسـطية للقـول الخطابي، والتقاليد العربية، وأشارت الدراسة إلى هذا في إطـار حـديثها عـن مفهـومي البلاغـة والخطابـة عنـد صـمّود، وأكـدت أن الحقـل المعنـوي لكلمـة "Rhetorique" لا يطابق (البلاغة) في الحقل المعنوي العربـي، وأن صـناعة الخطابـة فـي المقـام الأول، هي عمل يسبق عملية القول، وبتأكيـد صـمّود أن مفهـوم البلاغـة العربيـة يختلـف عـن مفهوم نظيرتهـا اليونانيـة، مـن حيثيـات مختلفـة، ومـن أبرزهـا -كمـا تصـور صـمّود- اختلاف ظروف النشـأة بـين البلاغتـين، واخـتلاف الـداعي إلـى إيجـاد كـل منهمـا، ثـم انحسار نشأة البلاغة العربية مقارنة بنشأة نظيرتهـا الأجنبيـة، ثـم فـي اخـتلاف السـياق العربـي الإسلامي عن السياق اليوناني الأثيني، من ناحية المؤسسات الخطابية.

يشير صمّود في مقدمته للخلفية النظريـة، أن خطابـة أرسـطو صـناعة، مـدارها إنتاج قول، تروم منه الإقناع في مجـال المحتمـل، بمعنـى أن الإقنـاع يكـون فـي دائـرة المسائل الخلافية، القابلة للنقاش بين طرفين، تقوم على اللغة والخطاب. ومن هنـا فـإن أحد الطرفين يحاول أن يؤثر في الطرف الآخر، إمـا لتوجيـه سـلوك، أو تثبيـت اعتقـاد

(١) الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، ص١٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

ما[١]، والحجاج على هذا "علاقة بين طرفين، تتأسس على اللغة والخطاب، يحاول أحد الطرفين فيها أن يؤثر في الطرف المقابل جنسًا من التأثير يوجه به فعله، أو يثبت لديه اعتقادا، أو يميله عنه، أو يصنعه له صنعًا"[٢].

ويحدد صمّود بدقة موضوع الدراسة الحجاجية في القول الآتي -نورده كاملا لأهمية ما جاء فيه- يقول صمّود:

"ومعنى هذا أن الإقناع، وهو وظيفة الخطابة الأساسية، لا يتم بالتفنن في العبارة، والتأنق في اختيار الأساليب، أي بكل ما هو في المصطلح اليوناني Lexis، وإنما يتم بالوقوف على الحجج المناسبة، وترتيب تلك الحجج بكيفية تزيد من مفعولها، ويتم بما للمتكلم من مكانة لدى السامعين، وبقدرته على مس عقولهم، بحسن اختيار الحجة، وتحريك انفعالاتهم، بإثارة كل ما يستدر العطف والشفقة"[٣].

ففي قوله: (الإقناع، وهو وظيفة الخطابة الأساسية) إشارة إلى مفهوم الخطابة الأرسطية من حيث هي "قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة"[٤]. وتتحقق الوظيفة الإقناعية بوسائل عقلية، وأخرى انفعالية، وهذا يعني أن الخطابة قدرة عقلية مهمتها البحث عن كل وسائل الإقناع الكامنة في موضوع ما[٥]، ويؤكد أرسطو أن هذه الوسائل ينبغي أن تكون "ذات طابع برهاني، وأن تنصب على موضوع النزاع.. ولا يحاجج فيها إلا إذا كانت غير قابلة للتصديق"[٦]. وكما يذكر

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص١٢.

(٢) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص١٠٠.

(٣) يُنظر: حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص٧٦.

(٤) أرسطو طاليس، الخطابة، الترجمة العربية القديمة، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، (الكويت: وكالة المطبوعات، بيروت: دار القلم، ١٩٧٩م)، ص٩.

(٥) يُنظر: الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، ص٢٠٣.

(٦) نفسه، ص٣٥٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

أوليفي روبول، فإن الوسائل التي تناسب العقل هي الحجج[١]. من هنا جاءت عبارة صمّود (يتم بالوقوف على الحجج المناسبة). والحجج تمثل "النواة المفهومية للخطابة"[٢].

أما الوسائل التي تناسب الانفعالية، فتأتي من جهة الإيتوس، "أي الخلق الذي ينبغي أن يتخذه الخطيب؛ لاجتذاب الانتباه والفوز بثقة السامع"[٣]، فمن هنا تأتي عبارة صمّود (يتم بما للمتكلم من مكانة لدى السامعين)، وقوله في موضع آخر: "فإذا كان المتكلم مشهورا بالأخلاق المحمودة، وحبه للحق، وحرصه على العدل في الحكم، وتمكنه من القضايا التي يتحدث فيها، مما يجمعه مصطلح يوناني (Ethos)"[٤]، ومن جهة أخرى الباتوس، "أي الميولات، والرغبات، وأهواء السامعين، التي يمكن للخطيب أن يستثيرها"[٥]؛ ففي قوله: (وتحريك انفعالاتهم بإثارة كل ما يستدر العطف والشفقة)، وفي موضع آخر: "ومنها ما يأتي من انفعالات المستمع، وعواطفه؛ مما رسمه صاحب الخطابة تحت مصطلح (pathos)"، ومنها الغالب الذي يأتي من اللغة نفسها، "هي كلمة (Logos).. كذلك يفعل الخطاب بما يتوفر فيه من طرق في القول، مخرجة غير مخرج العادة، وما ينتشر في تضاعيفه من الصور والوجوه المغيرة التي تكسبه طاقة زائدة على متعارف الأوساط في عادي العبارة"[٦].

---

(١) يُنظر: أوليفي روبول، مدخل إلى الخطابة، ترجمة: رضوان العصبة، مراجعة: حسان الباهي، (المغرب: إفريقيا الشرق، ٢٠١٧)، ص٢٣.

(٢) محمد الولي، مدخل إلى الحجاج- أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، (عالم الفكر، ع٢، مج ٤٠، ٢٠١١)، ص٢٨.

(٣) أوليفي روبول، مدخل إلى الخطابة، ص٢٣.

(٤) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص١٢.

(٥) أوليفي روبول، مدخل إلى الخطابة، ص٢٣.

(٦) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في =⇦

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

بناءً على ما سبق، فإن الوسائل ثلاثة أنواع[١]:

١- الفكرية: كالدليل، والحجة، والعلامة، والقياس، والاستدلال، والبرهان.

٢- العاطفية: كالتحريك، والتهييج، والانفعال، والأحاسيس، والعواطف، والطبائع، والتحريض.

٣- اللغوية: كالوضوح، والدقة، والسلامة، والصور، والأساليب، والوجوه البلاغية بمختلف أنواعها.

أما قوله: (ترتيب الحجج) وحسب روبول "الترتيب هو نفسه موضع، أي خطة صنف نلجأ إليها لبناء خطابنا"[٢]، ويجدها في الخطابة القديمة أربعة أجزاء؛ الاستهلال، والسرد، والإثبات، والختم، وموضوع الخطابة كما يذكر الولي، ذلك المجال الرحب، "مجال القيم حيث الاختيارات لا يمكن حسمها حسما نهائيا أبدا، إنه مجال كل ما هو غامض ومائع، المجال الذي يكون معه أي اتفاق مجرد حدث محتمل، أو مقبول"[٣].

ويشرع صمّود في تبيان أقسام الخطابة الأساسية المتعلقة بالخطاب، وهي ثلاثة: (البصر بالحجة، وترتيب الأقسام، والعبارة)، أما البصر بالحجة، فيشير في البلاغة الغربية إلى "معنى الظفر بالشيء، والوقوع عليه... وحسن التدبير، والتقاط المناسبة بين الحجة وسياق الاحتجاج"[٤]، ومن هنا كان الحديث عن مخازن الحجج، من حيث

= التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص١٣.

(١) يُنظر: محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة- بحث في بلاغة النقد المعاصر، ص١٢.

(٢) أوليفي روبول، مدخل إلى الخطابة، ص٨٣.

(٣) محمد الولي، مدخل إلى الحجاج- أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، ص٢٧.

(٤) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص١٤.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

إن الحجج موجودة، وما على الخطيب إلا أن يكتشفها، ويحسن الربط بينها؛ ليخرجها في بنية استدلالية محكمة.

أما ترتيب الأقسام، فوضع كل حجة في مكانها المناسب؛ مما يحقق لها التمكين في ذهن المخاطب، ويؤدي كل قسم من هذه الأقسام وظيفة خاصة، منها ما يتعلق بالمطالع والمقدمات، ومنها ما يتعلق بالخبر المتحدث عن الوقائع، ومنها ما يتعلق بالخاتمة، أو مخرج النص، ثم الاستطراد، "وليست هذه الأقسام إلا نموذجًا يطلب من الخطباء البارعين التصرف فيه، والخروج عنه بحسب ما تدعو إليه ملابسات الخطبة، وظروفها"(١).

أما العبارة، فتتعلق بالبحث عن اللفظ المناسب، المستجيب لإخراج كل ما اختزن في الذهن إلى حيز الوجود، وفي طريق الخطابة القديمة للاهتمام بجانب العبارة، نسيت مكوناتها الأخرى، ومن هنا "أصبحت وجوه القول، وصوره المتولدة عن الاهتمام بقسم العبارة من الخطابة، أهم جهاز وظف لإبراز خصائص القول الجميل، ومميزات الكتابة الأدبية"(٢)، وبهذه الطريقة ظهرت الدراسات الأسلوبية "مسايرة بذلك المجاز العقلي.. الذي أصبح بموجبه الجزء مقصيا الكل، قائما مقامه"(٣).

ومن المعروف لدى دارسي الخطابة الأرسطية، أنها عرفت الانحسار مبكرا، لما استبعدت قسمين من أقسامها، وهما: تمثيل القول، والذاكرة، وحسب صمّود، فإن الاستبعاد جاء من جهة تعلقهما بالمشافهة، وجاء الانحسار نتيجةً "لأسباب يتعلق أهمها بتغير نمط الحياة السياسية، وتقهقر مفهوم الرأي العام"(٤)، ثم امتد الضيق والانحسار إلى الأجناس الثلاثة الكبرى "التي استخلصها أرسطو من تجربة القول في عهده،

(١) نفسه، ص١٦.

(٢) نفسه، ص١٧.

(٣) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص١٧.

(٤) حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص٢٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وقبله عند السفسطائيين، وهي المشاوري، والمشاجري، والتثبيتي"[١]، وهكذا تستقر الخطابة الأرسطية في الجزء المتعلق بالعبارة، وأصبحت المؤلفات البلاغية تتناول الوجوه، والصور، والأساليب التي تسمح بتصريف اللغة.

❑ ثانيًا: النمط الثقافي الإسلامي (الشعر والقرآن وانحسار الدرس البلاغي):

يجيب صمّود عن تلك الأسئلة التي خطها لنفسه بدايةً، والمتمحورة حول غياب البعد الحجاجي في الممارسات البلاغية، بقراءة للنمط الثقافي السائد في المجتمع العربي، وهو نمط يتجاذبه طرفا الشعر والقرآن.

يقرر صمّود أن الثقافة العربية عاشت فترة من أهم فترات حياتها، وأكثرها خصوبة، فيما يتعلق بوضع القول في "مواجهة إمكاناته واكتشاف ما للغة من قدرة على قول الشيء ونقيضه، وإمكانية أن يقوم الرأي والرأي المضاد له، والحجة ونقيضها"[٢]، وصورة ذلك النمط تظهر في غلبة الشعر على أصناف الخطاب الأخرى، قبل نزول القرآن الكريم، بالإضافة إلى بعض أنواع الأدب الشفوي، الذي لا يؤدي الوظائف الحجاجية، إنما يعتمد وقع الشكل على السمع، مع فصله عن المعاني فصلا تاما في بعض الأحيان، وهنا يجد صمّود مدخلا لفهم العلة وراء اهتمام البلاغيين بالشكل -كما يذكر-.

يتجلى في هذا السياق الإعجاز القرآني، الذي يرسم التحدي؛ حيث "أعلن عنه تأكيدا لبعد النص المعجز في دائرة المخاطبين، وفضاء بنيتهم الثقافية التي تمثل الأفق الذي لا يتجاوزون"[٣]، فلما كان القرآن أصل كل القضايا، ومرجعها، وإليه ترجع

---

(١) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص٣٧.

(٢) نفسه، ص٢٨.

(٣) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في =⇦

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الحجج، فصادق على الحجة من النص، ومن خارج النص، فالمحتج لقضية ما، تكفيه العودة إلى النص القرآني، دون بناء أدلة، "فقامت الحجة من شكل النص وبنائه؛ لسد الحاجة إلى حجة العقل، وعقدت الأواصر بين هذه الثقافة، ومنطق العقل"(١)، وهكذا أثر القرآن على العبادات والمعاملات، حتى وصل ذلك الأثر إلى سياسة المجتمع، وطرائق الناس في التعايش، "وبدأ الإجماع يحيط بكل شيء، متوسلا بآلية متقنة في محاصرة الاختلاف، وإنهائه؛ من أجل إحكام صنع دائرة إيمانية مغلقة"(٢)، هذه الدائرة في نظر صمّود، مغلقة؛ لأن منظوماتها العقدية والسلوكية تروم الكمال والنموذجية، وما يتجاوزها فإنه بدعة، من هنا كان حديثه حول جدلية السنن والبدع، ودورها في ترسيخ مفهوم الشكل في شتى أنماط التفكير عند العرب.

ولم تقف آثار القضية الإعجازية عند هذا الحد، بل شهدت الثقافة الإسلامية حركة سريعة الوتيرة، تبحث عن السائد أو النموذج، حتى رامته في الأخلاق والآداب، بما فيها اللغة والشعر، فكانت فكرة (النموذج) "مرجعية تلك الثقافة، وعيار القيمة لديها، مع ترك هامش للخلاف لا يهدد الأصل والجوهر"(٣). ويتابع صمّود هذه القراءة الثقافية؛ ليصل إلى غمرة الخلافات، والفتن بين الملل والنحل، وصعوبة تمييز الناس بين الحق والباطل؛ سواء كان الخلاف حول مبادئ الدعوة، أو حول الأحداث الملمة بالعصر، كل طرف يستعين بالحجة؛ ليثبت دعواه، وإن لم يسعفه النص، فباب التأويل مفتوح، وهنا راجت الخطب، وفنون القول، وعرفت الأوساط خطباء مبرّزين، يدعون إلى مذاهب ومواقف بما يصنعون من حجج، وأساليب إقناع.

ولحاجة الدولة الإسلامية إلى سلطان الكلمة، والإقناع بواسطة عارضة الحجاج، وتصاريف اللغة، ارتبطت السلطة في عهد الخلفاء الراشدين بالخطابة، "وليس من

= التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص٢٥.

(١) نفسه، ص٢٦.

(٢) نفسه، ص٢٧.

(٣) نفسه، ص٢٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

باب الصدفة أن كان الرأسان المتصارعان، علي ومعاوية، من الخطباء المهَرَة على ما بينهما من تفاوت تداركه معاوية بالدهاء، وبجعله البراعة في القول رأس الفضائل"[١].

وفي هذه المنطقة يتبادر إلى الذهن التساؤل عن كيفية الربط بين هذه المظاهر الثقافية، وانحسار البلاغة؟ يجد صمّود -مستعينا بالمنظور التاريخي- أن مظاهر الاعتراف بالرأي الآخر، والخروج من منطق التسلط والعنف، لم تستمر طويلا، بل أخذت القوى المتسلطة تحسم الخلافات بحد السيف، فانحسر مدى الاختلاف، ورجحت كفة الائتلاف، وانجلى الغموض، وهيمن سلطان الوضوح والبيان، وهنا غابت فنون الجدل والمناظرة، ولا حاجة تدعو إلى الخطاب المضاد؛ لأنه لا اختلاف.

من هنا نشأت البلاغة العربية منحسرةً في نظر صمّود إذا ما قورنت بنظيرتها اليونانية، تهتم بالشكل أو المظهر اللغوي، وطرق إجرائه، وأصبحت القيمة الأدبية تبعًا لذلك، هي المحك الرئيس للفضل والتفوق، وكان نتيجة لذلك أن خفَتَ بريق المعنى، فاحتل مرتبة دون مرتبة اللفظ؛ فالمعاني (مبذولة يشترك في معرفتها جميع الناس)، أما قيمة البيان والوضوح التي كرسها القرآن، فهي الضامنة للفهم "باعتباره الشرط الأدنى؛ لتقرير حجة الله في عقول المكلَّفين"[٢]، والحرص على وضوح المعنى "يقتضي من اللغة أن تكون في غاية الشفافية، تؤدي إلى المعنى بدون أن نشعر بوجودها"[٣]، فعاشت البلاغة تحتفي بالشكل على حساب المضمون.

إن قراءة معالجة صمّود وربطها بتفكيره في مسألة مجادلة السائد، يمكن أن تساعد في رصد تحركات الفكرة في خطاب صمّود، وتفكيره الحجاجي، إذا اعتبرنا

(١) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص٢٨.

(٢) نفسه، ص٣١.

(٣) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص٣٢.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

مع صمّود أن السائد يأتي بمعنى "ما استقرت سلطته على الناس، وذهب فيهم أثره، فأصبح يوجه سلوكهم، ويحيط بتصوراتهم، ويبني رؤاهم"(١)، فلا بد من وجود نظرة ذات سيادة تبني كيان المجتمع ثقافيًّا وفكريًّا، واللغة في نظر صمّود تتأثر بمنظومة القيم والأفكار السائدة، المتولدة عن البنى الثقافية، بوصفها أصل التواصل والتفاهم بين الناس، وفي الوقت نفسه لا يمكن أن نتصور حياة الناس نمطا واحدا سائدا مشتركا، لا يتغير ولا يتبدل، وهكذا نجد أن هذه الأفكار والتصورات السائدة تُشكِّل المخازن التي تضع المجموعات الإنسانية "في أفق واحد، ويفتح في وجهها فضاء تجري فيه أهدافها المشتركة، ومطامحها المتجانسة، ويمارس فيه الفرد اختلافه داخل الائتلاف"(٢)، على هذا الرأي ستعود الحاجة إلى الاختلاف، وستتجدد أبواب الخطابات، والخطابات المضادة، مع تقلبات البنى الثقافية، والأوضاع السياسية "سواء كان ذلك الاختلاف طريقة في ممارسة الحكم تقوم على الاختيار الحر للخطاب السياسي الذي يبدو أكثر إقناعا من غيره، أو كان صراعا بين إيديولوجيات تختلف في خياراتها الأساسية.. وإن كانت العقائد والإيديولوجيات لا تشجع على الحرية، ولا تساعد على خلق الفضاء الذي تينع فيه الخطابة"(٣).

❑ ثالثًا: مضمون العلاقة بين الحجاج والبلاغة العربية:

تلتقي البلاغة العربية في مفهومها، مع تحولات المفهوم البلاغي الغربي في الأنماط الثلاثة، وهي كما حددها بنو هاشم "تحول من الدلالة على صناعة الإقناع، ليدل تارة على بلاغة الشعرية، وتارة على بلاغة الإقناع، وليدل تارة أخرى على

(١) حمّادي صمّود، مجادلة السائد في اللغة والأدب والفكر، (تونس: الندوة الدولية: مجادلة السائد في اللغة والأدب والفكر، ٢٠٠٢م)، ص١٢.

(٢) نفسه، ص١٥.

(٣) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص٤٢.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

العلم الجامع بين الاتجاهين"[١].

يقرر صمّود ابتداءً، أن البلاغة العربية لم توظف أساسا للإقناع.. لذلك لا نظفر في التراث العربي بشيء من قبيل ثنائية (الخطابة والشعر)، كما هو الشأن عند أرسطو مثلا، وإن كانت البلاغة العربية عرفت المسلكين، لكنها دمجت الخطابي والشعري كما تذهب إلى ذلك بعض الآراء، ويرى صمّود أن هذا الدمج أدى إلى الخلط بين مقاييس الأسلوب، وبلاغة الوجه، وإلى صعوبة الفصل بين مؤلفات البلاغة، ومؤلفات نقد الشعر، وإلى قصور في قراءة النصوص البلاغية المؤسسة، فقُرِئت من زاوية العبارة والأسلوب، فكادت أن تضيع جهدا بُذل في بناء نظرية للخطاب. ومع ذلك فإن الشعري والخطابي، "لم ينصهرا إلى الحد الذي لم يبق معه إمكان للتمييز بينهما"[٢]، يريد من ذلك أن الاختزال قد أخذ أحد ثلاثة أشكال، يمكن أن تفصح عنها محاولات قراءة الدرس البلاغي المتعددةِ تعدُّدَ المقاربات الحديثة، وهذه الأشكال هي:

-بقاء المقاييس الخاصة بالشق الخطابي داخل مقاييس أعم وأشمل في بلاغة القول.

-بقاء المقاييس الخاصة بالشق الخطابي مادة مهملة لم يستغلها الدارسون.

-تحول المقاييس الخاصة بالشق الخطابي إلى هيئة جديدة، يمكن استخدامها في الإقناع والحجاج[٣].

وعلى ذلك، فالبلاغة العربية عنده لم تكن أجنبية عن طرح قضايا التواصل باللغة[٤]، بمعنى أن البلاغيين أدركوا دور اللغة في الترويج للأفكار والآراء، ومدى

(١) الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، ص٩.

(٢) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٧٨.

(٣) يُنظر: نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) يُنظر: حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص٢٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

مقدرتها على مواجهة الخصوم ومحاجتهم، وتمكينها المتكلم من ظهوره على من يخالف رأيه بالحجة، وعلى الرغم من أن هذا الرافد اتخذ وجها محددا في الصورة، والشكل، وطرق القول، وأساليب التعبير فيه، فإنه ترك في صلب النظرية البلاغية آثارا عبَّر عنها صمّود بالعميقة، "بل ربما شكل بصفة حاسمة ومستمرة، تصوراتِ أصحابها لعدد هام من القضايا؛ كقضية العلاقة بين المعنى وسبل التعبير عنه"(١).

والبلاغة العربية -كما أسلفت الدراسة- تختلف عن نظيرتها اليونانية في ظروف النشأة، وفي مراحل نموها التي تتطور تبعا للسياقات التاريخية المختلفة. والمهم المؤسف عند صمّود، أن البلاغيين والنقاد لم يستغلوا مجهودات الفلاسفة العرب في التعريف بخطابة اليونان، إلا في القسم المتعلق بخصائص العبارة الخطابية، وبعض الاعتبارات العامة عن هيئة الخطيب، أو المتكلم(٢).

في إطار محاولة صمّود الحفر في المسوغات التاريخية التي حدت بالعرب المسلمين إلى التفكير في الشكل الظاهري، والهيئة الخارجية للقول من خطابة أرسطو، وفي المقابل اهتمت التفاسير والشروح بقضايا المعاني التي تولدها النصوص، بمعنى أن الوعي بأهمية درس المعاني، لم يكن غائبا عن الفكر العربي، وكأن العرب البلاغيين منهم والنقاد على وجه الخصوص، تعمدوا التركيز على جانب العبارة، لأجل ذلك يعمد صمّود إلى بلاغة الجاحظ؛ لأنه عالم بالمناظرة، والاحتجاج، وتصاريف الكلام، وأول من أفاض الحديث عن الخطبة، وسياقها، وكما هو معلوم فقد كانت تدفع الجاحظ منطلقات عقدية اعتزالية، تروم استخدام أساليب المناظرة والاحتجاج؛ للدفاع وللإقناع بعقيدتها، بالإضافة إلى "وعي تاريخي حاد مكنه من إدراك ما كانت تتهيأ له الثقافة الغالبة من تحولات، أبرزها التبشير المهم ببلاغة

(١) نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١١٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

جديدة، هي بلاغة الكتاب"[١]. وقد أبانت مؤلفاته عن حضور متكامل للخطابة؛ سواء من جهة التنظير لأطراف العملية التخاطبية، أو من جهة إيراده لنصوص من الخطب، وفهمه لآليات صناعة الخطابة، نسوق بعضا مما عالجه صمّود في سياق معالجة مظاهر التفكير البلاغي عند العرب:

١- اعتماد الجاحظ عند تدقيق متطلبات العملية البيانية، على الخطابة التي ارتبطت منذ نشأتها بمقاصد نفعية، ذات أبعاد عقائدية وسياسية.

فاعتماد الجاحظ على هذا الجنس "ليس من باب الصدفة؛ ففي قناعات الرجل، وخصائص بيئته الفكرية، والسياسية، والاجتماعية، ما من شأنه أن يجلب انتباه المؤلف إليه"[٢]؛ فالجاحظ معتزلي، والاعتزال كما هو معلوم يتطلب نشر مبادئ والإقناع بها، وبصحتها، وكانت الخطابة هي الوسيلة المناسبة لذلك، كما أن الجاحظ كان ملتزما "بخط سياسي وثقافي، أساسه الدفاع عن تفوق العرق العربي، وموروثه الحضاري، من طعنات الفئات المستعربة، المتوثبة، التي كانت لا تتورع من التشكيك في أعز مميزات العرب على العرب، قدرتهم البيانية التي بنى عليها إعجاز قرآنهم"[٣]، ومن هنا يطابق الجاحظ بين الخطابة والبلاغة، "فغرض الخطابة النجاعة، وسعي البلاغة الحسن، ومن ثم انطبق المفهومان"[٤].

والخطابة كما يحددها صمّود: لفظ يقتضي وجود المتكلم والسامع في حيز زماني ومكاني واحد، ويستوجب تزامن عمليتي التلفظ، والتمثل؛ لضمان تحقق

(١) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص٢١.

(٢) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٣٠٥.

(٣) نفسه، ص٢٥٨.

(٤) نفسه، ص٢٥٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المقاصد، وتهتم باللغة بعدّها فعلا وظيفته الفهم والإفهام، وغايته الإقناع[١].

ويتحدث الجاحظ عن الأقسام الخمسة الرئيسة التي عرفتها الخطابة اليونانية أيضا، ويرى صمّود أن هذا الوعي ليس دليلا قاطعا على الأثر الأجنبي؛ "فليس غريبا أن يؤدي الاعتماد على أشكال أدبية متقاربة، إلى نفس النتائج"[٢]؛ ففيها قسم يتعلق بالأغراض والحجج، ترتيب أجزاء الكلام، والمقاييس الأسلوبية، والتلفظ في حيز مكاني وزماني من قِبَل المتكلم، والحفظ والتذكر، منها ما يتعلق بالمتكلم، ومنها ما يكون من مستلزمات الخطبة، وأهم هذه الأقسام التعبير.

٢- العوامل التي جعلت الجاحظ ينظر إلى اللغة من خلال المنفعة والنجاعة، (مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة)، وربطه الموقف الجمالي العام بالنجاعة، تتلخص عند صمّود في شقين:

أ- تاريخي عام، يتعلق بالمنزلة الثقافية التي يحتلها النص في بنية المجتمع الإسلامي؛ "فهي على ما يبدو كانت تنحو إلى توظيفه لأغراض نفعية جماعية، أو فردية"[٣]، فيربط المجتمع القول بالفعل، بل إن القول هو الفعل، ومن مقتضيات هذه الطريقة في ربط اللغة بالمعنى، "تقديمهم سياسة القول على القول، بل واعتبارهم صياغة هذا الأخير تبعا لتلك السياسة"[٤]، أخذت هذه السياسة بمراعاة السامع، ومقام الكلام، واستعداده النفسي لقبول وتلقي ما يُعرض عليه، ولا تخفى نظرية الجاحظ في المقامات والأقدار، مستندا صمّود على مقولة الجاحظ: "وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة، وإحكام الصنعة، وإلى سهولة

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٠٠.

(٢) نفسه، ص٢٥٩.

(٣) نفسه، ص١٩٧

(٤) حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص٢٢.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المخرج، وجهارة المنطق..."[١].

ب- ظرفي خاص، يعود إلى الظرف التاريخي الذي عاشه الجاحظ، والمقصود ما يتعلق بحركة الشعوبية، وموقف الجاحظ منها؛ فليس من المستبعد "أن تكون الصلة بين اللغة الفصحى واللغة الجارية على ألسنة الناس، قد ضعفت بمفعول التوسع الإسلامي، وما أنجر عنه من تداخل عرقي"، هذا الأمر جعل الجاحظ يسعى وراء غايته؛ حتى لا يتناقض موقفه اللغوي، مع موقفه الثقافي العام، المتعلق بثقافة الكتاب، وليربط هذا الموقف مع النزعة الدفاعية عن الفصحى، ويعود أيضا إلى انتمائه العقدي؛ "فقد كان بحكم اعتزاله طرفا في الجدال القائم آنذاك بين الفرق، وعلماء الكلام.. وهذا أدى بالمؤلف إلى الاعتناء بالخطابة عناية خاصة، ناهيك عن أنها النوع الأدبي الممثل أكثر من غيره في نطاق ما اختار من بيّن الكلام وبليغه"[٢].

٣- إثبات الجاحظ ضرورة الكلام، وفضله، ورجاحة كل المستنتجات البلاغية واللغوية، بالمقارنة بينه وبين الصمت.

وكما يرى صمّود في هذه الحجج التي يسلكها الجاحظ "نوع من البرهان بالخلف، تكتسب فيه شرعية الوجود من صعوبة إمكان النقيض"[٣]، وكذا في الاحتجاج على من قال بتحريم الشعر، وحجته تهافت الحجج النقلية المعتمدة؛ فلا أصل لما يساق من الكتاب أو السنة، والمهم في هذا أن الجاحظ وهو ينطلق من منطلق حجاجي، يسلك مسلكا يسترعي انتباه صمّود؛ حيث تتبدى ثقافته الواسعة، وعارضته في الجدل "فهو يقيم توازيا منطقيا متعاضد المقدمات والنتائج بين الكلام، وإلغاء يؤدي في خاتمة المطاف إلى تطابق العروض والموسيقى، فيكون تحريم الشعر في مقام تحريم الكلام أولا، وتحريم الغناء والموسيقى ثانيا"[٤].

---

(١) عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص١٤.

(٢) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٩٩.

(٣) نفسه، ص١٤٩.

(٤) نفسه، الصفحة نفسها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

٤- استخدام الجاحظ للحجج الفلسفية والعقلية؛ لتخرج الحجة في صورة لغوية ناطقة بالتناقض؛ ليحصل الإقناع من شدة الوضوح والجلاء.

تكشف هذه الحجج عن قدرة بارزة في الجدل والاحتجاج، يذكر منها ربطه بين العضو ووظيفته ربطا وجوديا يجعل فيه تعطل الوظيفة سببا في تعطل أو موت العضو نفسه، وربطه بين حياة اللغة، وحياة الفكر، تبرز البعد الفلسفي المنسجم مع نظرية الجاحظ في المعاني؛ فاللغة بمثابة المنعش للمعاني، الذي يخرج بها من حالة الخفاء أو العدم، إلى حالة الوجود، مستشهدا بقول الجاحظ: "وطول الصمت يفسد اللسان.. وإذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره، وتبلّدت نفسه، وفسد حسّه"(١)، ونتيجةً لهذه الحجج، فإن الجاحظ يدعو إلى الخروج عن طاعة الداعين إلى تهيب الخطابة والبلاغة.

٥- إن الدافع الذي حدا بالجاحظ إلى تأليف البيان والتبيين حسب صمّود، هو دافع احتجاجي، تشغله العرقية والمذهبية، موضوعها التصدي لمطاعن الشعوبية، من خلال إبراز عارضة العرب في البيان والخطابة(٢).

وعند تدقيق مفهوم البيان عند الجاحظ، تتجلى إشارته إلى شكل بارز من أشكال التفكير الحجاجي؛ لأنه يتضمن وظيفة خطابية تلتقي مع نظيرتها في المفهوم اليوناني، تجلت هذه الوظيفة في المواطن التي تحدث فيها الجاحظ فيها عن الخطابة بعدّها نوعا من أنواع الكلام، والخطيب أنموذج المتكلم. "وعبر عنها بثبت اصطلاحي من حقل دلالي واحد، تجري وحداته إلى نفس الغاية: (الإقناع، الاحتجاج، المنازعة، المناظرة، وكل ما يدور في هذا الفلك"(٣)، ويعالج الجاحظ هذه الوظيفة من خلال جملة من الخطب تؤكد في أنواعها عمق الوعي الحجاجي تنظيرا عند الجاحظ، وممارسة عند

(١) عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٢٢٧.

(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٥٤.

(٣) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٨٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

العرب بشكل عام، توزعت بين الديني، والسياسي، والجدلي المذهبي.

وخلاصة المذهب الحجاجي في نظرية الجاحظ كما يجده صمّود، تتشكل في سلم تراتبي، رأسه قانون (المناسبة)، وأصله الخطابة والبلاغة؛ إذ تتوقف نجاعة الخطاب على اختيار الحجج، وإيجاد الصيغ المناسبة لهذه الحجج، وهو القانون الأكبر الذي يضم مجموعة القوانين الجزئية المتصلة بكل أطراف العملية اللغوية تتوزع تراتبيا، من قبيل: (الإقبال والمشاركة، والاحتمال ببعديه النفسي والاجتماعي، وقانون البناء على المشهورات)، ثم إن للمناسبة بعدين؛ بعد يكمن داخل الخطاب، وتمثله المقاييس التي تحقق صفة البلاغة، وتهتم بالمنجز اللغوي من الصوت إلى اللفظ فالمقصد، وبعد يكمن خارج الخطاب، وتمثله فكرة المقام، والمقام في هذه النظرية ينتقل من محدد، تغلب عليه المشافهة، ولا يتعلق بجنس محدد، بل ينبغي مراعاته في شتى أجناس القول، إلى مقام فرعي يحدد جنس الخطابة، ويربطها بمناسباتها المتعددة.

إن المهم في هذه الملاحظات التي جهد صمّود في تتبعها، وحاولت الدراسة إبراز أهمها، أن البلاغيين لم يستفيدوا منها في وضع نظرية حجاجية عربية، ويجد الفجوة ذاتها فيما يتعلق ببلاغة عبدالقاهر الجرجاني، الذي لازمت مشروعه البلاغي لهجة المحاجة والجدل؛ حيث كانت "كل لبنة تنبني على نقض لبنة سابقة، وكل رأي ينشأ من مخالفته لرأي سابق، واستعداد كتابه الأساس (دلائل الإعجاز) لأن يكون فرصة الثقافة الإسلامية لدراسة الخطاب في أبعاده الاستدلالية المنطقية"[١].

ويتناول صمّود بإعادة القراءة أيضا نص (الاستدراج لضياء الدين بن الأثير)[٢]، قراءة تنطق بمفهوم الحداثة عنده -وكانت الدراسة قد أسلفت القول فيه-

(١) حمّادي صمّود، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص٢٣.

(٢) يُنظر: نصر الله بن محمد ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، (القاهرة: مطبعة نهضة مصر، ١٩٦٠م)، ط١، ص٢٦٠ – ٢٦٥.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

ليؤكد أن نصوص التراث "قد تكون مدخلا من المداخل المهمة إلى المدونة البلاغية، لا يقل أهمية عن المدخل اللغوي الإنشائي الذي سبق أن بنينا عليه"(١)، ويلفت صمّود النظر إلى بعض الخصائص التي تميز بها نص الاستدراج، لعل من أهمها ما يتعلق بإبراز ابن الأثير لأهمية علاقة الفعل بالقول؛ ليؤكد أن الغرض من هذه البلاغة تحويل القول فعلا، والقدرة على بسط النفوذ والسلطان من خلال اللغة، ومنها خروج النص من إسار التصور البلاغي المألوف، إلى تصور أوسع، "تصبح بموجبه البلاغة بلاغة خطاب، لا بلاغة جملة، أو كلمة"(٢)، ومنها كثرة المصطلحات المعروفة اليوم في الدراسات الحجاجية، وانتباه ابن الأثير، ووعيه بطرائق الاحتجاج ومناهجه.

وهكذا، لما عرف العصر الحديث أوضاعا متقلبة متسارعة الوتيرة، ومع الانفجار المعرفي والتقني، وحدوث التطورات المهمة التي مست حياة الإنسان على مختلف أصعدتها، كان لزاما على الإنسان أن يتوسل بالبلاغة؛ ليواكب تلك التقلبات، فكانت العودة إلى الممارسة الخطابية، حاضرةً في العصر الحديث في بعدين:

-بعد تتجلى فيه البلاغة لمواكبة الأوضاع السياسية والاقتصادية المتقلبة، تلك التقلبات التي ولدت الاختلاف في الرأي، وضرورة حضور الخطاب المضاد -كما أسلفت الدراسة-.

كان إرجاع اللوغوس إلى صلب الخطاب في نظر صمّود، "دعوة إلى عودة الفكر عيارًا للاختيار، والعقل حكما في أقوالنا وأفعالنا؛ حتى تعود الأمور إلى نصابها، بعد أن فقد الإنسان في النصف الأول من القرن العشرين صوابه أكثر من مرة، فانتهكت الحريات، وديست الكرامة، وجُرّد الإنسان من مكونات إنسانيته"(٣)؛ لما يترتب على ربط الاقتناع بالحجة، من إعلاء لشأن العقل، وتفعيل لوظيفته.

(١) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٧٩.

(٢) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٨٢.

(٣) حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص٧٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

-بعد معرفي يرتبط بدور الحداثة، وما تثيره من نقد لمكتسبات الإنسان في الفلسفة، والعلوم، والنظريات الاجتماعية، والاقتصادية، في أنظمته الرمزية.

تجلت هذه المظاهر النقدية في صيغة معرفية جديدة، تؤسس للتنوع، وبالتالي تعدد الرؤى، والتصورات، وكثرة التصادمات الفكرية، بالتالي يتولد الاختلاف، ويتسع مفهوم الخطابة عند صمّود؛ فقد أُطلق على هذا "عصر الخطابة، لا بالمعنى التقني الضيق، وإنما بالمعنى الواسع العميق، المشير إلى مختلف التيارات المتفاعلة فيه، والمتصارعة"(١)، وقد فطن النقاد إلى دور البلاغة هذا، من حيث وجهها الخفي "المرتبط بالحاجات والمصالح، المقترن بالقدرة على التحويل والتكييف، وشد الآخر إلى مبتغى المتكلم"(٢). وعلى هذا فقد كان تاريخ البلاغة "هو تاريخ انطباع الحياة السياسية، والاجتماعية، والعقائدية، على اللغة العربية، وأصبحت اللغة إحدى وسائل القهر والخوف، كما أصبحت إحدى وسائل القبول والسداد"(٣).

بناءً على ما سبق، يَعُدُّ حمّادي صمّود بلاغة الحجاج أدق موضوعات الدرس البلاغي الحديث، وأكثرها أهمية؛ "لأنها تعد أهم مظهر تتجلى فيه خاصية التداخل المعرفي interdisciplinarite إذ إن بلاغة الحجاج تقوم على استغلال جميع العناصر المجاورة/ المساعدة في فهم الخطاب وتوصيله"(٤)، ثم إن تصورات صمّود الحجاجية، تتسع لتشمل دراسة التغيرات المستمرة فيما يتعلق بثنائية النص والخطاب، "في علاقتهما بالواقع والمخاطبين من جهة، وعلاقتهما بالثورة التقنية التواصلية السريعة

(١) حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص٨٠.

(٢) حبيب مونسي، الوجه الآخر للبلاغة العربية، (الجزائر: مجلة الخطاب، ع٨، ٢٠١١م)، ص١١٧.

(٣) مصطفى ناصف، اللغة بين البلاغة والأسلوبية، (بيروت: المركز الثقافي العربي، م٢٠٠٢)، ٢٤.

(٤) محمد سالم الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، ص٢٧٦.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الخطى من جهة ثانية"[1].

وجملة القول في هذا الفصل، إن سؤال المنهج عند حمّادي صمّود قام على مركزية القراءة التراثية، يرفدها اتجاهان بلاغيان؛ يتمثل الأول في القراءة الأسلوبية الإنشائية، والآخر في القراءة الحجاجية.

ولعل أهم ما نستخلصه من مقولات القراءة التراثية تركيزه على مبدأ الفهم والإفهام، والإيضاح والإبانة، إن كان على مستوى الصورة الفنية، أو في تجليات نظرية النظم، أو على مستوى المفهوم البياني بشكل عام. وقد ترتب على سيطرة فكرة الإبانة هذه، أن صيغت النظرية الأدبية العربية بشكل كلي على الوضوح والإبانة والفهم والإفهام، وبقي التفكير البلاغي مشدودا إلى هذه الفكرة زمنا طويلا. كما رسخ هذه النتيجة الدور الذي أداه البديع، فقد حصر البلاغة في العبارة حيث التركيز على النص ولا شيء خارج النص، وعمل على تمهيد الطريق للأدبية بمعناها في الدراسات اللغوية، أي دراسة الخصائص المميزة للخطاب الأدبي.

وفي تحيزات السؤال المنهجي وتطبيق صمّود مقولات الإنشائية، تؤكد الدراسة انفتاح المشروع على الاتجاهات الحديثة، وتؤكد في الوقت ذاته مركزية القراءة التراثية. فالنظر في الأدبية، والتعويل على مقولات الاختيار والعدول لم تكن أفكارا أجنبية عن التفكير البلاغي العربي، بل تعدّ من أكثر المقولات علوقا بتكوين البلاغة العربية.

وتأكدت من خلال هذا الفصل سمة التصارع والتواجه بين التيارات البلاغية الحديثة، وقد كان من نتائجها التحول عن المسار المعرفي الإنشائي والأسلوبي إثر اكتشاف بعض جوانب العوز، إلى المسار البلاغي الجديد الذي وضع البلاغة العربية في سياق المقارنة مع البلاغة اليونانية، إن كان في التركيز على بلاغة الصور أو الوجوه، أو في التركيز على بلاغة الحجاج والوظيفة الإقناعية. وهذه الأخيرة هي

(١) نفسه، ص٢٨٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

التي استرعت انتباه صمّود، فاشتغل في ضوء منهجه الأثير في المزاوجة بين القديم والحديث على قراءة النمط الثقافي القديم الذي أطر البلاغة العربية في عصورها الأولى، ليقرر أن البلاغة العربية نشأت في شكل منحسر بسبب هيمنة فكرة النموذج والمثال على العقل العربي آنذاك. وإن كان التراث لا يخلو من مظاهر الوعي بالأبعاد الحجاجية كما أبانت دراسته لبلاغة الجاحظ على وجه الخصوص.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

الفصل الثالث

مسارات الاتجاه النقدي بين التنظير والتطبيق

وفيه مبحثـــان:

- المبحث الأول: سؤال النقد ومقتضيات القراءة النقدية.
- المبحث الثاني: استدعاء الشابي والكشف عن الوظائف الشعرية.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

الفصل الثالث
مسارات الاتجاه النقدي عند حمّادي صمّود
بين التنظير والتطبيق

يحاول هذا الفصل أن يرصد أبرز ملامح المسار النقدي في قراءات حمّادي صمّود، بناء على المرجعيات الفكرية والمنهجية التي أثبتتها الدراسة في الفصل الأول، وتكاملا مع المشروع البلاغي والأسلوبي والحجاجي المطروح في الفصل الثاني، ويُبْنَى الطرح في هذا الفصل على أساس أن صمّودا قام بدوره -وما يزال- في الإسهام بقراءة الظواهر النقدية الرائجة في الساحة النقدية العربية، في شكلين: القراءات النقدية، والتطبيقات النقدية.

وتجلت القراءات النقدية في مناقشة صمّود لبعض القضايا النقدية البارزة، من قبيل: (الإبلاغ، القراءة، الموقف من النوع الأدبي، النقد الثقافي)، أما التطبيقات النقدية فقد اقتصر فيها صمّود -حسب ما بدا للدراسة- على توظيف آليات الشعرية في قراءة النص الشعري، ممثلا في (استدعاء الشابي والوظائف الشعرية).

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

المبحث الأوّل

سؤال النقد ومقتضيات القراءة النقدية

إن الأنماط التي تعاقبت على قراءة ودرس تراثنا النقدي منذ أواخر القرن الثامن عشر إلى الآن -كما يذكر جابر عصفور- ترتبط ارتباطا وثيقا بتعاقب الأنساق الأدبية والنقدية ذاتها، ولهذه الأخيرة ما يصدر عنها ويرفدها من أنماط مختلفة في قراءة التراث النقدي، هذه العلاقات هي التي تدفع بالنقاد إلى طرح أسئلة تبحث عن غايات تُبنَى عليها، وتستقي من منظوماتها المعرفية، معاييرها، وأدواتها المنهجية، ومن هنا كانت الأسئلة النقدية المطروحة ولا زالت، تتحرك وفق حركات أدبية موازية في الواقع الذي ينتظم فيه كل سؤال نقدي، "سواء في استجابة هذه الحركة إلى شرطها التاريخي، أو سياقها الإبداعي، أو تحدياتها الفكرية التي تفرض الطرح المجدد، والترتيب المغاير لهذه الأسئلة الأساسية التي تلازم كل تغير نقدي، أو تجديد أدبي، والتي تتغير إجاباتها مع كل تغير نقدي، أو تجديد أدبي"(١)، ويمكِّن هذا الرصد تحديدا من وضع القراءات النقدية التي أسهم فيها صمّود -كما فعل غيره من النقاد- في مسارها الصحيح، من خلال التفتيش عن الأسئلة النقدية المطروحة، ومعرفة التيارات الفكرية المؤطِّرة، وربطها بالتصورات والرؤى التي تنتظم فيها كل قراءة نقدية، لا تنفك عن العودة إلى التراث، لا لغرض استعادة قيمه ومبادئه، إنما لانتقاء ما كان منه صالحا لرفد الحاضر، ولإقامة منظومة معرفية أصلها ثابت، وفرعها متمكن من مجابهة التحولات الفكرية والمعرفية على مختلف الأصعدة.

(١) جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ص٢٥.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

❑ أولاً: الإبـــــــــلاغ:

أ- تدقيق المفهوم:

دأبت الدراسات المعاصرة على الحديث عن مفهوم الإبلاغ، أو الإبلاغية، من خلال الحديث عن الأسلوب، وراج المصطلح في حدود فهمين:

الأول: يشير إلى أن الإبلاغية تشمل كل ما يجاوز الجانبين الموضوعي والفكري للكلام، وكل ما يجاوز عملية إيصال الوقائع والأفكار، عن طريق الإعلام، ويحدد إطار مفهومها بقوله: "إن عوامل مثل الاهتمام بعنصر من عناصر العبارة، وإبرازه، وتناغم الأصوات اللغوية، وإيقاع العبارة، ونبرة الملفوظ، والقيم الانفعالية، والقيم الباعثة على التذكر، وتداعي الأفكار، كالتعابير المستعارة من أمهات الكتب، والسجلات الأدبية، والأساليب المتميزة بالفصاحة والبلاغة، والأخرى الدارجة المألوفة... كل ذلك داخل في مجال الإبلاغية"(١).

وإلى ذلك المفهوم أيضا يشير سمير أبو حمدان في الإبلاغية في البلاغة العربية، "وإذ تعتبر الإبلاغية (وهي جوهر البلاغة) أن اللغة الأدبية مسرحها، ومربط خيلها، فإن الانفعال الكامن في بعض الصيغ والعبارات والاشتقاقات، لهي المنهل الأساس الذي تنهل منه"(٢)، وهنا يتخذ الإبلاغ بعدا نفسيا يرتبط بالشحنات النفسية والعاطفية للمبدع، ويرتبط بالغرض الجمالي المنشود في النصوص الأدبية.

---

(١) عفيف دمشقية، الإبلاغية فرع من الألسنية ينتمي إلى علم أساليب اللغة، (ليبيا: معهد الإنماء العربي، مج١، ع٨،٩، ١٩٧٩م)، ص٢٠٤.

(٢) سمير أبو حمدان، الإبلاغية في البلاغة العربية، (بيروت – باريس: منشورات عويدات الدولية، ط١، ١٩٩١م)، ص٣٧. ويضيف: "فالإبلاغية تتجه نحو جوانب أخرى في الكلام الملفوظ، أو المكتوب. إن القيم الانفعالية في اللغة، وتناغم الأصوات، والإيقاع، وإبراز عناصر محددة في العبارة، وتداعي الأفكار، والاتجاه إلى التذكر، والأساليب والتعابير الأدبية المتسمة بالفصاحة والبلاغة، واستخدام العبارات الدارجة، وإنزالها منزلة لائقة، إن كل هذه الأشياء تدخل في نطاق الإبلاغية".

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وفي المقابل نجد الفهم الآخر للإبلاغ، لا يرتبط بتلك الأبعاد النفسية، ولا بالأغراض الجمالية، فيتعلق بالجانب النفعي الذي يروم إيصال فكرة ما، ولعل أبرز الاتجاهات اللغوية التي اهتمت بهذا البعد، تتمثل في التداولية؛ إذ تذكر إحدى الدراسات في إطار البحث عن الفهم التداولي في نظرية البيان عند الجاحظ، أن هذه النظرية تلتقي مع التصور التداولي لمفهوم الإبلاغ، يقول الباحث: "ويساير هذا التصور مفهوم الإبلاغ الذي تُعنَى به التداولية، التي (تصف)، و(تفسر) حركية الخطاب بين مستعملي اللغة في علاقة الكلام المنجز بالسياق العام والخاص، ومدى تأثيره، من حيث هو سلسلة من الأفعال في المتلقي في مستوى الفهم والفائدة"(١).

أما الإبلاغ عند صمّود، فيأتي التناول ضمن مفهوم أوسع، وهو التجريب؛ لأن "الانخراط في مسالك التجريب سعيا إلى تحديث القصيدة العربية المعاصرة بسلوك طرائق جديدة في بناء النص، وإنتاج المعنى، أدى إلى توتر صلة المتلقي بتلك القصيدة؛ لما شاع فيها من غموض حال دون فهمها، والتفاعل معها"(٢)، ويحلل صمّود مفهومي الإبلاغ السابقين حسب الآتي:

-ظاهر قريب، مأخوذ من الجذر اللغوي (بلغ)، ودلالته تتعلق بالجانب النفعي، يفسر ذلك بأنه: "فعل إرادي يقوم به شخص بقصد إيصال شيء إلى شخص آخر، وإخباره به، وهو في العملية اللغوية الرابط بين المتكلم والسامع في كل فعل لغوي عادي"(٣)، وهذا أصل التعامل اللغوي بين الناس، مؤكدا أن الفعل اللغوي ليس مجَّانيًّا، بل تتعلق به مقاصد وغايات يرومها المتكلم من كلامه، ويطابق بين هذا المعنى من الفعل الإبلاغي، وبين الوظيفة الإفهامية؛ "لأنه تحصل لنا عن كل ذلك معلومات لم نكن نعرفها، أو أننا كنا نعرفها، واقتضت الحاجة المتكلم أن يعيدها علينا في سياق

(١) نعمان بو قرة، ملامح التفكير التداولي البياني عند الأصوليين، (إسلامية المعرفة، ع٥٤، ١٤٢٩هـ)، ص١١٢.

(٢) حسين العروي، حمّادي صمّود وقضايا الشعر العربي الحديث، ص٨٨.

(٣) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٢٠٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

مغاير للسياق الذي كنا التقطناها فيه"[١]، ويعقب بأن هذه هي الوظيفة المؤسسة لعمليات التخاطب بين الناس للصيغة النفعية الطاغية عليها، "مما سماه العرب في القديم (قضاء الحاجات، وإنفاذ المراد)"[٢]، وهذا هو الجانب النفعي التداولي الذي أسلفت الدراسة القول فيه.

-خفي عميق، مشتق من تنوع طرق الإبلاغ، ويأتي بطريقين؛ الأول موضوع مباشر بلا واسطة، والثاني معدول غير مباشر، وآلياته الاستدلال، والتأويل، مرتهنة بإمكانات القارئ، وتجربته الخاصة في التعامل مع اللغة، فتُفتح للقارئ "أبواب من الفهم والتقدير ليست موجودةً في النص، وإنما النص مجرد قادح لها، وباعث حركتها في ذات صاحبها، حتى (تذهب نفسه في التأويل كل مذهب) على حد عبارة ابن رشيق"[٣].

أما عن ارتباط مفهوم الإبلاغ بقضايا التجريب والتجديد؛ فلأنه متعلق بالشعر العربي الحديث، ومقصود صمّود من الشعر الحديث هنا، بعض تجارب الشعر مما كُتِبَ في العقدين الأخيرين، وأعلن أصحابها انتماءهم إلى الحداثة، بعدّها مضمونا فكريا، واختيارا وجوديا يتأسس على مجموعة من القيم تعلن اختلافها عن السائد، وتطالب بحقها في الخروج[٤].

ب- الإبلاغ والغموض:

يثير صمّود في هذا السياق مسألة (الغموض)، راسما لحدود موضوعه، قاصدا الرغبة في الإسهام برأيه في بعض جوانب المسألة، معلقا على بعض الآراء الرائجة التي يعتقد أنها تقع في ظاهرها ضمن باب النقد الأدبي، وفي باطنها ما هي إلا بواعث أيديولوجية، ومواقف عقدية. ومن أهم هذه الآراء ما طرحه كل من: (عز الدين

(١) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٢٠٠.
(٢) نفسه، ص٢٠١.
(٣) نفسه، ص٢٠١.
(٤) يُنظر: نفسه، ص٢٠٢.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

إسماعيل، محمود أمين العالم، محمد الهادي الطرابلسي)[١] بإجماعهم على أن للقول الشعري لغةً مخصوصةً يميزها العدول عن النمط السائد، والكلام المألوف، ويميزها أيضا "وصوله إلى المعنى بطريقة غير مباشرة، واعتماده في اللغة على طاقاتها المكنونة الخفية؛ يحرّكها، فيتولد أسلوب في التوصيل والإبلاغ، يقوم على تكثيف المعنى، وعلى الكم، والإشارة، والتركيز"[٢].

وهكذا يصل المتلقي إلى المعنى الكثيف عن طريق عمليات استدلالية، تثير هذه العمليات دلالاتٍ متعددةً لا تنفد، ويتجلى المعنى في أبهى صورة، فتزيد المتعة على قدر الجهد المبذول عند الغوص في المعنى المكنون[٣].

---

(١) يُنظر: عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، (القاهرة: دار الفكر العربي، ط٣، د.ت)، ص١٧٣ - ١٩٤.

- محمد أمين العالم، لغة الشعر العربي وقدرته على التوصيل، (ألكسو: المجلة العربية للثقافة، ع١، ١٩٨٢م)، ص٢٣١ – ٢٥٣.

- محمد الهادي الطرابلسي، بحوث في النص الأدبي، (تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٨م)، ص١٥٨ – ١٨٠.

(٢) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٢٠٦.

(٣) نلمح ههنا إشارة من صمّود إلى مذهب عبد القاهر الجرجاني في التعامل مع ما يُسمى بالغموض الفني، وربطه بالأثر النفسي، ثم بتجربة القارئ النوعي؛ ففي تحليل أسلوب التمثيل الذي يحوج معناه إلى طلب الفكر، يقول عبد القاهر الجرجاني في أسراره: "وهو أن المعنى إذا أتاك ممثَّلًا في الأكثر ينجلي لك بعد أن يُحْوِجك إلى غير طلبه بالفكرة، وتحريك الخاطرِ له، والهِمَّة في طلبه، وما كان منه ألطف، كان امتناعه عليك أكثر، وإباؤه أظهر، واحتجابُه أشدَّ، ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نِيلَ بعد الطلب له، أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نَيله أحلَى، وبالمزيَّة أولى، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف، وكانت به أضَنَّ وأَشْغَف، ولذلك ضُرب المثل لكل ما لَطُف موقعه، ببرد الماء على الظمأ... مما يُنال بعد مكابدة الحاجة إليه، وتقدُّم المطالبة من النفس به"، ثم يفسر قوله ببعض الشواهد الشعرية؛ ليصل إلى أنه لا يريد منه التمثيل الذي يصل إلى التعقيد والتعمية وتعمُّد الغموض، ثم يجعله كالجوهر في الصَّدَف "لا يبرز لكَ إلَّا أن تشُقَّه عنه، وكالعزيز المُحْتجب لا يُريك وجهه حتى تستأذِن عليه.. ⇦=

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

ولما كان للقول الشعري طريقة مخصوصة في التعبير يعدل فيها عن القول العادي، تعددت الدلالات بالضرورة، بالتالي لا يمكن أن تكون هناك قراءة واحدة بمقدورها أن تصل إلى معنى نهائي تستنفد فيه الدلالة، ويؤكد صمّود مذهب النقاد الأوائل، أن للمعنى مستوياتٍ تتجلى في محاولة الشاعر تكثيف المعنى، وتصويره في طبقات تتكشف للقارئ كلما عاود القراءة، وأطال النظر، "ثم إنه يتبع في الإشارة إلى تلك المعاني، أساليب التلميح، والإيجاز، وتكثير المعنى، وتقليل اللفظ، كما كان يقول القدامى"(١)، وعن مستوى الغموض الذي يثيره صمّود، يعترض أحد الباحثين أن صمّودا لم يحدد في أي مستوى ذلك الغموض المقصود؟ يقول: "يبدو لي أنه إذا استعمل الغموض على أساس أنه عيب ونقيصة في الشعر، فإذا هو عيب في أي مستوى من مستوياته؟ أما أن نقول إنه من الغموض ما هو عيب منه، وما هو شفاف ويكشف بعد القراءة الأولى، والثانية، والثالثة، فيبدو لي أن المصطلح غير واضح في أذهاننا، لماذا لا نستخدم العمق بدل الغموض؟"(٢)، ثم يشير الباحث إلى أنه يقصد العمق في التجارب، لا في المعاني؛ لأنه يفرق بين التجربة والمعنى على صورة الفهم عند الأوائل؛ فاللبس الذي يخالط المعاني لا يلتقي مع مفهوم عمق التجربة في النقد المعاصر حسب تصور الحارثي. وإجابة عن تساؤل الباحث يذكر صمّود أنه ليس

= فما كل أحد يفلح في شقّ الصَّدَفة، ويكون في ذلك من أهل المعرفة، كما ليس كلٌّ من دنا من أبواب الملوك، فُتحت له، وكان:

مِنَ النَّفَرِ البِيضِ الَّذِينَ إذَا اعتَزَوْا وهابَ رجالٌ حَلْقَةَ البَابِ قَعْقَعُوا".

عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص١٣٩، ١٤١.

(١) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٢٠٧.

(٢) محمد مريسي الحارثي، تعقيب على محاضرة حمّادي صمّود: الإبلاغ في الشعر الحديث، (جدة: ضمن محاضرات النادي الأدبي الثقافي بجدة، علامات في النقد، مج١٢، ج٤٥، ٢٠٠٢م)، ص٤١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المطلوب من الشعر أن يبلغ، معللا قصده من طرحه مسألة الغموض[١]؛ إذ يريد أن يربط بين خطابين؛ الخطاب العلمي، والخطاب الأيديولوجي؛ فالغموض هنا إما أن يتعلق بالقراءة الأولى للنص، وهي -حسب ما ترى الدراسة- المقصود من قوله: الخطاب الإيديولوجي، فلا يتعلق معنى الغموض هنا بالخطاب الشعري، أو القول الشعري، والقراءة الثانية هي القراءة العلمية التي تتخذ من المناهج النقدية ذات الصبغة الموضوعية، منطلقا لها؛ ليخلصها من حمولاتها الأيديولوجية، وإما أن يريد صمّود الأيديولوجيا التي تخالط العمل النقدي، بدليل قوله: "إذا هذا الأمر الذي قام بالعملية، غير واع"، فهنا يجب على الناقد أن يرد الأمور إلى نصابها، ويتوسل بالأداة النقدية التي تمكِّنه من صياغة خطابه العلمي بصورة (واعية)، وفي كلتا الحالتين، لا يمكن بحال من الأحوال تخليص الخطاب النقدي من الشوائب الأيديولوجية، وقد أسلفت الدراسة القول في ذلك.

ثم يقرر صمّود ما قرره أصحاب الدراسات الثلاث المشار إليها، أن صفة الغموض مسألة نسبية "بمعنى أنها ليست صفةً قارَّةً في الشعر، وإنما هي قضية قراءة تختلف باختلاف ما للقراء من استعداد للغوص في مجاهل الكتابة الشعرية عن المعنى"[٢]، وبما أن الشعر الحديث أصبح تجريبًا مستمرًّا، وبحثًا مغامرًا حيويًّا، فإن

(١) يقول صمّود: "ولم يكن القصد من طرح هذه الليلة لقضية الغموض، إلا أن أقول.. كيف أن الخطاب الإيديولوجي قد يكون أحيانًا متمسكًا بأعناق الخطاب العلمي، أحيانًا تقرأ النص وأنت تظن أنه نص بريء، وأن الناقد إنما يقول كلامًا من جهة أنه ناقد يهمه أن يعدل بين الناس، وأن يتوسط بينهم، وأن يحكم في شعرهم بما تدعوه إليه موازين الشعر، وإذا بك تكتشف في نهاية الأمر أن تلك المواقف الظاهرة، إنما هي تمظهر ببنية خفية، بنية تحت النص، بنية متسترة، وأنت تعرف أن من أهم خصائص البنية الإيديولوجية، هو ألا تعلن عن نفسها، بل تبقى متسترة تفعل في النص فعلها، ولكنها تختفي، وإلا انفضحت، إذًا هذا الأمر الذي قام بالعملية، غير واع، فمن واجب الباحث أن يرد هذه الأمور إلى المنطلقات العلمية". حمّادي صمّود، محاضرة الإبلاغ في الشعر الحديث، ص٥٧.

(٢) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٢٠٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

التساؤل المفترض طرحه، يتعلق بالنظر فيما جرى من تغير في فعل الإبداع في التجارب "التي تطمح تجاربنا إلى أن تضع نفسها في مداراتها"(١)، وفي ظل هذا التساؤل ينخرط صمّود في الحديث عن المرجعيات الغربية، وعن التحولات التي طرأت على مفهوم النص، وعلاقته بمبدعه، وهي تحولات جعلت من النص الأدبي مغامرةً مستمرةً، لكن صمّودا هنا يضيف فعل الكتابة إلى فعل الإبداع، وهنا نلمس نوعا من اللبس يقول عنه أحد الباحثين: "ولا أدري ما الشعر الذي يدور في ذهن المحاضر، هل هو الكتابة كما وصل في نهاية المحاضرة؟ يبدو لي هذا، فإذا كان الشعر في ذهن المحاضر هو الكتابة، فإذًا المحاضرة منطقيا منقوضة من الأساس"(٢)، ويقصد الحارثي من ذلك أنه إذا كان صمّود يقصد الإبلاغ بمعنى التوصيل في النص الكتابي، فستكون المسألة خارجةً عن دائرة الشعر إلى دوائر أخرى، أما إذا كان المقصود هو الغموض الناتج عن نقص متعمَّد من قِبل الشاعر في الأداء، رغم وجود الأداة، فإن النتائج التي توصل إليها صمّود سليمة، وليس الأول ما يقصده صمّود من الإبلاغ؛ فقد أشار بدايةً إلى أنه يقصد إبلاغ المعاني التي ترد القارئ إلى ذاته، وإلى تجربته الخاصة مع اللغة، عند قراءته الشعر الحديث، أما الكتابة، فالواضح أن صمّودا يقصد بها الكتابة الشعرية الحديثة، وكثيرا ما ردد هذا المسمى في دراساته حول الشعر العربي المعاصر.

ويستنبط أحد الباحثين مفهوم الكتابة الشعرية الحديثة عند صمّود، من خلال تحديد الأخير موقع القصيدة العربية من التجريب والحداثة؛ حيث يذهب صمّود إلى أنّ المنجز الشعري العربي الحديث والمعاصر، قطع مسافات مذهلة باتجاه الحداثة، تتجلى من خلال جهود النقاد والدارسين؛ أمثال محسن الموسوي، وعز الدين إسماعيل، ومحمود أمين العالم، وكمال أبو ديب، وبعد أن استعرض تصوراتهم، قال:

(١) نفسه، ص٢١١.

(٢) محمد مريسي الحارثي، تعقيب على محاضرة حمّادي صمّود: الإبلاغ في الشعر الحديث، ص٤١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

"قد نختلف مع هؤلاء النقاد في مضمون اتجاه التجربة، أو في تسمية مراحلها [...]، لكننا لا نختلف في تقدير مداها، وقيمة ما حققته في دفع الكتاب صوب مدارات يواجه فيها النص قدره، ويبحث في ذاته عن ذاته، كتابة واعية منشقة تولد في منعطف كلّ صورة ولادة جديدة، وفي فضاء كلّ نص تحكي بداية الإنسان قادما من عدمه، وتحكي انبثاق الكون من غبراء السديم"(١)، ويعقب الباحث على ذلك أن صمّودا يختار نماذجه على أساس هذا المفهوم؛ ليجري عليها قراءاته، وعلى أساسه أيضا يصدر أحكاما حول انخراط هذه النماذج في الحداثة، أو بقائها خارج دائرة الحداثة(٢).

ت- الإبلاغ في الشعر الحديث:

يمزج صمّود التنظير بالتطبيق في صورة القراءة على القراءة، من خلال عرضه لبعض القراءات النقدية لنصوص من الشعر الحديث، ليخلص إلى أن هذه القراءات الأسلوبية في عمومها، لم تطرح الأسئلة التي يرومها صمّود في قضية الإبلاغ "هل من حق تجارب الشعر عندنا أن تطمح إلى الكونية، وإلى تجارب الشعر الرائدة في الآداب العالمية؟"(٣).

إذا كان الفن اليوم هو تعبير يربط الفرد بانتمائه وكيانه، وبتاريخه، فإن الأدب الغربي تطور تبعًا لمتطلبات الظروف المحيطة، تدفعها حوادث وتيارات داخلية وخارجية؛ ليخرج الأدب في صورة إيقاع منسجم؛ إيقاع الإبداع والإنتاج، ويسميه (إيقاع النشأة والولادة)، وإيقاع القراءة والتأويل، ويسميه (إيقاع التلقي والاستهلاك)(٤)، يتولد عن هذا التسلسل بالنسبة لنا نحن –العرب- إشكال الغرابة والغموض المتمخض جراء اقتباس هذه الأنماط الجديدة دون أن تتغير طريقة التلقي،

(١) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٣٥٧.

(٢) يُنظر: حسين العروي، حمّادي صمّود وقضايا الشعر العربي الحديث، ص٨٧.

(٣) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٢١٢.

(٤) يُنظر: نفسه، ص٢١٤.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

أو التذوق، أو القراءة.

بناءً على هذا، لا يمكن الوصول إلى عالمية الأدب أو إلى (كونيته)، إلا بتهيئة السياق؛ فالتغير والتحديث الذي وصلت إليه الثقافة العربية، أو لِنَقُل: الأدب العربي بشكل خاص، لم يكن بالقدر الذي يسمح لطموح الكتابة العربية أن يبدأ من حيث انتهى النموذج/ المرجع(١).

وليس الاختلاف حول تجارب الشعر الحديث "إلا صورة لاستمرار سلطة ذلك الأصل على تصوراتنا، وحتى على مصطلحاتنا، فلا يحتاج المرء تجشم البرهان على أن مسألة الغموض وهي من أهم الأسس التي تحتكم إليها المواقف النقدية من هذه التجربة، مشتقة من البيان، لا مناص لها منه، وإن كانت تروم الإفلات من سلطته"(٢). فالتجربة الجديدة تحاول بناء تصور جديد لمسألة الإبداع؛ لأن الأصل الذي قامت عليه التصورات الثقافية العربية، يقوم على استقلال المعاني عن الألفاظ، وتنزيل اللغة منزلة الوسيلة؛ مما غلب الوظيفة الأدائية في التوضيح والإفهام(٣)، وعليه، فإن "أهم عقيدة أدبية نصدر عنها، أن الأثر الأدبي أو النص الأدبي الرفيع، بنية مهاجرة متحولة، تتأسس على نقض العلاقة المباشرة التي يمكن أن تشدها إلى ما تحيل عليه، وتمنعها من الترحال والحلول بكل السياقات"(٤)، وخلاصة ما انتهى إليه "أن تحول مراس بناء النص الحديث عن السنة المألوفة، بانخراطه في آفاق مغايرة للآفاق المعهودة، يوجب تغييرا وتحولا في مراسم القراءة"(٥).

---

(١) نفسه، ص٢١٦.

(٢) حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص٢١.

(٣) يُنظر: حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص٢١.

(٤) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٣٥٦.

(٥) حسين العروي، حمّادي صمّود وقضايا الشعر العربي الحديث، ص٨٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

❑ ثانيًا: القراءة والمقروئية:

أشارت الدراسة في معرض حديثها عن الحدود والمفاهيم في مشروع صمّود إلى أن مفهوم القراءة يشكل عنده مظهرا من مظاهر الحداثة، من حيث إن الحداثة تلتقي مع مفاهيم من قبيل الشك، والتجريب، وحرية البحث المطلقة، والمغامرة في اكتشاف المجهول وقبوله(١)، وأشارت أيضا إلى أن فعل القراءة في تصور صمّود، يقتضي أن كل عملية قرائية تعوزها نقطة ارتكاز، تتم من خلالها العملية الانتقائية للعناصر المساعدة في النص، على بناء القراءة، وبالتالي إقصاء عناصر أخرى لا تنسجم مع التصور الذي يصدر عنه القارئ، وعليه فإن العناصر الأخرى تسقط من القراءة، حتى لكأنها في عداد ما لم يوجد، ثم هي باقية في زاوية من زوايا النص، في انتظار قراءة أخرى مختلفة، تضع اليد عليها، فتخرجها من وضع الغياب إلى وضع الحضور(٢).

والنص في تصور صمّود بنية مفتوحة، "قابلة للقراءة والتأويل، لا تضم معنى نهائيا، وإنما تشع باحتمالات دلالية لا حَدَّ لها"(٣)، كما أن النص يحمل روح صاحبه، وعصره، من هنا فإن صمّودا يقترح مفهوم (المقروئية) بوصفه أداة مناسبة للتلقي الحديث، يشير إلى القدرة، والقابلية لقراءات جديدة تناسب الوعي الجديد، أكثر من إشارة القراءة إلى استخدام الآليات الجاهزة والمسبقة، التي يستخدمها القارئ، بمعنى أن المفاهيم السابقة تجعل القارئ يتعامل مع النص الجديد بوعي قديم، وهنا تتجلى صورة التجربة الجديدة المرادفة لفعل التحديث والحداثة عند صمّود.

يعالج صمّود مسألة الغموض ذاتها في إطار مسألة كبرى هي التجريب،

---

(١) يُنظر: مصطفى بيومي عبد السلام، دوائر الاختلاف، قراءات التراث النقدي، (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢م)، ص٣٠٢.

(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٧٧.

(٣) حمّادي صمّود، في نظرية الأدب عند العرب، ص١٨٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

بواسطة مفهوم المقروئية، وقد أكد أنه لا يبغي من (المقروئية) انكشاف معنى مركزي في النص إليه ترد بقية الأجزاء في تصور يربط اللفظ بالمعنى ربطا مباشرا بجعل اللغة واسطته للوصول إلى المعنى، إن (المقروئية) إذن: "قابلية في النص للقراءة، بل القراءات، وانفتاحه على متعدد المعاني، ومختلف التأويل... أن يكون النص أليافا من المعنى، مستقل بعضها عن بعض، لا تنتج بالضرورة نظاما يعقد بينها، وإنما هي في النص جزر، بين كل جزيرة برزخ لا يستطيع النص قطعه؛ لأنه في فترة البحث والنشأة، لا يدرك ذاته... [و] لا تأتي لصاحبها على النسق نفسه، والسهولة نفسها"[١].

أ- آليات القراءة:

يحاول صمّود بناء خطة قرائية يؤلف فيها بين المكتسبات التي عرفتها نظريات القراءة والتأويلية الحديثة، وجملة من المبادئ التي تأسس عليها التفكير اللغوي والبلاغي، مطعمة بتجربته الذاتية، بوصفه قارئا حاول أن يسبر أغوار النص الأدبي المعاصر في أكثر من مناسبة، مستفيدا من منجزات اللسانيات والتداوليات، ومختلف نظريات تحليل الخطاب.

إن هذه الخطة التي ينظِمها صمّود نظما، ليست مرسومةً في خطية نسقية لها نفس الطريق المتقدم دائما إلى النهاية، وإنما هي أشبه بحركة ارتدادية جيئة وذهابا على حد تعبيره[٢]، وسنحاول هنا استنباط أبرز آليات هذه الخطة، بناءً على تصورات صمّود، وفق النحو الآتي:

- العلاقة بين القارئ والنص:

يؤكد صمّود هنا أنه ينبغي على القارئ أن يتصل بتجارب سابقيه ومعاصريه؛ ليتمكن من الوعي بظروف النص أولا، ثم ليحقق ذاته القارئة في ظروفها التاريخية، وسياقها المعرفي؛ "لأن غاية كل قراءة إنما هي معرفة الأنا، وتطوير وعيها عن

(١) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٢٣٢.

(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٢٢٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

طريق اكتشاف الآخرين، والتوغل في تجاربهم"[١]، ولا يعني الاتصال بقراءات الآخرين أن تكون القراءة ترديدا وتكرارا، إنما المقصود أن يتناص القارئ مع النماذج القرائية التي تساعده في تشكيل خلفية معرفية ذات صبغة ناقدة؛ ليتمكن من فك شفرات النص، وكشف غموض النص المقروء، وفي مقدمة غايات القراءة، الوقوف على أسرار النص؛ لمعرفة (المغامرة) التي بُني عليها، والأنساق الفلسفية، والمواقف الفكرية التي يعبر عنها، وإن كان صمّود يركز على غاية معرفة الذات، وتطوير وعيها، أكثر من تركيزه على تجربة الكاتب في هذا السياق.

- البناء على المقدمات الملائمة للنص:

لما كانت غاية كل عمل قرائي هي الوقوف على الأسرار البانية للنص، فإن المعرفة النقدية قدمت في سبيل كشف ذلك الكثير من المقدمات الممثلة في المقاربات المبنية على أسس فلسفية وعلمية، "وبحسب المضمار الذي يجري فيه استعمالها لهذا الفعل، من أن يكون فهما في الدرجة الأولى، وإحاطة بالمنكشف الواقع في السطح، إلى أن يكون غوصا على المستوى العميق المضمر، وبناء بالتأول لشتات المكونات والمعطيات الموجودة في ذلك القاع"[٢]، مع التأكيد على أن النص هو من يختار مقدماته، بمعنى أنه مهما كان الموقع "الذي يتحرك منه المتعامل مع النص، فإنه ينبغي النظر فيما يحتاج إليه ذلك التعامل من مقدمات"[٣]، وفي تقدير صمّود أن الثقافة العربية والنقدية بشكل خاص، أصبحت اليوم أكثر استعدادًا للاستفادة من التجارب الغربية في ميادين البحث، وفلسفة المناهج، "وأفكر هنا بشكل خاص في الأعمال التي يقوم بها التيار الملتئم حول (ميشيل فوكو) في الحفريات المعرفية والإبستمولوجيا"[٤].

(١) نفسه، ص٢٢١.

(٢) نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٢٢١.

(٤) حمّادي صمّود، في نظرية الأدب عند العرب، ص١٧٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

- اللغة هي المقدمة الأولى في قراءة النص:

يذهب صمّود، انسجاما مع مرجعياته، وطرائقه في التعامل البلاغي النقدي، إلى أن أهم المقدمات والآليات التي ينطلق منها القارئ، تتمثل في اللغة؛ فالقارئ حينما ينخرط في تواصله مع مبدع النص، إنما يبدأ من لغة النص، وبعبارة أخرى، (بواسطة الرسالة اللغوية الواقعة بينهما)، ويلمس هنا تحول علاقة الأثر الأدبي بالعالم الخارجي، واستبدالها بعلاقة القارئ بالأثر، أو بمقاصد القارئ من التصوير عن طريق الصياغة اللغوية "وبذلك تتكسر العلاقة المنطقية بين الأشياء والكلمات، وتقوم مقامها علاقة وجودية وجدانية، أساسها رؤية الكاتب للعالم الخارجي، والصورة التي يريد إيصالها إلى قارئه أو سامعه عن ذلك العالم"(١)؛ فهناك بعض الظواهر الأسلوبية التي تدخل القارئ في حالة من المشاركة الشعورية قد لا يصل إليها باستخدام المستوى العادي من اللغة.

وعنده أن القراءة تقوم في هذه المرحلة على بعدين؛ الأول خروج المضمون إلى بناء صوري بعملية تركيب الرموز أو تشفيرها، أما الثاني فترجمة ذلك البناء الصوري إلى المضمون المحيل عليه، بعملية فك الارتباط، ثم تحليل التركيب، إلى رد البناء إلى مكوناته الأولى(٢).

- تجسير الفجوة بين القارئ والنص:

يشعر القارئ بوجود فجوة بينه وبين النص، وسبب هذه الفجوة -حسب صمّود- قد يكون تاريخيا عند اختلاف زمن القراءة عن زمن كتابة النص، وقد يكون عقديا عند اختلاف عقيدة القارئ عن عقيدة المبدع، ثم إن الفجوة قد تنشأ عن خصوصية التجربة التي ينطلق منها المبدع، فتنشأ مسافة بين النص ومتلقيه، لا يمكن تقليص حجم هذه المسافة إلا بتعميق التجربة، من خلال الممارسة، ومن خلال الاتصال

(١) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٣١٨.

(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٢٢٢.

رسالة الدكتوراه الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

بالغير؛ لتحقيق الذات كما عبر صمّود في الموضع الذي ذكرنا، "ومن هنا لم تكن الآليات اللغوية المختلفة، والنظريات البلاغية بأصولها وفروعها، إلا وسيلة في حوزة القارئ؛ لتجاوز الفجوة، والقدرة على تقريب الشُّقَّة بين منطلق النص ومنتهاه"(١)، مؤكدا استمرارية إتاحة تعدد القراءات، فمهما حاول القارئ ردم الفجوة بينه وبين صاحب النص، لا يمكن القول إن هناك معنى وحيدًا يصل إليه القارئ، وهنا نلمس أثر فلسفة دريدا، ومقولة القراءات المتعددة، التي تنفي إمكانية وجود قراءة صحيحة أو واحدة للنص، وتقرر نسبية القراءات، وعدم يقينيتها، وقابليتها للتفكيك أيضا. ويذكر فاضل ثامر في اللغة الثانية، أن دريدا حسب إدوارد سعيد لا يدعو إلى منهجية جديدة، بل إلى "تحرير النصوص، وفك إسارها من قراءات مقيدة تطوق معانيها، ويقوم الناقد [والقول لإدوارد سعيد] بتحليل النص ابتداءً من سطحه، ثم اختراق أعماقه بشكل يبرز تعدد معانيه، لا تحديد معناه"(٢)، وتشاكل لهذه التصورات من زاوية الموضوع، مقولة أيزر في القراءة، ويهمنا منها هنا تصوره أن المعنى يمكن إدراكه بوصفه صورة تمثيلية تملأ فضاءات النص، وتجسد ما لم يصرح به النص نفسه، "وبالتالي فهو في حاجة ماسة إلى ذات تتصوره وتحققه؛ أي أنه محصِّلة التفاعل بين القارئ والنص"(٣)، ثم إن النصوص الأدبية تنبني بطريقة تسمح "بقدر من الحرية والتعدد في الإدراك، والقارئ عندما يتفاعل مع هذه النصوص، ويحاول أن يملأ فجواتها التخطيطية، فإنه يكمل البناء النصي، ويشارك بالتالي في إنتاج المعنى، وتحقيق الموضوع الجمالي"(٤).

(١) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٢٢٢.

(٢) فاضل ثامر، اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٤م)، ص٤٦.

(٣) عبد الله لحميمة، إشكالية القراءة من نظرية التلقي إلى التفكيكية، (المغرب: مجلة البلاغة والنقد الأدبي، ع٢، ٢٠١٥م)، ص٤٦.

(٤) عبد الله لحميمة، إشكالية القراءة من نظرية التلقي إلى التفكيكية، ص٤٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

- النفاذ إلى عالم النص بعدّه المولد الأكبر لتعدد المعنى، ولاختلاف التأويل:

لا تتوقف القراءة عند محاولة تجسير الفجوة فحسب، ذلك أن القارئ يكون قد دخل بالضرورة في عملية التأويل، فينتقل دور القراءة إلى الولوج في عوالم النص، على أساس أن النص المولد الأكبر لتعدد المعنى؛ "لأن النص نقطة تقاطع، ومحل التقاء مكونات تتضافر لتنشئه نسيجا من الأحداث... والمعتقدات والأفكار"(١).

ويشير صمّود هنا إلى مسألتين تأويليتين تتعلقان بالكيفية التي يؤدى بها النص؛ تتعلق الأولى بالطريقة الخاصة التي يسلكها النص عند أداء معانيه، "وهي طريقة تقوم على ثنائية ضدية، هي ثنائية الإظهار والإضمار"(٢)، أما الثانية فتتعلق بضرورة النظر في الأثر الذي يتركه تعدد إمكانات الفهم في القارئ تَبَعًا في عملية القراءة نفسها، لا سيما وقد استقر في الأذهان، "أنه يستحيل الحديث عن معنى بمعزل عن القارئ؛ إذ لا وجود للمعنى إلا في إطار نظام من العلاقات"(٣).

- تنشيط عملية الفهم:

تحتاج الآليات السابقة إلى تفعيل دور الفهم؛ إذ يمثل الإطار الذي يتحكم في القراءة والتأويل، ويتجلى ذلك عندما يحاول القارئ فهم النص، وبناءه بناءً استدلاليًّا، "وعلى هذا الأساس عد (الفهم) فرضية بحث، لا مفر من الانطلاق منها؛ لبناء القراءة والتأويل على الأرضية المشتركة بينهما، وهي اللغة أو العلامات اللغوية الدالة"(٤)، لكن الفهم هنا لا يعني مجرد استعادة معنى سجله المبدع في نصه؛ ليصل إليه القارئ بمجرد التدبر، "وإنما الفهم المقصود هو الذي منطلقه الحَيْرة والتردد في البدء، فاتخاذ

(١) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٢٢٣.

(٢) نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٢٢٤.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

القرار؛ فكل قارئ تعتريه إزاء النص حيرة، مأتاها قبوله آفاقا من المعاني مختلفة"[١]، وفي هذا التردد المتوج باتخاذ قرار حيال الفهم والتأويل، يتجلى دور القارئ في توليد المعاني، ثم في بنائها.

والذهن المتفهم إنما يفهم تأسيسا على منظومة من المبادئ والآراء المسبقة التي سميت بالفهم القبلي؛ فالقارئ يحمل نصه المكون من مجموعة من المبادئ، والقيم، والمكتسبات المختلفة، من خلال معايشته لجملة من النصوص؛ فعندما يقبل القارئ على النص الجديد، يوظف لأجل فهمه نصه الخاص، وبهذه العملية التناصية، يقدح شرارة المعنى المختزن في ذهنه؛ لتغدو القراءة نوعًا من التوليد.

أما الذاكرة النفعية، وهي "ذاكرة الأحداث الخاصة المتعلقة بباعث الرسالة أو متقبلها"[٢]، فتؤدي دورا حاسمًا؛ لأنها الذاكرة التي تعين قارئ النص على تحقيق الفهم بما تمده به من أفكار مختزلة، ومبادئ توجه عملية القراءة، وتبلور فهمًا دون فهم. والمهم في هذه الذاكرة أنها تخرج عن الهيئة النصية إلى هيئة أوسع قد تكون نظاما ثقافيا بأكمله يتيح تحقيق أكبر قدر من الفهم بما يحمله من مبادئ وأفكار وتصورات. وبهذا التصور تتشكل ثنائية الفهم القبلي والذاكرة النفعية مكونة معا منطلقا يوجه عملية الفهم.

- التعالق بين القراءة والتأويل، واللغة والفهم:

يتصور صمّود أن القراءة والتأويل تمثلان موضوع البحث، واللغة تمثل مادته، أما الفهم ففرضية وغاية القراءة، وإذا تحققت غاية البحث وفرضيته الممثلة في الفهم، يتمكن القارئ من إبراز فهمه بالتأويل، وإعادة البناء، وهنا تتقلص المسافة بين القارئ ومبدع النص عند الوصول إلى نقطة انطلاق النص أو ولادته، تتأتى هذه الآلية من خلال تنشيط الفهم كما سبق، وتنفتح حينها للقارئ إمكانية المشاركة في فعل الخلق

(١) نفسه، ص٢٢٤.

(٢) نفسه، ص٢٢٦.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

والتكوين.

ب- الشعر الحديث والوعي بخطاب الحداثة:

يشير صمّود إلى أن كثيرا من الشعر الحديث يُكتَب بوعي نقدي متطور، وكما عبر بمعرفة نظرية بخطاب الحداثة، وشروط الكتابة التي تروم الانضمام إلى جمهرة النصوص المصنفة في إطار الشعر الحديث(١)، ومن مظاهر ذلك تجاوز فكرة تعاطي الشعر لمن يمتلك السليقة فحسب؛ فالشعر الحديث يشهد تجارب رائدة لشعراء عرفوا بريادتهم في المعارف العلمية الدقيقة، ومن هنا كانت الضرورة مُلِحَّة إلى الدخول بفهم ووعي بتلك المعارف؛ فالدخول "إلى نصوص شاعر كـ (شار)، أو (بيرس)، لا بد أن يتم عن طريق معارف غير المعرفة العادية بالشعر، وقوانين الإيقاع"(٢)، ومن المهم عنده أيضا عدم الانفصال عن جملة التجارب الشعرية التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بالأحداث التاريخية، حتى يضمن القارئ تكون خلفية وثيقة الصلة بالحاضر، بالتالي تكون الوعي بالذات.

وإذا كان الأمر كذلك، فإنه من الواجب مراجعة المداخل النقدية التي يؤسس عليها القارئ قراءته، ومن أهم هذه المداخل، ما أسلف صمّود القول فيه حول مسألة الغموض في الشعر، إن ما يريد صمّود الوصول إليه في مبحث قضايا التجريب، أن مقولة الغموض تُبقي تصور القائلين بها دون الشروط الدنيا للتعامل مع الشعر الحديث، وعلة ذلك عنده، أن الغموض يذهب في فهم المعنى مذهبا أفرزته البلاغة العربية وفق سؤالها البياني، وظرفها الحضاري، جاءت المقولة وفق "نصوص تختلف اختلافا جوهريًّا عن النصوص الحديثة من جهة طموح الكتابة الذي يسكنها"(٣)؛ فقد تأسست مقولة الغموض على نية استدعاء الضد، وهو الوضوح، والوضوح والإبانة كما مرّ بنا، من المفاهيم المنتمية إلى أصل كلي، وعام، وشمولي،

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٢٣٢.

(٢) نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) نفسه، ص٢٣٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وهو البيان، أو بتعبير صمّود: سلطان البيان. ويؤكد صمّود في هذا السياق اختلاف المقولات الفرعية المندرجة تحت مقولة البيان هذه؛ فقد كان من الضروري أن يسلم الفكر البلاغي والنقدي بأسبقية الوجود على اللغة، والمعنى على العلامة، وجعل عمل الإنسان كشفا عن معان موجودة أصلا، لكنها مستترة مخفية، وصولا إلى جميع مقومات النظرية الأدبية(١).

أما الخطابات النقدية الحديثة ممثلة في بعض النماذج التي حللها صمّود، فإنها تجمع إلى جانب التزاماتها الأدبية، والثقافية، والسياسية، والأكاديمية، تأويلاتٍ إلى تصورات للمعاني "ليس في مشروعه أن يفي به، بل إن كيانه يقوم على ما يخيب ذلك الانتظار"(٢)، وإن كانت لغة صمّود هنا ضمنيةً لا تفصح عن مكنونها بشكل مباشر، إلا أنها دعوة صريحة إلى تجديد النظر النقدي، تجديدًا يتواءم وتجديد النص الأدبي نفسه؛ فلا مجال "لتجسير الفجوة إن لم نغير بصفة جذرية إحساسنا بالأشياء والعالم... ولا يتيسر ذلك ما دمنا نطلب من النص الاطمئنان، وهو مقدود من عوالم السؤال، والحيرة، والجاهزة المنتهية"(٣).

تأسيسًا على ما سبق، يصرح صمّود بوجوب تجاوز منطق الوضوح والغموض، "وتجاوز كل الأطروحات البلاغية في طرائق الأدب في تصريف اللغة، وتجاوز الاعتقاد بأن المجاز والطرق المعدولة في القول، كافية لخلق نص أدبي، أو لوصف النص الذي تنتجه تجربة الشعر عندنا"(٤).

ويوجز أحد الباحثين موقف صمّود بالنسبة للقراءة، من خلال ضبط صمّود للمعايير الآتية(٥):

---

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٢٣٠.

(٢) نفسه، ص٢٣١.

(٣) نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) نفسه، ص٢٣١.

(٥) يُنظر: محمد الناصر العجيمي، النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، ص٤٠٣.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

١- القراءة عملية إيجابية؛ كونها تمثل إنتاجا للمعنى؛ لذلك فهي فعل خلَّاق يحيي النص بإخراج أفقه الدلالي من الغياب إلى الوجود، حسب مراميه.

٢- لا تخرج القراءة في جوهرها من سلطة الكتابة؛ فالقارئ يشارك في عملية الإبداع، بإعادته خلق النص؛ فهو يكتب ذاته، (إبداع ذاته، وإبداع اللغة من خلالها).

٣- لا تخرج القراءة من حكم الذاتية مهما طبقت من مبادئ إجرائية؛ "فالصلة بين القارئ والمقروء مهما تجردت وتقمصت مسوح الموضوعية والعلمية، تبقى محكومةً بالتقاء عالمين متباينين، تجربتين مختلفتين فريدتين، تنتهيان في خاتمة المطاف إلى التجاوز والإبداع، إبداع الكتابة، وإبداع النقد بالكتابة"(١).

إن جملة هذه التصورات النظرية، ستؤسس لحضور قضيتين مهمتين قد تنبه إليها الباحثون في تعامل صمّود مع القضايا التطبيقية، تتعلق الأولى بالعلاقة التي يعقدها الشعر مع الكلام الجاري؛ فهي العلاقة نفسها التي يعقدها كل فن مع مادته. أما الثانية فتنطوي على عدّ الشعر قولًا قائمًا بذاته مستقلًّا إن قورن بالأقاويل اليومية. وبهذا يكون القول الشعري جوهر الشعر، وهو في الوقت نفسه جوهر القول؛ فالقول الشعري يقصد إلى ذاته، ولا يقصد إلى غيره(٢)، ثم إن القول الشعري محفز يتعالى

(١) محمد الناصر العجيمي، النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، ص٤٠٣.

(٢) يُنظر: عادل خضر، حمّادي صمّود وآخر أحفاد الرومانطيقيين قراءة في "من تجليات الخطاب"، (تونس: مجلة المسار، ع٤٦، ٤٧، ٢٠٠٠م)، ص٩٦. ويضيف الباحث أن ثمة مفاهيم ومصطلحات تفسر هذه القضية المؤكدة على وجود المستوى العادي من الكلام، مستخدما مترادفات من قبيل: (المرجع والإرجاع، والوثيقة التي قد تكون حضارية أو تاريخية، والمحاكاة، والنقل، والتمثيل، والتسجيل، والإبلاغ، والإخبار والبيان، والواقع، والصدق، والقول المباشر، والشفافية، والدرجة الصفر)، أما القول الشعري، فتحدده مفاهيم الشعرية، والأدبية، والفنية، والبديع، أما القضية الثانية فيلاحظ فقر المفاهيم الدالة عليها، باستثناء مفاهيم كالأجناس، والخطاب، واللغة، والقول، والنص، والكلام، "إضافة إلى ما سيتولد عن هذه المركبات مفاهيم أخرى؛ كالغموض، والمقروئية، والمتخيل، والممكن، والمحتمل، والتشبيه، والتخييل" منتبها إلى أن صمّودا عوض عن هذا الفقر بعبارات طويلة، دلت على هيئات الكلام الحيوية والمتحركة.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

على القول العادي؛ لانتفاء الاعتباطية، وتتمثل هذه القضايا في جملة التصورات البلاغية والنقدية التي يفصح عنها صمّود في سلسلة مفاهيمية، تشكل "ما يجوز لنا تسميته بمستوى التفسير من خطاب المؤلف النظري"(١).

وسعيا إلى استكمال المنظومة النسقية النقدية التي حاول صمّود أن يؤسس لها، ينتقل إلى النظر في تلك التجربة الشعرية الجديدة، من خلال ربط الأدب بقضايا المعلوماتية؛ فقد وسعت هذه الأخيرة من مدارك الإنسان، وإمكاناته، وأمدته بوسائل أثارت مخيلته، ومكنته من الابتداع لدرجة خارجة عن الواقع، وباتت تقنيات التشبيه والتخييل، تنقل الإنسان من دائرة إلى دائرة، وهكذا يكون صمّود أكمل النسق المتشكل في العناوين الثلاثة المتفرعة عن العنوان الأم: من قضايا التجريب، بدءا من تحديث القصيدة العربية المعاصرة، داعيا بإلحاح إلى التفكير في تحديث القصيدة، ورسم إيقاع "هو إيقاعها وتفتحها على تاريخ وعبق المحيط الذي نمت فيه، وأينعت"(٢)، ثم إلى مناقشته مسألة الإبلاغ في الشعر المعاصر، ومناقشته الأثر الذي تركته قضية الغموض في التلقي العربي، ثم إلى المقروئية، في التصورات والرؤى التي اقترحها لسدّ الهوة الفاصلة بين المتلقي، والنص الإبداعي.

❑ ثالثًا: الموقف من النوع الأدبي:

تُعَدُّ مسألة الأجناس الأدبية، من أهم وأكثر القضايا حضورًا في التصورات النقدية، ومجالات نظرية الأدب القديمة والحديثة، العربية والغربية، "ذلك أن الأدب لم يكن يومًا حاصل الآثار الفردية مجتمعةً، بل كان هو ذاته يتكون من خلال العلاقات المتشابكة والمتنوعة التي تنسجها تلك الآثار فيما بينها"(٣)، بدءًا من تمييز أرسطو

(١) عادل خضر، حمّادي صمّود وآخر أحفاد الرومانطيقيين قراءة في "من تجليات الخطاب"، ص٩٦.

(٢) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص١٩٩.

(٣) عبد العزيز شبيل، نظرية الأجناس الأدبية في التراث النثري، جدلية الحضور والغياب، (تونس: =⇦

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

بمنطقه الفلسفي بين مصطلحي الجنس والنوع؛ فالجنس عند أرسطو أوسع دلالةً، وأوسع من النوع، ومثال ذلك أن الإنسان نوع من جنس الحيوان، "وقد يقال نوع أيضا للمرتب تحت الجنس الذي وصفنا، كما قد اعتدنا أن نقول إن الإنسان نوع للحي؛ إذ الحي جنس، ونقول إن الأبيض نوع للون، والمثلث نوع للشكل"(١)، إلى فلاسفة المسلمين الذين امتاز حديثهم عن القضية بالعودة إلى أصل الأشياء، وإلى التفكير بأصل اللغة، قبل أن تتجاوز وظيفتها الإبلاغية إلى الإقناعية أو التخييلية، من خلال مراحل متعددة يبدأ معها الشعور "بانتظام اللغة في أجناس وأنواع على شاكلة تراتب

= دار محمد علي الحامي، ط١، ٢٠٠١م)، ص٥، ويضيف شبيل أنه يصح القول بوجود نظريات متعددة ومختلفة لقضية الأجناس الأدبية؛ إذ عاد الاهتمام بالأجناس الأدبية، بعد أن اندثر في النصف الثاني من القرن العشرين، وعلى الرغم من اختلاف الرؤى والتصورات التي صدرت عنها هذه الاتجاهات، إلا أن هناك عودة دائمة للتراث، لا تنفك عن مساءلته، واتصال المشغل الأجناسي الحديث بذلك القديم، كما يشير إلى قلة اهتمام الدراسات العربية بنظرية الأجناس الأدبية -زمن كتابة كتابه الذي يتجاوز العقدين من الزمان- ومبرر هذا الصمت كما يقول "كامن في قرب العهد بالنهضة، وجدة الموضوع بالنسبة إلى النقد العربي، وقلة المظان النظرية في التراث، وارتكان عدد هائل من المخطوطات في المكتبات، دون أن تطاله يد التحقيق والنشر". ص٧، والحق أن الحال تبدلت بالنسبة للدراسات العربية في الحقبة الأخيرة، يتمثل ذلك في اهتمام النقاد العرب المعاصرين بالقضية؛ تنظيرا وتطبيقا؛ سواء كان في بحث تأصيل التداخل بين الأجناس الأدبية، أو تناولها من جهاتها في التراث العربي، أو البحث في تمثلات التداخل من خلال الأنماط الدارجة؛ كالسير الذاتية، أو الرواية، أو في دراسة الأشكال الوجيزة لاستقصاء خصائصها، أو البحث في شعرية الأجناس الأدبية، وفي بحث البنى السردية في النص المتداخلِ الأجناسِ الأدبية، أو في ربطها بمفاهيم من قبيل الحوارية، والقرائية، والتلقي، والعولمة، وأكثر من هذه الأطروحات التي أثْرَتِ الساحة النقدية والأدبية فيما يتعلق بمسألة الأجناس الأدبية.

(١) أرسطو طاليس، منطق أرسطو، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، (الكويت: وكالة المطبوعات، ج٣، ط١، ١٩٨٠م)، ص١٠٦٣.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الموجودات، وانتظامها"[١]، أما في التراث النقدي، فقد دأب الدارسون على الانقسام إلى فريقين؛ فريق يذهب إلى أن المتتبع للتراث النقدي يلاحظ غياب نظرية متكاملة في الأجناس الأدبية[٢]، أما الفريق الآخر فيقر بوجود إشارات -وإن كانت متفرقة- لملامح لنظرية الأجناس الأدبية، تدور هذه الملامح إجمالا في إطار التقسيم الأوسع؛ الشعر والنثر[٣]، "فيؤرخون للبدايات التأسيسية، والمساهمات النقدية في المدونات التراثية مع الجاحظ، الذي يعتبر... صاحب اللبنة الأولى في التجنيس، واستمرت المحاولات فيما تلاه من نقاد وبلاغيين"[٤]، وصولا إلى اهتمام الدراسات النقدية الغربية الحديثة بالقضية على اختلاف اتجاهاتها، ومقارباتها.

وفي هذه الأثناء يدلي صمّود بدلوه، مشاركا في النقاش الدائر حول قضية

---

(١) نفسه، ص٣٢٨.

(٢) منهم صلاح فضل في بلاغة الخطاب وعلم النص، وعنده أن عدم التمييز بين الأجناس الأدبية، وعدم الاهتمام بفروقها النوعية، كان مظهرا من مظاهر اختلاط قضايا البلاغة، ومجافاتها لروح التصنيف العلمي، يُنظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، (الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٢م)، ص١١٢، ويعلق أحمد ويس على ذلك بأن كلام فضل ربما سيكون "أكثر دقة لو أنه طلب بغيته من النقد، دون البلاغة؛ لأن مسألة التمييز بين الأجناس، ودراسة أصولها، هي في الحق شأن نقدي أكثر منه بلاغيا، وفي التراث النقدي شيء غير يسير من ذلك التمييز، فأما أن البلاغة بعد أن استقرت أسسها لم تلتفت إلى التمييز بين الأجناس، فهذا له أسبابه ومسوّغاته". أحمد ويس، ثنائية الشعر والنثر في الفكر النقدي بحث في المشاكلة والاختلاف، (الأردن: كنوز المعرفة، ط١، ٢٠١٧م)، ص١٧٥.

(٣) منهم أحمد ويس الذي يرى أنه "لا حاجة للتدليل على مدى حضور الثنائية في الفكر النقدي عند العرب؛ فذلك من الوضوح ما لا يحتاج في بيانه إلى عناء، وعلى أن المرء يجد في تصنيفات القدماء أشياءَ تستدعي التمحيص والتوقف". أحمد ويس، ثنائية الشعر والنثر في الفكر النقدي، ص١٨١.

(٤) ريمة حليس، التجنيس الأدبي في النقد العربي بين الجاحظ والكلاعي (التأسيس والتداول)، (الجزائر: مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، مج١٣، ع١، ٢٠٢١م)، ص٨٤٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الأجناس الأدبية، ويمكن للقارئ ملاحظة أن طريقته في التعامل مع المسألة من زاويتين؛ في الأولى يبحث في التراث البلاغي والنقدي عن ملامح لنظرية في الأجناس الأدبية، وفي الثانية يناقش أثر التصورات التراثية في الشعر العربي المعاصر، وفي كيفية تعامله مع المقولة، من خلال طرحه قضايا التجريب التي أسلفت الدراسة القول في بعضها في المباحث السابقة(١)، وفي إطار التجريب يؤكد صمّود انعتاق القصيدة العربية الحديثة من سلطة النموذج، في التصورات الحديثة المتعلقة بالكتابة، والوزن، والمعنى، يجد أن القصيدة العربية دخلت في مرحلة جديدة تؤسس فيها إيقاعها الجديد المتشكل من مكوناتها، وتاريخها، وحاضرها، ويلخص أحد الباحثين أن مذهب صمّود الذي يؤكد أن التجديد لن يكون مجديا ما لم يناقش المسائل النظرية الآتية:

-مسألة الأجناس الأدبية.

-تاريخية محددات الشبكة الأجناسية وضوابطها.

-مسألة الإيقاع.

-مرجعيات قصيدة النثر، وهي عند صمّود "مسألة في غاية الدقة والتشعب،

(١) سئل صمّود في حوار البلاغة العربية وسؤال التجديد عن كتابه: بلاغة الهزل وقضية الأجناس الأدبية عند الجاحظ: كيف يمكن للبلاغة العربية أن تحل مسألة التجنيس في الأدب العربي؟ فأجاب بأن مسألة الأجناس من المسائل المهمة والشائكة والمعضلة أحيانا عند من يعتقدون أن الكاتب إذا أخذ في نوع منها، فإنه ملزم بعدم الخروج عن محددات ذلك النوع، ولذلك اشتغل صمّود مع ثلة من الباحثين على هذا الموضوع في أعمال من درجات متخلفة؛ من دكتوراه الدولة، إلى دبلوم الدراسات المعمقة، ويعقب عن كتابه المذكور: "أما الكتاب الذي تشيرون إليه، فلقد كانت الغاية منه غايات: التأكيد على أن فكرة التصنيف المطلق، لم تكن غريبةً على المؤلفين العرب في فترات مبكرة، والذي استطاع أن يقيم جدولا للكائنات كما فعل الجاحظ في بداية الحيوان، لا يمكن أن يكون خالي الذهن من التصنيفية Taxinomie". حمّادي صمّود، ضمن حوار البلاغة العربية وسؤال التجديد في تجربة حمّادي صمّود، ص١٢٣.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

تتجاوز الشأن الأدبي إلى شأن أعم يخص اختيار النموذج المجتمعي، والطريق الموصلة إلى التنمية والتقدم، وهو موضوع تفكير، ونقاش، وجدل، انطلق مع بداية النهضة، ولم تهدأ فورته إلى اليوم"[١]. وستركز الدراسة اهتمامها هنا على الأجناس الأدبية؛ لاستجلاء أبرز ملامح رؤية حمّادي صمّود فيما يتعلق بهذه القضية.

ينضم حمّادي صمّود فيما يظهر إلى الفريق الأول، الذي يرى أن البلاغيين لم يهتموا بقضية الأجناس الأدبية، ويسبق إلى ذلك أحمد ويس الذي يؤكد أن صمّودا يذهب إلى أن البلاغة كانت تسعى إلى فصل اهتمامها عن زوج (الشعر/ النثر)؛ لتركز على زوج (الكلام البليغ/ الكلام العادي)[٢]، ويعقب ويس "ولسنا ندري على وجه الدقة إن كان صمّود يرى في هذا ميزة للبلاغة، أو تقصيرا، أو إن كان يفهم من اهتمام البلاغة بالزوج الثاني، تناقضا مع الاهتمام بالزوج الأول، ويلوح من كلامه أنه يميل إلى ذلك"[٣]، وفي اعتقاد الدراسة أن صمّودا لا يناقش المسألة من حيث المزية أو التقصير، إنما يربط كل مذهب في القضية بسؤال الثقافة، وروح العصر، وهذا ما نلمسه في مناقشته للمشافهة والكتابية عند الجاحظ، وفي الأثر الذي تركته تصورات الجاحظ في البلاغيين من بعده، من ناحية اهتمامهم بجانب العبارة، وسكوتهم عن بقية أجزاء الخطاب، أما من ناحية التناقض الذي يفهمه عن صمّود، فإن صمّودا نفسه قد شعر -في معرض حديثه عن النظرية التواصلية، وهي من أبرز مقومات تصور الجاحظ للخطاب اللغوي- "عمق التناقض الذي تعكسه مؤلفاته بين دفاعه عن الكتابة والكُتَّاب، والبنية الثقافية المهيمنة التي اضطرته أن يعتمد على المشافهة في تأصيل نظريته البلاغية، رغم موقفه المبدئي الرافض لها"[٤].

---

(١) حمّادي صمّود، من تجليات الخطاب، ص٣٦١.

(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، الشعر وصفة الشعر في التراث، (فصول، مج٦، ع١، ١٩٨٥م)، ص٨٠.

(٣) أحمد ويس، ثنائية الشعر والنثر في الفكر النقدي، ص١٧٦.

(٤) حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٢٩٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

ولنا في حديثه عن المقامة أوضح دليل، وذلك في تصوره أن المقامة -في جانب من جوانبها- محاولة لرد التدافع بين النثر والشعر في تاريخ الكتابة العربية، وهو عنده تدافع "ظاهره أدبي، وأصله في التحولات العميقة التي كانت تجد بمفعول عوامل مختلفة متضافرة في بنية الثقافة والحياة عند العرب في نهاية القرن الثاني، وبداية الثالث"(١)، ومن هنا فإن أول ما نلاحظه، هو اتخاذ المعالجة المتعلقة بالأجناس الأدبية عند صمّود، بعدين:

الأول: بعد تأصيلي، يرجع فيه صمّود إلى التراث النقدي والأدبي، ممثلا في مدونات الجاحظ، قارئا ومستنبطا لما جمعه الجاحظ، ومتأملا في الإبداع الأدبي؛ ليعزز فكرة العودة إلى التراث، ومقترحا على المشتغلين -من خلال كتابه بلاغة الهزل وقضية الأجناس الأدبية عند الجاحظ- بالمسائل الأجناسية، النظر في مدى إمكان الاستفادة من الزوج التصنيفي الأشمل في الثقافة، وهو ثقافة الجد، وهي ثقافة القانون، والكتاب، والشرع، وثقافة الهزل، وهي فجوات في تلك الثقافة، ووظيفتها الترويح عن النفس، والخروج من دائرة الجد، وما تقتضيه صرامة القوانين، وتدعو إليه الإنسان من انصياع لتلك القوانين، والعمل بها إلى درجة التزَمُّت، يقول: "ولقد رأينا في هذا الزوج مقابلة بين القانون والحياة، بمعنى أن الجد يمثل الجانب الطقوسي الرسمي القانوني، في حين يمثل الهزل جانب الحياة بما فيها من زهو، ونزق، وميل

(١) حمّادي صمّود، ضمن حوار بعنوان: مناهج دراسة الأدب مكسب معرفي والنقد الثقافي تنويع على النقد الإيديولوجي، ص١١٣، ويضيف صمّود أن قراءة المقامات اتخذت اليوم أشكالا عديدة، من أهمها معالجتها في إطار قضايا الأدب، مشيدا بالأطروحة التي أشرف عليها: بسمة عروس، التفاعل في الأجناس الأدبية مشروع قراءة لنماذج من الأجناس النثرية القديمة، (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠١٠م)، وأكدت هذه الدراسة فكرة الكيمياء بين النصوص التي تعني تفاعل العناصر الأدبية، مولدة نصوصًا جامعةً وغنيةً، وتنطلق من فرضية أن الأجناس الأدبية والأنواع، بنى متحولة مهاجرة، بإمكانها الاستقرار في أنماط مختلفة، وقادرة على التغيير من أوضاعها؛ لتصبح في أوضاع جديدة، تلائم خصائص الثقافة والعصر.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

إلى ما تدعو إليه الميول والأهواء"[١].

الثاني: بعد نقدي، ينظر في المدونة التراثية بعين الحداثة، وكأن صمّودا يريد أن يلفت نظر النقاد إلى القضايا النظرية الواجب بحثها؛ إذ يقول في صدد حديثه عن نظرية الأدب عند العرب: "فنحن نمارس التجديد منذ نصف قرن، وليس في خطابنا النقدي ما يدل على أننا نتقدم بجدية نحو رسم ملامح نظرية في الأدب، ونهج في الكتابة"[٢].

يلج صمّود إلى قضية الأجناس الأدبية من خلال عرض ومناقشة بعض مظاهر الوعي بالتصنيف، ومقولاته الرئيسة عند الجاحظ في كتاب الحيوان. كما ذكر في سياق الدعوة إلى النظر في مدى إمكانية الاستفادة من الأزواج التصنيفية الأشمل في الثقافة العربية، كزوج الجد والهزل، الذي يرى فيه -من خلال طرح الجاحظ- إمكانية عدّه بنية مهمة وأساسية لكل المشاريع الأدبية التي تصاغ على مراعاة الإنسان حق الإله، وحق نفسه، وعلى أن الإنسان يتفكر في الأدلة الماثلة أمامه في الوجود؛ ليستدل منها بعلامات توصله إلى معرفة الخالق، والإيمان به؛ حيث وجد أن أول ترجمة فعلية للثنائية، هي المقابلة بين الجد من جهة، والهزل والمزاح والبطالة من جهة ثانية[٣]، ويورد صمّود مواطن عديدة في كتاب الحيوان، يعود فيها الجاحظ إلى المقابلة بين الجد والهزل[٤]، منتهيا إلى أن هذه الثنائية تشكل آلية مهمة في مشروع متعدد الجوانب، متكامل، غايته المقاومة؛ لبناء "التوحيد والإخلاص في الدين، على العقل والعلم، الناتجين عن الاعتبار بالنصبة، وجميع الأدلة التي لا تستدل بنفسها، ولكنها

(١) حمّادي صمّود، ضمن حوار البلاغة العربية وسؤال التجديد في تجربة حمّادي صمّود، ص١٢٤.

(٢) حمّادي صمّود، في نظرية الأدب عند العرب، ص١٥٠.

(٣) يُنظر: حمّادي صمّود، بلاغة الهزل وقضية الأجناس الأدبية عند الجاحظ، (تونس: دار شوقي للنشر، ط١، ٢٠٠٢م)، ص٧٢.

(٤) يُنظر: نفسه، ص٧٦ وما بعدها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

تمنح الفكر فيها"[١]. فالجد، يرتبط بالمنفعة والدين، ويولد سلسلة من الوظائف التي تنتمي إلى حقل التنبيه عن الغفلة، والتحذير من عاقبة الإقبال على الدنيا، "فيكون الجد بهذا الاعتبار، مندرجا في دائرة المقدس، منسجما مع مقتضياتها، واقعا في شروطها، [وهذا يستوجب] أن يكون سلوك المرء العقلي والعملي، منسجما مع هذه الخصال"[٢]، أما الهزل فمن "آداب الدنيا، يرغب فيها، ويدعو إلى الإقبال عليها، والتمتع بما توفره من عروضها"[٣].

ثم كان من لوازم هذا المشروع ومقتضياته "أن يكون جمهور المتعلمين الذين يتجه إليهم الكتاب، ويرغب المؤلف في كسبهم؛ ليكونوا له أتباعًا... وعلى قدر كثرته، واتساع دائرته، اختلفت الحظوظ من المعرفة، وتفاوتت قدرة الإدراك والتفكر"[٤]، من هنا فإن الداعي إلى هذه الثنائية، يرد إلى بنية أخرى أوسع، وهي: ما يحتاج إليه / ما لا يحتاج إليه، وهي ثنائية مكونة لنظام الحجة الذي استحدثه وصاغه الجاحظ؛ حتى يبرر مزجه بين الجد والهزل.

وهكذا يؤكد صمّود أن فكرة التصنيف في المطلق، لم تكن غريبةً على المؤلفين العرب في فترات مبكرة، وعند الجاحظ بشكل خاص؛ فالذي "استطاع أن يقيم جدولا للكائنات كما فعل الجاحظ في بداية الحيوان، لا يمكن أن يكون خالي الذهن من التصنيفية Taxinomia"[٥]، مؤكدا أنه يريد من هذه المقولات تبرير موضوعه، واختيار البحث في الوعي بالأجناس الأدبية. ومن أبرز مظاهر هذا الوعي ما يأتي[٦]:

---

(١) نفسه، ص٨٠.

(٢) نفسه، ص٨٩.

(٣) نفسه، ص٩٧.

(٤) نفسه، ص٨٠.

(٥) حمّادي صمّود، ضمن حوار البلاغة العربية وسؤال التجديد في تجربة حمّادي صمّود، ص١٢٣.

(٦) يُنظر: حمّادي صمّود، بلاغة الهزل وقضية الأجناس الأدبية عند الجاحظ، ص٤، وما بعدها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

-ذكر الجاحظ بداية لمصطلح الأجناس، وما يرادفه مما يدل على التصنيف، والتفريق، والتفريع، والتنويع، في صورة مجردة، لا تَسنُدُها تصورات نظرية، "فيقوم في النص دالا على القسمة والتبويب، دون أن تبرز أسس تلك القسمة، ولا مبررات التبويب"(١)، لكن هذا المصطلح جاء بصورة مترددة، غير واضحة.

-تعبير الجاحظ عن ثنائية الفصيح والأعجم؛ ففيه دلالة عميقة على الوعي بالتصنيف، يعدها صمّود المدخل الرئيس في نظرية البيان، وتُعَدُّ هذه الرؤية دالةً على جمع الجاحظ الأجماع والأنواع في قسم واحد، "أقام فيه الوظيفة والمعنى الأسنى، مقام المقولة التصنيفية"(٢)، ويشير صمّود إلى أن مقولة الجاحظ التي يعتقد أنها تحيط بتصوره للوجود، وتكشف غايته من التأليف (ووجدنا كون العالم بما فيه حكمة)(٣)

(١) نفسه، ص١٣.

(٢) نفسه، ص٩.

(٣) يقول الجاحظ: "ووجدنا كون العالم بما فيه حكمة، ووجدنا الحكمة على ضربين؛ شيء جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة، ولا عاقبة الحكمة، وشيء جعل حكمة، وهو يعقل الحكمة، وعاقبة الحكمة، فاستوى بذاك الشيء العاقل وغير العاقل في جهة الدّلالة على أنّه حكمة؛ واختلفا من جهة أنّ أحدهما دليل لا يستدلّ، والآخر دليل يستدل؛ فكلّ مستدلّ دليل، وليس كلّ دليل مستدلا، فشارك كل حيوان سوى الإنسان، جميع الجماد في الدّلالة، وفي عدم الاستدلال، واجتمع للإنسان أن كان دليلا مستدلّا، ثمّ جُعِل للمستدلّ سبب يدلّ به على وجوه استدلاله، ووجوه ما نتج له الاستدلال، وسمّوا ذلك بيانا". عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، ج١، ص٢٨. يكشف هذا النص -كما قرأنا تفسيره عند صمّود- عن ضربين من الأدلة؛ العاقل وغير العاقل، من كونهما دالين على الوجود، وإدراك الوجود يحتاج إلى تأمل ونظر وتفكر وتدبر، أما الأول فهو الإنسان؛ حيث ميزه الله Δ بالعقل، يستدل بالموجودات على تدبير الخالق، وهو ضرب "يهتدي بتلك الملكة إلى سر وجوده، وأبعاد وضعه، وسر التكوين في ذاته، فيستدل على ذلك ويعبر، وهذا القسم (دليل يستدل)"، أما الثاني، فهو الذي لا يعقل، وقد جعله الله حكمةً ودليلًا، "لا يدرك كنه تلك الدلالة، ولا قدرة له على الاستدلال؛ لأن ملكاته قاصرة عن ذلك، فشارك القسم الأول في الدلالة، ونقص عنه بالاستدلال". يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص١٥٨، ١٥٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

تحيط بتصوره للوجود، فيقسمه إلى موجودات في أصناف تخدم غرضه، ومشروعه الفكري، بشكل مباشر. يقول صمّود: "فالموجودات بالنسبة إلى هذه المقولة الأم صنفان؛ صنف أول جعل حكمةً وهو لا يعقل الحكمة، وصنف ثانٍ جعل حكمة، وهو يعقل الحكمة، وعاقبة الحكمة"(١).

-افتتاح الجاحظ بتصنيف الكائنات بوصفها الجنس الأعلى، مجريا التسميات على ما يقع في أصل المعنى في الوجود، ثم يتفرع في المعاقد والرؤوس ذات العلاقة بمضمون الكتاب.

-كثرة التعريفات والحدود بالمعنى المنطقي للحد، لما هو أداة تبين الفروق، وتَفصِل بين الأشياء.

-اعتماد الجاحظ التشبيه؛ للتقريب بين المتباعدات، والمقايسة؛ للتوضيح والتنظيم، "ولا تخفى على العارف بتاريخ العلوم، أهمية التشبيه في استخلاص القوانين والقواعد التي تطرد على الظواهر"(٢).

والجدير بالذكر أن صمّودا يستخدم آليات التحليل الأسلوبي لقراءة المعاني الخفية في خطاب الجاحظ، مؤكدا أنه خطاب واصف، يدل على وعي عميق بالفرق بين الأنواع والأجناس، ذكره بصريح عبارة التباعد باستخدامه بعض الأنماط اللغوية الدالة، من قبيل استخدامه الأداة (بين)؛ لعلوق البعد والبين بالأشكال التي عرفت بها هذه الأجناس.

ويقرر صمّود أن تحديد الشعر وقع "ضمن تصنيف كبير للأجناس الأدبية، يقوم على فعل واضح بين خصائص النوع، والقوانين الكلية التي تحيط بالأنواع"(٣)، وعنده

(١) حمّادي صمّود، بلاغة الهزل وقضية الأجناس الأدبية عند الجاحظ، ص١٠.

(٢) نفسه، ص٨.

(٣) حمّادي صمّود، في نظرية الأدب عند العرب، ص١٤٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

أن هذا التحديد أسهم في بقاء حركات التجديد في الشعر العربي محتفظةً بخصائص النوع وإن طورتها بشكل ما، كما حدث في فن الموشحات.

ويلاحظ صمّود أن كتاب الحيوان أبان عن حضور طرفين للكلام؛ طرف قار هو الشعر، وطرف متغير (غير الشعر)، وهو "النثر تارةً، وهو كلام العرب تارةً أخرى، وهو الكتاب تارةً ثالثةً، والرجز أحيانا"(١)، أما الشعر فيتجلى حضوره في شكلين(٢):

-شواهد شعرية يستمد منها الجاحظ معارفه عن الحيوان؛ لتكون حجة على ما يورد من مصنفات القدماء في موضوعه.

-يقوم عن الشعر خطاب نقدي فيه إشارة إلى مسائل متصلة بتكوين جنسه، وبما طرحته صناعته من قضايا خلافية ناتجة عن اختلاف الأزمنة، وتنوع الأنظمة.

ويشير صمّود إلى عدد من القضايا النظرية التي يقرها الجاحظ(٣)، والتي عملت الدراسات اللاحقة على تطويرها، فيذكر الحد والتعريف، والخصائص المميزة للشعر؛ كحديثه عن الوزن، والقافية، والطبع، والتصوير، وتعذر ترجمته، وتمييزه بين الشعر والرجز، ومنها ذكره لمواقف من الشعر لها علاقة بالكذب والسرقات، وفي حديثه عن بعض الأغراض الشعرية، وتصنيفات أجناسية داخل جنس الشعر نفسه؛ كشعر التسخف، وما أطلق عليه شعر المذاكرة، وبعض المواقف النقدية التي يعالج الجاحظ من خلالها بعض خصائص الشعر، إلى غير ذلك من القضايا التي يرصدها صمّود؛ ليخلص من خلالها إلى أن الشعر يمثل "النمط الأوفى، والجنس الذي شُحِذت على مِسَنِّه ملكات العرب في القول، وعلى إيقاعه صرَّفوا الكلام، وأجروا اللغة، حتى ملأ

(١) حمّادي صمّود، بلاغة الهزل وقضية الأجناس الأدبية عند الجاحظ، ص٢٥.

(٢) يُنظر: نفسه، ص١٨.

(٣) يُنظر: نفسه، ص٢٠، وما بعدها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

أفقهم الأدبي"[١]، ملاحظا أن بعض الأنواع التي كان الجاحظ يدرجها ضمن الشعر، لا تُعَدُّ شكلًا وبنيةً خاصةً بالشعر، بل هي أقرب إلى أن تكون أثرًا عن الشعر، أو بعبارة صمّود "أثرًا عن خطاب"، منتهيًا إلى أن المادة المتعلقة بجنس الشعر، صيغت في كفاءة نظرية عالية، أهَّلَتْها لأنْ تكون أساسًا لما صيغ بعدها في السياق النقدي[٢].

ويخرج صمّود عن التقسيم الذي اقترحه في غير الشعر، إلى جنس النثر بشكل خاص، فترد العبارة عن النثر مركبةً من الكلام بجعله جنس الأجناس، أو الجنس الجامع، كما ميز الجاحظ بين صنفين من جنس النثر، (الكلام المنثور المبتدأ، والكلام المنثور الذي تحول من موزون الشعر)، مستنبطا بعض الدلالات المهمة من قبيل قوله إن الشعر كان مولدا لجنس من النثر، يقع الحصول عليه بترجمة المعنى، وتخليصه مما يدخله في الشعر، ويقصد الوزن والقافية، وبعض المجازات والتصاوير[٣]، ثم إن النثر جاء عند الجاحظ على نوعين؛ النثر التخييلي، ومنه (الخرافة، والرواية، والقصة، والْمُلَح والنوادر). وما يطلق عليه صمّود النثر العقلي، وصنّف ضمنه (الخطبة، والحكمة، والموعظة، والمثل، والترسل)[٤].

يجد صمّود أن ما ورد في البيان والتبيين عن الأنواع النثرية، جاء متواضعا بالنسبة للنصوص التي يضمها الكتاب، وهذا أمر غريب، خاصةً وأن الخطبة تتفق مع السياق العام للظروف السياسية والفكرية في ذلك الوقت؛ فقد ساعدت "على بسط نفوذه حتى على الشعر، ودعت بعض تلك الظروف الجاحظ إلى تأليف كتاب داخل الكتاب، فيه ينتصر للعرب على بقية الأمم في اختصاصها بذلك النوع أو الجنس، وحسن تأتِّيها له، وسهولة مجيئه إليها بما لم يتوفر لغيرها"[٥].

(١) حمّادي صمّود، بلاغة الهزل وقضية الأجناس الأدبية عند الجاحظ، ص٢٤.

(٢) يُنظر: نفسه، ص٣٢.

(٣) يُنظر: نفسه، ص٣٣.

(٤) يُنظر: نفسه، ص٣٦، وما بعدها.

(٥) نفسه، ص٤١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وعلى كل، فإن صمّودا ينتهي إلى ضآلة المادة النظرية المصاحبة لأنواع المنثور الواردة مع عمق صلة هذا النوع بحياة العرب. وبشكل عام فإن تلك الملامح رغم وضوحها، لم تحمل وصفا لمضمون وشكل الأجناس الواردة، وهو عند صمّود أمر يثير الحيرة، خاصةً أن بعض تلك الأنواع معروفة منذ الأزل.

وعند النظر في البنية الثقافية للمجتمع العربي الإسلامي، وطقوس الكتابة، والتدافع الحاصل بين الشعر والنثر، يجد صمّود أن الشعر عنوان ثقافة المشافهة المرتكزة على الذاكرة، وعلى ما يرسخ في الذهن، بينما يشير المكتوب إلى ما أطلق عليه (بلاغة القلم)، وعنده أن هذه البلاغة تقتضي طقوسا وعادات معينة، تختلف عن بلاغة الشعر؛ لأنها تحمل ثقافة تقوم على العقل، كما تحمل علوما تناقلتها الحضارات على مدى عصور متعددة، أما الشعر فلو تحول، لذهبت معجزته الممثلة في الوزن، "لهذا كانت العلاقة بين النمطين، علاقة توتر، وحيطة، واحتراز، ومن حين إلى حين يطفو التنافس إلى السطح، فيتحول إلى دفاع عن الشعر، وحط من قيمة النثر"(١)، ويؤكد صمّود أن التدافع بين النمطين إنما هو تدافع بين بنيتين ثقافيتين مختلفتين؛ "بنية أصلية، قوامها الشعر، وبنية دخيلة متسربة، قوامها النثر، ولا سيما أننا نجد البنيتين في قلب الصراعات، وواسطة التوترات التي انتابت المجتمع العربي الإسلامي إلى عصور متأخرة"(٢)، ويقوي صحة مذهبه ما وجده من إسهامات أجنبية في إرساء قواعد النثر، فيما يتعلق بآداب الملوك، وسياسة الرعية، وتقاليد السياسة، كان المهم في هذه الأثناء التي اطلع فيها العرب على ثقافة الغرب، أن أدركت الثقافة العربية قصور أداتها الثقافية بدايةً من شعور الجاحظ بالفارق بين الثقافتين -العربية والغربية، ومناداته بضرورة التحول من عهد الشعر إلى عهد النثر؛ فالمجتمع الجديد لا يمكنه أن يبني كيانه بالشعر وحده، ولا مناص من التحول عن أزمنة الشعر، إلى أزمنة الحكمة،

(١) حمّادي صمّود، الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة، ص١٧.

(٢) حمّادي صمّود، في نظرية الأدب عند العرب، ص١٢٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

والبحث، والتقصي[١]، وكما عبر صمّود "على هذا النحو... يتبين أن الصراع أصله دفاع بنية عن ذاتها، ووقوفها في وجه عوامل الخلخلة التي جاءت تهدد كيانها"[٢]، ويربط ذلك بظهور النثر الفني في أواخر القرن الثالث، والقرن الرابع، وقد دأب الباحثون على ربطه بالحياة المدنية الجديدة، ومظاهر الترف، لكن صمّودا يتجاوز السائد بطرح تساؤل مفتوح، "ألا سبيل إلى اعتبار ذلك صورةً من صور الصراع، غرضها رد النثر إلى الشعر، بإغراقه فيه، وتطويقه بوسائله، ومن ثم رد الاختلاف إلى الائتلاف، والمتعدد إلى المفرد؛ تعبيرا من تلك الثقافة عن رفضها الخروج عن دور الشعر الذي شبت على غنائيته؟"[٣].

التلقي البلاغي والنقدي لتصنيف الجاحظ:

الواقع أن معالجة صمّود لمقولة الأجناس الأدبية، تأتي منسجمةً مع النسق البلاغي والحجاجي الذي أراد أن يقرّه، ويبين معالمه. لذلك نجده يرى أن تركيز الجاحظ على جنس أدبي بعينه، إنما يأتي مرتهنا بظروف العصر، ومتطلبات الوضع الثقافي. بالتالي، فإن الأثر الذي تتركه تصورات الجاحظ باعتباره رائد البيان العربي، يأتي على هيئة التطور الطفيف، والنمو البطيء لتلك التصورات، كل هذا شريطة ارتباط النوع الأدبي بالظرف الثقافي.

والمهم عند صمّود هنا، وفي هذا السياق، ليس ما وصل إليه الجاحظ، إنما المهم كيف فهم البلاغيون والنقاد منظومة الجاحظ؛ فلقد كانت القراءات الموالية لقراءة الجاحظ، تزاوج بين الشعري والخطابي، ومن واقع تجربة صمّود في قراءة التراث الشعري والبلاغي كما يسميه، يجد أن التأليف في الثقافة العربية لا يفصل بين النوعين، يقول صمّود: "فإن وضع أحدكم في سنة من السنوات أو في مستوى من

(١) يُنظر: نفسه، الصفحة نفسها، وما بعدها.

(٢) حمّادي صمّود، في نظرية الأدب عند العرب، ص١٢٣.

(٣) نفسه، ص١٢٤.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المستويات، مسألة في البلاغة... فإنه يحتار فيما يرشح من المصادر، وما يقصي"[١]، ومن أدلته على ما يذهب إليه، أن العمري يرصد الوجوه البلاغية عند ابن رشيق في كتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده، في سبع وثلاثين ومائة صفحة في البلاغة الخالصة.

ويدلل صمّود أيضا على صحة ما يذهب إليه، أن موقف البلاغيين والنقاد من الصورة الفنية ممثلة في التشبيه والاستعارة، جاء مرتبطًا بقضايا الإيضاح والبيان، والإبانة والكشف عن المعاني، وهذا ما كشف عنه صمّود في معالجته للمقولات التراثية -كما مر بنا في الفصل الثاني من هذه الدراسة- يقول صمّود: "فالصورة تصبح إذن آلة للكشف، وزيادة الإيضاح والتبيين، ومن هذا نجمت في مؤلفاتهم تلك الطريقة في ترجمة الصورة إلى مقابلها؛ فـ(ٹٹٹٹٹٹٹٹٹٹ) [مريم:٤] تصبح: إني هرمت، ووصلت إلى أرذل العمر"[٢].

لذلك يجد صمّود -على سبيل المثال- أثرًا لهذا الفهم عند عبدالقاهر في الدلائل، يتجلى ذلك في حديث عبدالقاهر عن معاني الفصاحة، والبلاغة، والبيان، والبراعة، وهو كما يذهب صمّود حديث من لا يرى لها معنى أكثر من المعنى الذي تعطيه أصناف الدلالات الخمس، وطريقة من يقيس الفصاحة بالتلفظ، فيكون المتكلم "جهير الصوت، جاري اللسان، لا تعترضه لكْنَةٌ، ولا تقف به حُبْسة"[٣]، وطريقة اللغويين الذين يهمهم أمر الصحة المطلقة، وألا يلحن المتكلم، وهكذا يجد صمّود أن في تراجع المقاييس المتعلقة بالتلفظ، دلالةً على تطور الأجناس الأدبية بين القرنين الثالث والخامس تحديدا، وبالتالي على تطور مظاهر التفكير البلاغي، وتغير مقاييسه، تبعا

(١) حمّادي صمّود، القوانين البلاغية ومقولة الجنس الأدبي، (تونس: ضمن أعمال ندوة مشكل الجنس الأدبي في الأدب العربي القديم، ١٩٩٣م)، ص٣١١.

(٢) حمّادي صمّود، القوانين البلاغية ومقولة الجنس الأدبي، ص٣١١.

(٣) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٥٤.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

لتغير الجنس الأدبي المعتمد، وطريقة التعبير عن الثقافة السائدة من خلال هذا الجنس الأدبي(١).

وعلى هذا فإن التلقي البلاغي والنقدي قد فهم أن منظومة الجاحظ تقوم على أن المهم هو الكلام، والحديث عن خصائصه، بصرف النظر عن تصاريفه، وطرق إجرائه، وعن الأجناس والأنواع التي يأتي في صورتها ذلك الكلام، ومعنى ذلك أن نصوص الجاحظ واهتمامه بالمقامات المختلفة، تلك المقامات المتجلية في النصوص التي جمعت من مصادر شتى، وأزمنة متعددة، إن هذه النصوص المؤسسة أسست لمقاييس الأدب والشعر، "ولعل أهم أمر أثر به الجاحظ في الخلف، هو اعتبار القوانين البلاغية قوانين عامة مطلقة، وعدم القول بارتهان القوانين البلاغية بأنواع الكتابات وأنماطها، فما يجري في البلاغة إنما يجري على الكلام، بقطع النظر عن جنسه ونوعه"(٢).

❑ رابعًا: الموقف من المقاربة الثقافية:

شهدت الساحة الفكرية والنقدية تطورًا منهجيًّا وتقنيًّا متواصلًا؛ نتيجة التراكمات المعرفية، والتحديثات الفكرية المستمرة، وهنا أخذ العقل العربي يستفيد من المنجزات السابقة؛ عربية وغربية؛ ليكون لنفسه مقاربات تلائم طبيعة خطاباته، وتيسر عملية قراءتها، وتفكيكها، وتحليلها، فوجد ثلة من الباحثين أنفسهم في خضم التحولات والتحديات المعرفية، التي يجابهها العلم في العصر الحديث، فحملوا الرغبة في التحديث، وبناء مجتمع معرفي يمتلك القدر الكافي من الحرية، فشهد المسار النقدي "تحولا فريدا من نوعه؛ تمثل في التحول من نقد النصوص، إلى نقد الأنساق، بعبارة أدق من النقد الأدبي إلى النقد الثقافي، [وهو] يتعامل مع الأدب على أنه نسق ثقافي

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب، ص٤٦٢.

(٢) حمّادي صمّود، القوانين البلاغية ومقولة الجنس الأدبي، ص٣١٢.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

يؤدي وظيفة نسقية ثقافية تضمر أكثر مما تعلن"[١]، والنقد الثقافي كما استقر في الدراسات المعاصرة "نشاط فكري يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعًا لبحثه، وتفكيره، ويعبر عن مواقف إزاء تطوراتها، وسماتها"[٢].

ويعد الناقد عبدالله الغذامي (وُلد ١٩٤٦م)، رائد الاتجاه في العالم العربي؛ حيث كان قد أعلن موت النقد الأدبي؛ ليحل محله النقد الثقافي، يقول الغذامي في مقدمة كتابه: "كانت دعوتي بإعلان موت النقد الأدبي، وإحلال النقد الثقافي مكانه، في تونس في ندوة عن الشعر عقدت في ١٩٩٧/٩/٢٢م، وكررت ذلك في مقالة في جريدة الحياة (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٨)"[٣]، ويعيد الدارسون فكرة موت النقد الأدبي إلى (تيري إيجلتون)، أحد أشهر كتاب النظرية النقدية في بريطانيا[٤]؛ إذ أعلن ذلك في كتابه (نظرية الأدب)، "وقد طرح هذه الفكرة؛ سعيا لتثبيت دعائم النقد الثقافي، الذي اعتبره بديلا للنقد الأدبي، وتبعا لذلك فقد هاجم الأدب، وعده نخبويًّا وقمعيًّا، ووجه اهتمامه نحو وسائل الإعلام والاتصال"[٥]، على أساس أن هذه الوسائل أكثر مصادر المعرفة سيطرة على العالم اليوم.

والذي يظهر أن الغذامي -كما يرى أحد الباحثين- كان بعيدا عن ادعاء أنه المبشر الأول، منطلقا مما أطلق عليه الذاكرة الاصطلاحية للمشروع، "فيبدأ من كيفية فهم العمل الأدبي، تلك الكيفية التي مرت بسلسلة متواصلة من التصورات، بداية بـ

(١) سميرة حدادي، اليامين بن تومي، التلقي العربي للنقد الثقافي بين التجاور والتحاور. الممارسة النقدية الثقافية عند إدريس الخضراوي نموذجًا، (المدونة، مج٧، ع٢، ٢٠٢٠م)، ص٦٦٧.

(٢) سعد البازعي، ميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، ص٣٠٥.

(٣) عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص٧.

(٤) من أشهر كتبه: (النظرية النقدية، والنقد والإيديولوجيا، وفكرة الثقافة).

(٥) نزار جبريل السعودي، تفاعل النقد الثقافي مع المناهج النقدية والمعارف المتعددة: قراءة لأهم المفاهيم الرئيسية، (الإمارات: مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج١٤، ع٢، ١٤٣٩هـ)، ص١٩٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

(ريتشاردز)، مرورا بـ (بارت)، وصولا إلى (فوكو)؛ حيث أصبحت الممارسة النقدية تهدف إلى تأسيس وعي نظري في نقد الخطابات الثقافية، والأنساق الذهنية"[١]، وهكذا حتى وصلت الممارسة إلى ما بعد البنيوية، وما بعد الحداثة، وما بعد الاستعمار، "إلى راهن الثقافة؛ حيث التاريخانية الجديدة، والنقد الثقافي"[٢].

وعلى الرغم من الأطروحات المضادة لنقد الغذامي، وكثرة المقالات المشتغلة على دحض فكرة النقد الثقافي ذاتها، ظل الغذامي مدافعا عن جدوى تصوراته، مناظرا لإثبات سلامة منهجه "باعتباره نموذجًا فعالا، وشاملا لقراءة النص، والكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة داخل البنية اللغوية للنص المقروء"[٣]، ويجمل الغذامي غايته في "نقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته، وأنماطه، وصيغه، ما هو غير رسمي، وغير مؤسساتي"[٤]، أما عن البلاغي والجمالي، فالنقد الثقافي يهتم "بكشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي والجمالي، وكما لدينا نظريات في الجماليات، فإن المطلوب إيجاد نظريات في القبحيات"[٥].

ويستند النقد الثقافي إلى مجموعة من الأسس النظرية، والتقنيات الإجرائية، التي تيسر عملية قراءة النصوص والكشف عن أنساقها، ولعل من أهمها ما يلي[٦]:

---

(١) عبد الله إبراهيم، النقد الثقافي مطارحات في النظرية والمنهج والتطبيق، ضمن كتاب عبد الله الغذامي والممارسة النقدية والثقافية، مجموعة من المؤلفين، (الأردن: دار الفارس للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٣م)، ص٤٠.

(٢) نفسه، ص٤٠.

(٣) محمد الكحلاوي، النقد الثقافي إشكال المنهج ومأزق النظرية، (تونس: يتفكرون، ع٩، ٢٠١٦م)، ص٢٨٧.

(٤) عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص٨٤.

(٥) نفسه، الصفحة نفسها.

(٦) يُنظر: جميل حمداوي، النقد الثقافي بين المطرقة والسندان، (المغرب: مجلة الملتقى، ع٢٧، ٢٠١٢م)، ص١١٩-١٢٠.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

– طرح أسئلة ثقافية جديدة كسؤال النسق بدلا من سؤال النص، وسؤال المضمر بدلا من سؤال الدال، أي طرح أسئلة ثقافية مركزة ودقيقة.

– الانطلاق من النص أو الخطاب، بعدّه حاملا للعلامات الثقافية التي ينبغي التعامل معها؛ لفهمها، وتفسيرها، وتأويلها.

– الانطلاق من النصوص والخطابات الأدبية، بالمعنى الفني لاستكشاف أنساقها المضمرة.

– رصد حيل الثقافة التي تمرر عبر أنساق النصوص، وفي هذا تأكيد على أن النص الأدبي يحمل أنساقا ثقافية مضمرة، وغير واعية، يجب الوقوف عليها.

– الاستفادة من الآليات البلاغية التي ترتبط بالثقافة من مجاز كلي، وتورية نسقية.

– تغير وظيفة النص، فلم تعد الشعرية، أو الجمالية - كما يقول رومان جاكبسون في نظامه التواصلي-؛ بل هي الوظيفة النسقية الثقافية.

– الاهتمام بالمضمر الثقافي، بدلا من الاهتمام بالدوال اللغوية ذات الطبيعة الحرفية.

– الانتقال من مرحلة الفهم إلى مرحلة التأويل الثقافي.

ومع رغبة حمّادي صمّود في إعطاء الظواهر الفكرية والثقافية ما تستحقه من عناية واهتمام، فإنه يدلي بدلوه، مشاركا في التعبير عن تصوراته إزاء النقد الثقافي، **ويهمنا في هذا السياق تركيز صمّود على حقيقتين مرتبطتين -في نظره- ثابتتين عن النقد الثقافي، تتعلق الأولى بظهور النقد الثقافي، أما الثانية فمتعلقة بماهيته.. وهما[1]:**

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، حوار بعنوان: مناهج دراسة الأدب مكسب معرفي والنقد الثقافي تنويع على النقد الإيديولوجي، ص١١٥.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

-أن ظهور النقد الثقافي في الأوساط الأمريكية، جاء بعد أن مورس في الأوساط الفرنسية في الستينيات على وجه الخصوص. إذ يرى أن استقرار المصطلح خاص في الغالب بالثقافة العربية، والمشرقية منها بوجه خاص. حيث لم تعرفه الثقافة الغربية بمسمى النقد الثقافي(١). فهو "مركب إسنادي وصفي، شطره الأول في دلالته أصبح من البديهيات، وشطره الآخر لاحقة مائزة له عن غيره، تعنيه من دون غيره من أنواع النقد السابقة له، ولاحقة الثقافي التي سمي بها هذا النقد... [ترتبط] كثيرا بالحمولات الدلالية لكلمة ثقافة"(٢).

-أن النقد الثقافي ما هو إلا تنويع على النقد الأيديولوجي، الذي كانت تمارسه بعض الاتجاهات النقدية المستندة إلى تحليل الخطاب.

أما الأولى، فيذهب صمّود إلى أن الأوساط الفرنسية التي عرفت بالتجديد، لم يَرُجْ فيها النقد الثقافي بهذا الاصطلاح، فلم يقف عليه عند أعلام ترجمت أعمالهم إلى

(١) يُنظر: حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص١٠٥.

(٢) عبدالله حبيب التميمي، سحر كاظم الشجيري، سيرورة النقد الثقافي عند الغرب، (العراق: مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، مج٢٢، ع١، ٢٠١٤م)، ص١٦٠، ويذكر الباحثان أن النقد الثقافي استفاد في تكوين مفهومه من جملة الدلالات التي تحملها كلمة الثقافة، ومن أهمها:

- إن الثقافة مفهوم عام، له وجوده المتجذر في المجتمعات الإنسانية كافة.
- تعنى الثقافة بنشاط الإنسان، ونتاجه المعنوي والمادي.
- الثقافة هي كل مكون من أجزاء، وهي مجموع النشاطات الفردية؛ لهذا فإنه لا يمكن إلغاء أو تهميش الفرد.
- تتسم الثقافة بخصوصية الحالة الفردية، ثم انطباقها على نمط إنساني أرحب.
- للثقافة وجودها الآني والزماني.
- للثقافة منابع تمدها، وتستمد منها، هي الدين، والسياسة، والاقتصاد، والتاريخ.
- الثقافة قيم وأعراف وتقاليد وسلوكيات وأنشطة تسود في مجتمع ما، تتبدل وتتغير، فيها الجدي، وغير ذلك.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الإنجليزية، وعلى هذا فإنه يرى أن هذا الفهم حصيلة تفاعلات في ثقافة ما، ثم هو ممارسة مارسها النقاد الفرنسيون، إلى أن خَفَتَ بريقها، فبرزت في التقاليد الأنجلوسكسونية، والأمريكية، إزاء اكتشاف علوم اللسان والإنسان.

ولقد حرص حمّادي صمّود على ملامسة إشكالية النقد الثقافي من بعيد، دون الدخول في أغواره، ومكامنه، ولعله في ذلك يتبع المدرسة الفرنسية في النقد، التي استقى منها معارفه النقدية. حيث استهل حديثه بالقول إن مفهوم النقد الثقافي الرائج في الدراسات النقدية في المشرق العربي، هو مفهوم غائب في المغرب العربي؛ نتيجةً لأنه مفهوم غير معروف في الدراسات النقدية الأوروبية التي يتصل بها المغاربة بشكل مباشر؛ فهو مفهوم مرتبط بالبيئة الثقافية الأمريكية، ولم يستقر بعد. حيث تعدّ المدرسة الأمريكية في النقد المعروفة بالتاريخانية الجديدة، واحدة من إفرازات النقد ما بعد البنيوي التي توجه اهتمامها للبحث عن التأثير الأيديولوجي، وصراع القوى الاجتماعية، في تشكل النص الإبداعي؛ فهي مدرسة نقدية تبحث عن الإطار التاريخي والثقافي لتشكل هذا النص، ويعبر هذا الاتجاه النقدي عن "تجمعات من النقاد، وأصحاب النظريات الذين رفضوا المناهج التزامنية، أو الآنية، المستعملة في دراسة الثقافة والأدب... ومن ثم حاولوا التوصل إلى إجابات مقنعة للعديد من الأسئلة الناشئة عن التضارب بين المناهج الأدبية، والمناهج الثقافية، والمناهج التاريخية المستعملة في دراسة شتى ألوان النصوص"(١)، وهو ما يفهم من تصريح الغذامي بمقولة: أرخنة النصوص، وتنصيص التاريخ(٢).

والسؤال المهم هنا يتعلق عند صمّود بأسباب اختلاف منطق تولد الظواهر من مجتمع إلى آخر، واختلاف ترتيبها الزمني؛ فتأتي نهاية ظاهرة؛ لتمثل بداية في مجتمع آخر، وإن كانت بشيء من التجديد، والتغيير الطفيف، كما هو الحال بين الممارسة

(١) محمد عناني، المصطلحات الأدبية الحديثة، (القاهرة: الشركة المصرية العالمية، لونجمان، ط٣، ٢٠٠٣م)، ص٦٠.

(٢) يُنظر: عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، ص٤٥.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

النقدية الأيديولوجية الفرنسية، والنقد الثقافي الأمريكي. فالتمعن فيما تضمنته مقالة حمّادي صمّود حول المقاربة الثقافية للشعر، تحيلنا على مختلف المناهج والنظريات النقدية الغربية، بوصفها جذورا لهذا النوع من المقاربة؛ سواء في بنائها النظري، أو في تطبيقاتها للنصوص الشعرية؛ فلقد انتقل صمّود من النقد اللساني البنيوي، وما تناسل منه من مناهج حداثية على غرار السيميائية والتفكيكية؛ ليعرج على مفاهيم متاخمة؛ كالتاريخانية الجديدة، والنقد الجديد الأميركي، والنقد الماركسي، والتحليل النفسي، ويختم هذا العرض بالحديث عن تحليل الخطاب، والتداولية التي ابتلعت بمنهجها كل تلك المناهج في مقاربتها للشعر، بوصفه من مراتب القول اللغوي. ومن هنا فقد سعى صمّود إلى "تحديد الإطار المعرفي، أو السياق الفكري الذي ظهر فيه المصطلح، بل الذي جعل ظهوره ضرورة علمية"(١).

وقد شاعت الممارسة النقدية الثقافية في الآداب الأوروبية تحت مسميات، منها: (النقد الأيديولوجي، والنقد الماركسي، النقد المتصل بالتحليل النفسي، النقد الاجتماعي)، وقد أكد صمّود أن الثقافة الفرنسية وإن لم تعرف النقد الثقافي بنظريته المستقرة، إلا أنها مارسته بجعله أسلوبا في التحليل، فضلت عند الحديث عنه أن تتحدث عن تحليل الخطاب "بدون أن تُعيّن الحقل الذي يصرف ذلك الخطاب باعتباره مقولة جامعة تخترق المعرفة الإنسانية برمتها؛ إذ لا وجود لموجود خارج اللغة، وإن كانت تتسم جزئيا على الأقل بخصائص المجال الذي تتكفل بتأديته"(٢)، وإن لم تظفر الدراسة بأمثلة جليّة يمكن أن يُنصّ عليها لفهم ما يعنيه صمّود بالممارسة الفرنسية، أو بتحليل الخطاب بهذا المفهوم الفضفاض المتسم بالتعميم، يمكن أن يُفهم -استدلالا بالحقيقة الثانية التي يوردها صمّود- أن ثمة نماذج نقدية شكلت هذه الممارسة، من قبيل نقد الأدب من المنظور الماركسي، وإتاحة الفرصة للعلوم الاجتماعية والتاريخية؛

(١) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة والثقافة العربية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط٨، ٢٠٠٧م)، ص١٠٩.

(٢) حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص١٠٤.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

ليفيد منها النقد الثقافي، ومناقشة أعمال لوكاتش، وربط النظريات الجمالية بمفهوم الطبقات الاجتماعية ومعالجة علاقة الأدب بالواقع وبالالتزام الحزبي والسياسي لدى الأدباء أمثال سارتر، ومناقشة القضايا والأحكام الموجهة ضد كتاب مثل فلوبير، وبودلير عبر مناقشة مسألة الخلط بين الإبداع والواقع. ومناقشة دور المسرح في حركات الثوار إبان الثورة الفرنسية ١٧٨٩م. يمكن عدّ هذه المناقشات والنماذج ممارسات ثقافية على أن النقد الفرنسي عمل على الاستفادة منها؛ لجعل الخلق الأدبي محض حالة، أو قضية اجتماعية تابعة لثقافة مجتمع ما(١).

وخلص حمّادي صمّود إلى أن كل تلك الإرهاصات التي أسهمت في نشأة النقد الثقافي، قد صبت في اتجاه تكوُّن نوع من النقد التحليلي للخطاب، قصد الكشف عن أبعاده الأيديولوجية، والثقافية، والأنثروبولوجية، وأدت إلى انفتاح مفهوم النص، وتجاوزه الحدود التقليدية، وإلغاء ما بين الأجناس الأدبية من فروق، بل تجاوزت النص الأدبي إلى معالجة كل أشكال الخطاب الأخرى، ووضعها على قدم المساواة، وهو ما يراه صمّود مشابها إلى حد كبير للواقع الذي وصلت إليه التداولية، وعلم تحليل الخطاب، فقد أصبح المهم هو "الوقوف على آليات ناجعة لتحليل جميع الخطابات، مهما كانت الدوائر التي تنتمي إليها، والوظائف المعلقة عليها؛ لاعتقاد أصحابها أن وراء اختلافها الظاهر، خصائص تجمع بينها، تكاد تكون مطردة، كشفت عنها التطورات الفكرية الجديدة التي أتى بها ما يسمى بعصر ما بعد البنيوية"(٢).

وقد عدَّ صمّود النقد الثقافي مرحلة أخيرة ولدتها الأوضاع الفكرية والسياسية التي عرفتها الأوساط الجامعية الأمريكية في الستينيات. ويذهب إلى عدِّ مصطلح النقد الثقافي، وعلاقته بالنص الأدبي إنما هو نتاج أمريكي بامتياز. فقد رفض المثقفون

(١) يُنظر: ليدا منصور، النقد الأدبي في فرنسا بين التحليل الإيديولوجي الجاهز والتحليل الحر، (فصول، ع١٠٦، ٢٠٢١م)، ص٤١٧.

(٢) حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص١١١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الأمريكيون القاطنون بمدينة نيويورك منح جائزة بولنجتون في عام ١٩٤٩م للشاعر عزرا باوند؛ لأنه كان مؤيدا لموسوليني وهتلر في الحرب العالمية الثانية: "ويعني هذا أن هؤلاء المثقفين كانوا ينطلقون من مسلمات ثقافية، وسياسية، وأخلاقية، أكثر من انطلاقهم من مرتكز النص أو الخطاب بعدّه علامة ثقافية، وسياقية، تحمل مقاصد مباشرة وغير مباشرة، قبل أن يكون علامة جمالية، أو فنية، أو شكلية. ومن ثم، يهدف النقد الثقافي إلى كشف العيوب النسقية التي توجد في الثقافة والسلوك، بعيدا عن الخصائص الجمالية والفنية"(١).

وتذكر الدراسات أن تاريخ النظرية النقدية الثقافية، يرتبط "بمدرسة فرانكفورت، وبروادها أمثال: هوركهايمر، أدورنو وماركيز، وفي الوقت الراهن بهابرماس، وهي نظرية سوسيو ثقافية نقدية، هاجر أغلب أعضائها إلى الولايات المتحدة، وظلت أدبياتها هامشية حتى عادت إلى الظهور مرة أخرى في الستينيات والسبعينيات"(٢)، ويشير الباحث حفناوي بعلي إلى أن هذه المدرسة اهتمت في سياق

(١) جميل حمداوي، النقد الثقافي بين المطرقة والسندان، ص٩٥.

(٢) حفناوي رشيد بعلي، مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب، (الأردن: دروب للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١م)، ص١٤٦، ومدرسة فرانكفورت إحدى أهم المدارس الفلسفية الغربية المعاصرة، اكتسبت أهميتها لتنوع كتاباتها، واختلاف مرجعياتها الفلسفية الكبرى؛ فمنها ما يرجع إلى فلسفة كانط، ومنها ما يرجع إلى هيغل، أو ماركس، ومنها الفلسفة الفرويدية، واكتسبت تميزها من اتخاذها النقد منهجا، محاولة سبر غور الحضارة الغربية في أسسها المتحولة إثر تيار الحداثة، وهذا ما حدا بالنظرية النقدية لهذه المدرسة أن توجه انتقاداتها للمفاهيم المؤسسة لهذه المجتمعات الغربية من قبيل العقلانية، والحرية، والتقدم العلمي، والتقني، وما ارتبط منها من نزعات وضعية وعلموية، واشتغل رواد هذه المدرسة على نقد المجتمعات، ونقد أسسها الإيديولوجية؛ رغبةً في الكشف عن الآليات الفكرية، والسياسية، التي توجه هذه المجتمعات. يُنظر: كمال بو منير، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث، (الجزائر: منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠١٠م)، ص٩، ١٠.

⇦=

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

النقد الثقافي، بنقد الثقافة، من خلال نظرية تلتقي بنظريات ما بعد الحداثة في انتقادها الفلسفات التقليدية، ممثلة في النظريات الاجتماعية، وإفادتها من الخطابات غير المتخصصة في انتقاد الحداثة، والمناداة بالحرية، كما وظفت جملة المعطيات النظرية؛ اجتماعية، وفلسفية، وفنية أيضا؛ للكشف عن خبايا الخطابات المهيمنة.

وفيما يتعلق بالحقيقة الثانية الثابتة لدى صمّود، المتعلقة بكون النقد الثقافي تنويعا على النقد الأيديولوجي، فترتبط -كما أسلفت الدراسة القول- بالحقيقة الأولى، وتعني أن النقد الأيديولوجي سابق في الظهور على النقد الثقافي، وهذه حقيقة يمكن إدراكها في مختلف النظريات النقدية؛ إذ لا توجد في الغالب "طروحات نقدية لم تقع تحت تأثيرات أيديولوجية معينة"(١)، ثم إن دراسة "الصلة الرابطة بين النقد والأيديولوجيا مشروع سنته النظرية الماركسية، إذ تبدو العلاقة بينهما ثرية؛ لأن

= ورواد مدرسة فرانكفورت النقدية هم:

- (ماكس هوركهايمر ١٨٩٥-١٩٧٣م)، تُرجم له إلى العربية: بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية، والنظرية التقليدية، والنظرية النقدية.

- (تيودور أدورنو ١٩٠٣-١٩٦٩م)، تُرجم له إلى العربية: جدل التنوير، ومن أهم الأعمال العربية التي تناولت فلسفته، كتاب: (ثيودرو أدورنو من النقد إلى الاستطيقا لمجموعة من المؤلفين، ٢٠١١م).

- (هربرت ماركيوز ١٨٩٨-١٩٧٩م)، تُرجم له إلى العربية: الإنسان ذو البعد الواحد، العقل والثورة، ولفؤاد زكريا كتاب يحمل اسم هربرت ماركيوز، (صدر عن مؤسسة هنداوي، ٢٠٢٠م)، يتناول فيه عن ماركيوز فلسفته في النقد الفلسفي، والنقد الاجتماعي، ومقومات الحضارة الجديدة، وماركيوز بين واقع الثورة وأحلام الفلسفة.

- (يورغن هابرماس ١٩٢٩م)، له كتاب: المحافظون الجدد: النقد الثقافي والحوار التاريخي، القول الفلسفي للحداثة، والأخلاق والتواصل، والدين والعقلانية، الحداثة وخطابها السياسي، وبعد ماركس.

(١) سامر فاضل الأسدي، البعد الإيديولوجي في تشكل النقد الثقافي العربي، (بابل: مجلة العلوم الإنسانية، ع١٤، ٢٠١٣م)، ص١٣.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الأيديولوجيا غذت الأدب والنقد بمفاهيم استعملت؛ لتحليل النصوص الأدبية، وتفسيرها"[١].

وفي النقد الثقافي يتجلى ذلك بشكل خاص؛ فقد استغلت الدراسات الثقافية منذ ستينيات القرن العشرين، فحص العلاقة بين الكتابة والمجتمع داخل البنية النصية، "من خلال استجواب المرجعيات المهيمنة في الثقافة المنتجة، ولهذا؛ فالدرس الثقافي يضع النص داخل سياقه السياسي من ناحية، وداخل سياق القارئ من ناحية أخرى"[٢]، والقارئ الناقد هو الذي يعيد صياغة النص في بنية نقدية جديدة، مستعينا بالأنساق الثقافية داخل المجتمع الذي تولد عنه النص، "ولذلك نجد من طبيعة ذلك النقد، السمة التحليلية، ومساءلة التراث، والتاريخ، والمؤسسات الثقافية، وأنساقها، مساءلة فاحصة شكوكية، وعدم الاعتراف ببراءة الخطاب النقدي من إيديولوجيات تلك المؤسسات"[٣].

ويشير حسن البنا عز الدين في هذا الصدد، إلى أن النص الأدبي يقوم بامتصاص القيم الثقافية، والتاريخية، والاجتماعية، بنجاح، وهذا ما يقربه من السياقات الخارجية؛ ثم يمكن أن نلمس في بعض الأحيان "خطورة النصوص الأدبية، وخصوصا إذا كانت بعض تلك القيم التي تحملها داخل أنسجتها قيما سلبية، أو تتشكل في صور سلبية في عقول متلقيها الجدد"[٤].

وهنا يأتي دور النقد الثقافي حينما يوظف منهج التفكيك، والتنقيب، إلى المرحلة التي يصل فيها إلى خلق نص قد يضاد النص الأصلي، وبهذا، "تتحول ثقافة الهامش

(١) نفسه، ص١٣.

(٢) سامر فاضل الأسدي، البعد الإيديولوجي في تشكل النقد الثقافي العربي، ص١٥.

(٣) نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) حسن البنا عز الدين، ملامح النقد الثقافي في الخطاب النقدي العربي المعاصر، (القاهرة: مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع٦٣، ٢٠٠٤م)، ص١٠٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

إلى ثقافة المركز، ومن هذه الصعوبة القاهرة، أصبح التعامل مع الثقافة تعاملا محليا، أي: ضمن المؤسسة الثقافة الخاصة، ولذلك يأتي تعريف الثقافة أبدا مقصورا على خصوصية مجتمعه، ومقصورا على ذاتية الخصوصية... فإذا كان الحد يقضي بأن الثقافة نظام دلالي؛ فلا بد أن يقف النظام الدلالي نفسه حدًّا بين ثقافة وأخرى"[١].

ثم يحاول صمّود إمعان النظر في السبب الذي سمح بذيوع النقد الثقافي في المشرق العربي عند "ذوي الثقافة الأمريكية"، في حين سكت عنه المغاربة "أصحاب الثقافة الفرنسية"؛ ليقرر أن هناك سببين[٢]، وهما:

١- خصائص السياق العلمي والمعرفي في البيئات الأوروبية والأمريكية، واختلاف طرق التعامل مع التيارات الفكرية، ومن ثم اختلاف وجوه تأويلها وتصريفها، ومن أهم تلك الخصائص، علاقة الفلسفة بالأدب.

فقد كان الاقتناع السائد، أن الدرس الأدبي لا يكون ذا فائدة عميقة للفكر، إلا إذا كانت الفلسفة مدخلا للقراءة والتأويل، ولا تخفى حكاية افتقار الأمريكيين إلى خلفية تاريخية تتم بموجبها قراءة النص؛ فقد "ظل عالم الثقافة الأوروبية بكامله محجوبا عن المفكرين الأمريكيين، وكان ذلك نتيجة من نتائج استخدام النقاد الجدد للأدب بكيفية تستبعد التاريخ والفلسفة"[٣]، ومن هنا كان إعراضهم عن قراءة هيجل، ونيتشه، وهيدجر، فكان انفتاحهم على التيارات الفكرية والمناهج الأدبية، سببًا في حركة نقدية لكل الأنظمة الفلسفية "المنحدرة من عصر ما سماه هيدغر بالميتافيزيقا"[٤]، وهنا لا بد من استحضار (جاك دريدا/ ت٢٠٠٤م) في تفكيكه الأبنية الميتافيزيقية، بوصفه فكرا نقديا له دوره في بروز النقد الثقافي، ويكمن ذلك في شكلين:

(١) سعد البازعي، ميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، ص: ٧٥.

(٢) حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص١٠٦.

(٣) نفسه، ص١٠٧.

(٤) نفسه، الصفحة نفسها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

-الاقتناع بعدم وجود خصوصية شكلية للعمل الأدبي، ثم في جعل (الكتابة والأثر) يمثلان توسيعا لمفهوم النصية، وأدى هذا "إلى زهد كثير من الأوساط في استقلال الأدب عن بقية المخاطبات، وفتحه على مذاهب في التأويل، تستمد مفاهيمها من تيارات أخرى"(١).

-لم يبق النظر إلى الأدب على أنه مرآة، يجد فيها الإنسان انعكاسًا لإنسانيته، فأصبح الأدب فعالية أخرى تقوم على عدم الاستقرار الذاتي، ذلك أن الاستعانة بأدوات القراءة التفكيكية تظهر الجانب الخفي ممثلا في الديمقراطيات البورجوازية، وغيرها، "فالأدب وتحليل الأدب، ينتهيان دائما إلى عمل سياسي، وتفكيك النصوص الأدبية كل حركات الخلخلة التي تتقصد المؤسسات الاجتماعية غير العادلة"(٢).

٢- سرعة استجابة السياق للظواهر الوافدة، وإلباسها معاني لم تكن لها، إنما تم توظيفها بشكل جديد، لم يكن الهدف منه ابتداء.

فالنص يرتبط بالسياق الذي أنتج فيه، والسياق مسؤول عن حمل الوظيفة المرجعية بحسب نموذج الاتصال عند جاكبسون، وهذه الوظيفة المرجعية، لها دور بارز ومهم في معظم الخطابات؛ لأنها تحدد العلاقة بين النص والمجتمع الذي أنتجه، والمواضعات، والأعراف الأدبية المتعارف عليها وقت خلق هذا النص، وبذلك فالسياق عمومًا يمثل "الرصيد الحضاري للقول، وهو مادة تغذيته بوقود حياته وبقائه، ولا تكون (الرسالة) بذات وظيفة إلا إذا أسعفها (السياق) بأسباب ذلك، ووسائله"(٣)؛ فالنص بالنسبة للتاريخ جزء منه، وإن كانت هذه الرؤية وفقا للتفكيكية غير دقيقة تماما؛ لأن التاريخ أيضا هو عبارة عن نص، أو مجموعة من النصوص، وهو ما

(١) حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص١٠٨.

(٢) نفسه، ص١٠٩.

(٣) عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، (الكويت: دار سعاد الصباح، ط٣، ١٩٩٣م)، ص٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

يشير إليه المبدأ التفكيكي القائل: لا شيء خارج النص.

ويمضي صمّود قارئا لتاريخ التحولات المعرفية للنقد الثقافي، بدءًا من كشف ما ترتب على مفهوم العلامة، ومفهوم النص، ومفهوم القراءة من تطورات بلغت الذروة مع السيميولوجيا المنصهرة في التحليل النفسي، وفي مكاسب الشعريات، وفلسفة التفكيك، منتهيا إلى أن الخروج بالنقد من دائرة الأدب إلى فضاء الثقافة بجعلها منظومة القيم البانية للمجتمع "هو تطور أدت إليه لا شك التحولات الكبرى التي جدت في المعرفة الإنسانية، بدايةً من خمسينيات القرن الماضي"[1]، وفي هذا السياق، يقول الغذامي "لقد تدرجت النقلات النوعية في مجال النظر النقدي... وفي تأسيس وعي نظري في نقد الخطابات الثقافية، والأنساق الذهنية، جرى الوقوف على فعل الخطاب، وعلى تحولاته النسقية، بدلًا من الوقوف على مجرد حقيقته الجوهرية، التاريخية، أو الجمالية"[2].

ويبدي صمّود تقبلا واضحا للنقد الثقافي، بل عدَّه عملا ضروريا حتى ينتقل الناقد من إطار القراءات السابقة التي تعالج الممارسة الأدبية من ظاهرها المكشوف، إلى قراءة الأصول العميقة التي تبني هذه النصوص، وتعقد نوعا من الصلة بين مختلف أجناس الظاهرة في تكونها الخطابي، حسب فوكو في أركيولوجيا المعرفة.

لقد وعى صمّود أن النقد الثقافي يستمد قدرته النقدية من العلوم الإنسانية، ومناهج النقد والتفكيك، والأركيولوجيا، والفلسفة، والمنطق، ويستفيد من مختلف علوم اللغة، ونظريات التأويل، إضافةً للأنثربولوجيا، وعلم النفس، إلى الحد الذي عمل فيه النقد الثقافي على مساءلة النقد الأدبي والنظرية الجمالية، وهذا ما جعله "إفرازا للنظرية البنيوية، وما بعدها، وتجسيدا لما يمكن أن تفضي إليه ما بعد البنيوية من دور في الحياة العامة، وهو دور أحجمت عنه ما بعد البنيوية في صورتها التقويضية؛

(١) حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص١١١.

(٢) عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، ص: ١٣.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

لأسباب منهجية تتعارض جذريا مع طرحها، لكن الدراسات الثقافية تبنته، واعتبرته وازع قوتها، ودافع نشاطها".[١]

ويعيد صمّود الفضل إلى التداولية، وعلم تحليل الخطاب، في كشف تهافت المذاهب التي ترى من الخطابات خطابات بريئة لا يريد أصحابها إلا الإبلاغ، والإخبار، وخطابات تحمل مقاصد يريد المتكلم أن تقضى فحسب.

فقد كثرت تصنيفات الخطاب إلى (سياسي، ديني، أدبي، فلسفي) ومعظم تلك التصنيفات قامت على أساس موضوع الخطاب، أو هدفه، ولم تهتم بالسياق عند التصنيف، الأمر الذي جعل التداولية ترى أن الاعتماد على موضوع الخطاب أو هدفه ليس كافيا للتصنيف، وبالتالي لا يساعد في الوصول إلى المعنى المراد، فما يبدو خطابا دينيا من خلال مقاصد المرسِل الظاهرة، قد لا يبدو كذلك عند توظيف عناصر السياق، أي أن ظاهر الخطاب الشكلي لم يعد دليلا كافيا لتصنيف الخطاب في دائرة معينة[٢].

وثمة إشارة عابرة لحديث صمّود حول هذه الفكرة في تحليل الخطاب؛ حيث يرى أن "أبرز ما يجمع بين الخطابات، كونها محال سلطة وصراع، تقوم على استراتيجيات تشترك في صياغتها الذوات المتكلمة، ومقاصدها، وذاكرة اللغة، وتاريخها، وخصائص السياق التاريخي والاجتماعي، الذي تنتج فيه، والسياق الجامع بين الأطراف المتكلمة إبان عملية الكلام"[٣].

وطبَّق صمّود هذا الكلام على أعمال ألتوسير الذي أفاد من مفاهيم ميشال فوكو، حول الممارسات الخطابية التي جعلها مجال عمل النقد الثقافي بديلا عن الأدب؛ فقد رفض فوكو مبدأ استقلالية الخطاب، وانغلاقه، وذهب إلى "أن العالم شيء أكبر من

(١) سعد البازعي وميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، ص٧٣.

(٢) دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، (القاهرة: عالم الكتب، ط١، ١٩٩٨م)، ص٣٩.

(٣) حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص١١١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

أن يكون مجرة من النصوص، وبأن بعض النظريات النصية تتجاهل الترابط الوثيق بين الخطاب والقوة؛ فهذه النظريات النصية تختزل القوة السياسة، والاقتصادية، والسيطرة الاجتماعية، والأيديولوجية، في جوانب مرتبطة بالدلالة"(١).

ولا يقنع صمّود بتجانس خصوصيات الخطابات المختلفة، فيطرح تساؤلا عميقا حول البحث عن الخاص، وخاص الخاص، بمعنى هل تماهت الحدود بين المخاطبات المختلفة، وأجناسها المتباينة، إلى درجة أن تصبح كلها مبنية على أرضية توجه مكوناتها الأيديولوجية والعقدية؟ هل تهافتت الجهود التصنيفية التي عاشت عليها المعرفة البشرية قرونا، بمجرد أن تغيرت شروط المعرفة؟ أم أن هناك فرقا جوهريا بين ما يروجه النص من معارف وأفكار ورؤى وإيديولوجيا، والوسائل التي يروج بها ذلك؟(٢)

ومنطلقه هنا أن النقد القديم بُني على ترتيب للأجناس وفق خصائصها المتباينة؛ حيث "كانت التصنيفية القديمة تقوم من أول كونها على الوحدة، والتنوع"(٣)، فكانت التفرقة بين القول الفلسفي، والقول الرياضي، والقول الشعري، والقول الخطابي.

وهو ما يتصل بالتصدير الذي صدر به مقالته، وذلك من خلال التساؤل الذي قال فيه: هل الوقوف على الأبنية الأيديولوجية، والتصورية، والنفسية، والاجتماعية، في الشعر، طريق إلى إجلاء ما يختص به ضمن مراتب القول؟(٤).

وقد انطلق صمّود في معالجة تلك النقطة من مبدأ من مبادئ تحليل الخطاب، وهو إلغاء الحدود المشتركة بين الخطابات، فيقول: "ولكن أليس بين الخطابات، بعد هذا

(١) رامان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة جابر عصفور، (القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩١م)، ص١٥٢.

(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص١١٢.

(٣) نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) يُنظر: نفسه، ص١٠١.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المشترك بينها، وهذه الأرضية التي توجه مكوناتها، وتحدد دائرة تنزلها الأيديولوجي والعقدي من اختلاف؟ هل اندكت الحدود بين أنواع الخطابات وأجناسها دكًّا أتى على كل خصوصية، أي دكًّا أبقى على الجنس باعتباره جامعا، وشبها مؤلفا، وقضى على النوع باعتباره اختلافا وميزا؟ هل أصبح عن الخاص وخاص الخاص، لاغيا لا جدوى من ورائه؟"[١].

والجواب عن هذه التساؤلات يكمن في جملة واحدة، أن هناك فرقًا جوهريًّا بين ما يروجه النص من معارف، وأفكار، ورؤى، وأيديولوجيا، وبين الوسائل التي يروج بها النص هذه المضامين. وهو التمييز الذي قال به القدماء بين المقول، وكيفية القول[٢].

ويذهب صمّود إلى أن النقد الثقافي يمثل نوعا من "اضطلاع نقاد الأدب بالكتابة في قضايا أشمل من النقد وأعم، وإن بقيت على بعض الصلة به، وهي قضايا يتكفل بالخوض فيها عادة كتاب من اختصاصات أخرى؛ لأن مطالبها المعرفية والمنهجية، لا تطابق مدارس الدراسات الأدبية، إنها قضايا من دوائر أخرى لا تطابق مطالب الدراسة الأدبية"[٣]، ويذكر الكحلاوي أن ملاحظات صمّود واستنتاجاته هنا، ذات وجاهة؛ فالنقد الثقافي حسب صيغة الغذامي، ينفتح على قضايا وإشكالات فكرية وحضارية، لها صلة شائكة ومعقدة بطبيعة علاقة العربي المسلم بالتراث، ونظرته إلى الكون والوجود، وطبيعة الصورة التي يحملها عن ذاته، انطلاقا من ثقافته، هنا حسب ذلك كله يخرج النقد الثقافي إلى فضاء أرحب من إبداع الشعر، والأدب، والفنون، بشكل عام، إلى مجال المعرفة الدينية والفلسفية، وسائر الحقول الثقافية، والفكرية،

(١) نفسه، ص١١٢.

(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب، ص١١٢.

(٣) حمّادي صمّود، نقد على نقد – قراءة في بعض تجارب النقد المعاصر في السعودية، (الرياض: السجل العلمي للدورة الثانية من ملتقى النقد الأدبي: الخطاب النقدي المعاصر في المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٨م)، ص٤٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المتصلة بالممارسات الاجتماعية، والأخلاقية، والقيمية، إن النقد الثقافي حسب تصور الكحلاوي "أقرب إلى مشروع تفكير نقدي في التراث الأدبي، ولنقل الحضاري.. كان من الأجدى بمشروع خطاب النقد الثقافي، أن يتنزل ضمن دوائر اشتغال، ومجالات بحث أوسع من الأدب؛ مثل: النقد الحضاري"[1].

(١) محمد الكحلاوي، النقد الثقافي إشكال المنهج ومأزق النظرية، ص٢٨٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

المبحث الثاني

استدعاء الشابي والكشف عن الوظائف الشعرية *

* تعتمد الدراسة في هذا المبحث أبرز التصورات التي قدمها صمّود في دراساته الآتية:

- قلب الشاعر لأبي القاسم الشابي، ضمن مجلة فصول، العدد ٤، المجلد الأول، ١٩٨١م، ثم أعاد نشر الدراسة ضمن كتاب في نظرية الأدب عند العرب، ١٩٩٠م.

- الأشواق التائهة. مدخل إلى شاعرية الشابي، ضمن مجلة فصول، المجلد ٦، العدد١، ١٩٨٥م، ثم أعاد نشر الدراسة ضمن كتاب دراسات في الشعرية. الشابي نموذجًا، شارك فيه صمّود مجموعة من الأساتذة، ١٩٨٨م، ثم أعاد نشره تحت عنوان: الأشواق التائهة. مدخل إلى كون الشابي الشعري، ضمن كتاب من تجليات الخطاب، ص٣١٨، ويذكر صمّود في هذا الإطار أنه يؤمن بأن التعليم الجامعي بدون بحث متواصل، يؤول إلى تعليم لا روح فيه؛ لأنه سيقوم على الرضا بالموجود، ومحاكاة الوارد في الكتب، يقول: "من منطلق هذه العقيدة كنت من السباقين في بعث فرق بحث، وإن بطريقة غير منظمة في البداية، وما كان ذلك ليكون لولا وجود زملاء لهم نفس الحماس، ويحملون نفس العقيدة، فكان أن تكون من بداية الثمانينيات، فريق عن الإنشائية ونظريات الأدب، وكانت حصيلته كتابًا صادف لدى الناس بعض القبول، بل الرواج". حمّادي صمّود، حوار بعنوان: مناهج دراسة الأدب مكسب معرفي والنقد الثقافي تنويع على النقد الإيديولوجي، ص١١٧، ويذكر شكري المبخوت أن عمل صمّود هذا الذي جمع حوله في رحاب بيت الحكمة، عددا من الباحثين المنتمين إلى كلية الآداب بمنوبة؛ ليقدموا عن شعرية الشابي تحاليل من أقوى ما كتب عنه، وليضرب في أرض بكر في الثقافة العربية، بالنظر إلى عوالم الشابي التخييلية، وأساليبه في القول، إيمانا منه بأهمية تلاقح العقول، واشتغالها على أعمال جماعية تُثْري المعرفة، وتعمق الأسئلة. يُنظر: شكري المبخوت، حمّادي صمّود تجديد البلاغة وتأصيل الإنشائية، ضمن كتاب أعمال مهداة إلى الأستاذ حمّادي صمّود، ص٢٢.

- أبو القاسم الشابي. عودة إلى سؤال التجديد، ضمن فعاليات الندوة الدولية: في حداثة الشابي، ونشرت الدراسة عن بيت الحكمة، ٢٠٠٩م.

- يقدم صمّود مقالة تتحدث عن سيرة الشابي ضمن فعاليات الندوة الدولية في حداثة الشابي، ٢٠٠٩م.

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

يدعي بعض الدارسين عدم وجود تجربة شعرية حقيقية في الشعر التونسي تحديدًا، إلا تجربة الشابي (١٩٠٩-١٩٣٤م) التي تمثل علامة بارزة في مسارات الشعر العربي بشكل عام، والتونسي بشكل خاص، انبرى النقاد لدراسة شعرية الشابي الذي استطاع بناء عالمه الشعري الخاص، فكان "أول من كسر طوق بنية كانت سائدة في ذاك الوقت هي بنية التمركز المشرقي"(١)، وهو الذي دعاه صاحب مجلة أبولو إلى كتابة مقدمة ديوانه، وهذا الأمر له دلالته؛ "فقد هللوا لكسر هذه البنية المهيمنة على العلاقة بين المشرق والمغرب منذ زمن الفتوحات، واستقرار العرب والمسلمين ببلاد المغرب والأندلس"(٢)، وهكذا، يكون الشابي أحد أهم الشعراء المحدثين العرب الذين اهتم بهم النقاد العرب، والتونسيون منهم بشكل خاص، "فلا تكاد تمضي حقبة تطول أو تقصر، دون أن تفرد له دراسة تنشر في مؤلف قائم الذات، أو تدرج ضمن مجلات مختصة"(٣).

❑ أولاً: مفهوم الشعرية عند صمّود:

إن من أكثر المقاربات التي استفاد منها الدارسون لقراءة خطاب الشابي الشعري، المقاربة الشعرية، وكانت الدراسة قد أسلفت الحديث عن بعض تصورات صمّود الشعرية، المستقاة من تصورات جاكبسون، وتودروف، وبارت؛ فهم من أوائل مؤسسي المنهج البنيوي الشعري(٤)، وابتغى النقاد والدارسون من هذه الدراسات

---

(١) حمّادي صمّود، أبو القاسم الشابي عودة إلى سؤال التجديد، (تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، ٢٠٠٩)، ص١٤.

(٢) نفسه، ص١٥.

(٣) محمد الناصر العجيمي، عرض كتاب دراسات في الشعرية الشابي نموذجًا، (فصول، مج١٠، ع٣، ٤، ١٩٩٢م)، ص١٤٨.

(٤) تمتلك اللغة وظيفة شعرية في المفهوم البنيوي للشعرية، الذي تجاوز ملكية جاكبسون إلى من بعده، وكما هو معلوم، فإن هذه الوظيفة لا تقتصر على الجنس الأدبي الكامن في الشعر، إنما تتجاوزه إلى المعنى الإنشائي، أو إلى الرسالة نفسها بمفهوم جاكبسون للرسالة، وهكذا ترتبط =⇦

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

تحقيق هدفين: "يكمن الأول في الدفع بالدراسات المختصة بالشابي في مسالك جديدة، ويتمثل الثاني في التمهيد لارتياد تخوم لم تطأها أقلام النقاد العرب بعد، وهي مبررات تُشرَع تماما لمثل هذه الدراسات الموسومة بطابع التجديد"(١).

يذكر صمّود أن محاولة تحديد الشعرية خارج المكتسبات النظرية الجديدة، أمر ليس باليسير؛ إذ إنه لا يوجد في عاداتنا النقدية، "فلئن اهتم النقاد العرب منذ فترة مبكرة تحت ضغط العامل الديني العقائدي بالأساس، تحديد (إنشائية) الكلام من وجهة

= الشعرية بالرسالة التي تتميز بشعريتها على اختلاف الوظائف الأخرى المرتبطة بأطراف الرسالة، كما حددها جاكبسون. يُنظر: محمد جمال باروت، الشعرية البنيوية والمقاربات البنيوية في الفكر النقدي العربي، (سوريا: مجلة الموقف الأدبي، ع١٣١، ١٩٨٢م)، ص٥٣.

أما تودروف فيرى أن الشعرية هي الكشف عن القوانين العامة للعمل الأدبي، وليست تأويلا للمعنى، فيقول: (وجاءت الشعرية، فوضعت حدا للتوازي القائم على هذا النحو، بين التأويل والعلم في حقل الدراسات الأدبية... وهي تسعى إلى معرفة القوانين العامة التي تنظم ولادة كل عمل، ولكنها بخلاف هذه العلوم التي هي علم النفس، وعلم الاجتماع... تبحث عن هذه القوانين داخل الأدب ذاته؛ فالشعرية إذن، مقاربة للأدب، مجردة وباطنية في الآن نفسه)". تزفتان تودوروف، الشعرية، ترجمة: شكري المبخوت، رجاء بن سلامة، نقلا عن: مسلم حسب حسين، الشعرية واللسانيات إشكاليات النظرية اللسانية للمنهجين الشكلي والبنيوي، (**العراق: مجلة آداب البصرة، ع٧٤، ٢٠١٥م**)، ص١٢. أما رولان بارت، فسيجاوز المعقول في تطرفه الشكلاني بتجريد اللغة من محتواها الذهني والفكري، فتقتضي الشعرية انكفاء اللغة على ذاتها، والتأكيد على فكرة الأصوات المجردة، وهكذا تقوم شعرية بارت على أساس فراغ اللغة، وفراغ النص، ذلك الفراغ الذي يفتح بدوره أفقا للقراءة اللامتناهية التي عبر عنها بارت بـ (معارضة اطمئنان العالم)؛ كونها قراءة تسعى إلى زعزعة الثوابت العقلية والمنطقية، وهذا الهدم لم يوجد من أجل البناء، أو إنتاج معطيات جديدة، إنما لأجل ما أطلق عليه بارت (نص المتعة)؛ فالهدم هنا لغرض المتعة، "وهذه المتعة هي أعلى مستويات الشعرية عند بارت. لأنها لا تتعدى العبث اللغوي، والفوضى الفكرية، أما الاعتقاد بوجود معنى محدد لنص من النصوص، فهو مجرد ثرثرة، وهذه هي حقيقة النقد عند بارت، التي يكرس لأجلها كتابه (نقد وحقيقة)". مسلم حسب حسين، الشعرية واللسانيات إشكاليات النظرية اللسانية للمنهجين الشكلي والبنيوي، ص١٧.

(١) محمد الناصر العجيمي، عرض كتاب دراسات في الشعرية الشابي نموذجًا، ص١٤٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

عامة لا تختص (شعرية) الشعر من جهة ما هو طريقة مخصوصة في إجراء المباني على المعاني، لئن اهتموا بكل ذلك، فإنهم لم يولوا أسلوب الشاعر الفرد عناية كافية"[١]، وتفسيره علة ذلك، أن النقد العربي قام على تقدير مدى تجانس التجربة الفردية مع القوانين التي قررها النقاد، فلا تكمن مزية الشاعر فيما يضيفه، أو يبتكره، إنما في مطابقته، واحتذائه النموذج الشعري السائد، وفي سيره على منوال القدماء، وكان نتيجة لذلك أن غابت الممارسة الأسلوبية بمفهومها الحديث، التي تتيح الكشف عن نصيب الفرد من عملية الإبداع، وما يمكن أن يتميز به قوله الشعري عن غيره.

وعلى هذا، فإن متابعة مفهوم الشعرية عند صمّود، تقتضي متابعة قراءته لمفهوم الشعر في التراث، ثم تصوره عن صفة الشعر في ذلك التراث، وكان ذلك الفهم يقتضي التمييز بين نمطين يدرجان ضمن مفهوم الشعر، تتشكل بينهما منطقة اختلاف بين الفهم التقليدي، والفهم الجديد، وهما:

١- الشعر بوصفه طريقة في الكتابة.

٢- الشعر بوصفه صفة للكلام.

ويلخص محمد عبدالمطلب ما طرحه صمّود بدقة في قوله: إن "الشعر بوصفه نمطا للكلام يرتد إلى (تعريف الشعر) بأنه (كلام موزون مقفى يدل على معنى)، وهو التعريف الذي رأى فيه المحدثون قتلا للشعرية، وعلى رأسهم أدونيس، الذي رأى في تعريف قدامة السابق تشويها للشعر، وقد أدى ذلك إلى انتشار دعوة التجديد مركزة على التحرر من هذا القيد الإيقاعي"[٢]، ويشير صمّود إلى أن السبب الأول في هذا الفهم، هو النظر في تعريف الشعر منفصلا عن النثر، وهذا نظر قاصر بعبارة صمّود، "فالخصائص المميزة لأحد النمطين، ليست مستمدةً مما فيه، ولكن مما ليس

(١) حمّادي صمّود، شعرية الشوقيات، رأي في مقولة البدائل في الخطاب النقدي العربي، (فصول، مج٣، ع١، ١٩٨٢م)، ص٥٤.

(٢) محمد عبد المطلب، قراءة القراءة في نظرية الأدب عند العرب، ص١٦.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

في غيره، وهو أمر تسكت عنه جل الكتابات... [فيغلق] دون النظرية العربية في الشعر منفذا من منافذ فهمها؛ لعدم اعتبار النسق الذي بنته، وانبنت عليه"[١]، وقس على هذا في فهم المحدثين لكثير من نصوص النقاد الأوائل التي تفسر نظرتهم للشعر، ثم إن الوزن والقافية اللذين جعلا قيدين فارقين بين نمطين، لم يكونا إلا ناجمين "من تزاوج نظامين مختلفين؛ النظام اللغوي، والنظام الإيقاعي؛ فاللغة في الشعر مشدودة كدلالة وبناء إلى هذه البنية المتسلطة، وبهذا يكون الفعل الشعري (تحويليا)، يغير من طبيعة اللغة ذاتها، وتكون (لضرورات) جانبا من جوهر الشعرية"[٢].

أما عدّ الشعر صفةً للكلام، فإنه يتلاءم مع ربط الإيقاع باللذة الحاصلة، فلا تؤدى وظيفة الشعر بالإيقاع وحده، وتؤكد ذلك نصوص التراث من قبيل "إجراؤهم لفظ النظم في باب العيب والتقصير، ورفضهم إطلاق صفة الشعر على كل كلام ليس لصاحبه إلا فضل الوزن والقافية"[٣]، وعلى هذا فإن الشعر يستمد خصائصه من خصائص اللغة فيه، التي تخرج عن استعمالها العادي، ويشرع صمّود في تبيان كثير من وجوه القول التي يحصل بها الشعر، وهكذا جاءت البلاغة تضبط قوانينه العامة. كانت هذه القوانين قد أقرت أن النص لا يؤثر في متلقيه أكثر مما تؤثر فيه اللغة إذا جاءت على المستوى العادي، إلا إذا استجابت للقوانين العامة التي أطلق عليها صمّود (الشعر صفة للكلام). وهكذا فإن مفهوم الشعرية عند صمّود، يأتي متشبثا بجذور الفهم الشعري عند البلاغيين والنقاد الأوائل، ذلك الفهم الذي لا ينفك عن جعل البلاغة ذلك العلم الكلي الذي اشتق من النصوص الأدبية قوانينَ كليةً تقع في النثر كما تقع في الشعر[٤].

(١) حمّادي صمّود، في نظرية الأدب عند العرب، ص١٣٠.

(٢) محمد عبد المطلب، قراءة القراءة في نظرية الأدب عند العرب، ص١٧.

(٣) حمّادي صمّود، في نظرية الأدب عند العرب، ص١٣.

(٤) يُنظر: نفسه، ص١٤٠، وما بعدها.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

تأسيسا على ما سبق؛ فالشعرية عند صمّود (تطلق على الخصائص التي يولدها الكلام الذي يجيء على هيئة مخصوصة)؛ فالشعرية جنس، والشعر نمط في الكتابة، وإمكانية من إمكانيات إجراء الكلام، والنثر، والشعر، أنواع لجنس، هو الشعرية، وهكذا، فإن "إنتاج معنى أو جنس من المعنى يحدث في المتلقي فعلا شعريا لا يختص بنمط في الكتابة دون نمط، وبحكم هذا فكثير مما يسمى شعرا، نظم لا شعر فيه، وكثير من النثر شعر، وإن لم يأت موزونا مقفى"(١)، وهو بهذا الصنيع يصل إلى مقولات الشعرية، خاصةً ما استقر عن جاكبسون، وسيتجلى ذلك في قراءاته التطبيقية التي استقاها صمّود من تجربته النقدية الطويلة، باحثا، مترجما، متذوقا، قارئا، مؤرخا(٢).

سيمزج صمّود تلك المعرفة العميقة بالتراث، بما اكتسب من تصورات لسانية وبنيوية، ينزلها على نصوص الشابي، محاولا الكشف عن مكامن الشعرية عنده، وطرائق اتساق علاقات ذلك الخطاب الشعري، من خلال رصد العلاقة بين المبنى والمعنى، بالإضافة إلى تحديد الظواهر التعبيرية الأكثر حضورا في النص، ومحاولة تأويلها(٣)، جاءت هذه المعالجة إثر قناعة راسخة لدى صمّود، مؤداها: أن الظاهرة الأدبية أوسع من أن يحدها أو يطوقها منهج، وأرحب من أن تشقها وجهة نظر، "لذلك فإننا عاجزون عن ربط هذه المحاولة بتوجه ما؛ فهي أسلوبية إلى حد، وبنيوية إلى حد، وإنشائية إلى حد، وتراثية إلى حد، وشخصية إلى حد"(٤)؛ لذلك نجد صمّودا يطرح مناقشة للشعرية تهم الخطاب النقدي في المقام الأول، وهدفه منها إخراج لغة النقد من مجانية اللغة السائدة، وتجاوز التنظير السريع، والصخب الذي رافق التجربة

(١) حمّادي صمّود، في نظرية الأدب عند العرب، ص١٤٧.

(٢) يُنظر: حسين العروي، حمّادي صمّود وقضايا الشعر العربي الحديث، ضمن كتاب أعمال مهداة إلى الأستاذ حمّادي صمّود، ص٨١.

(٣) يُنظر: محمد عبد المطلب، قراءة القراءة في نظرية الأدب عند العرب، ص٦.

(٤) حمّادي صمّود، في نظرية الأدب عند العرب، ص٢١٨.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الشعرية الجديدة[١].

وإن انتقى صمّود المدخل الشعري للكشف عن الخصائص التعبيرية لأدبية الشابي، فإن لذلك الانتقاء هدفًا بعيدًا، يرمي منه صمّود تأكيد إمكانية الإفادة من المناهج الحديثة في قراءة النص الشعري، ولم يكتف بإقرار ذلك تنظيرا، بل تجاوزه إلى التطبيق، وهذا ما سنحاول تبيانه في الفقرات الآتية.

❑ ثانيًا: استحضار خصائص الأسلوب في الشوقيات:

يستحضر صمّود كلاسيكية شوقي ضمن معالجة محمد الهادي الطرابلسي في كتابه (خصائص الأسلوب في الشوقيات)[٢] في سياق رصده الإمكانات الحديثة المتاحة لمعالجة الشعر، ويأتي هذا الاستحضار ليجمع بين التنظير والتطبيق على صعيد واحد؛ "حيث جاء في سياق رصد حركة التجديد الشعري، وموقفها من القديم، وأنها أخطات عدوها عندما ركزت جهدها التحويلي على الأوزان والقوافي"[٣]، ويأتي هذا الاستحضار أيضا لمعرفة القدر الذي يكون إليه النموذج البياني بصورته البلاغية مسؤولا عن تراجع الشعر، وكان هذا التساؤل يقتضي فتح باب التساؤل الشعري عند شوقي تحديدًا، بعدّه معلما من معالم الشعرية الذين سلم النقاد بتفوقهم، ثم إقرار صمّود

---

(١) يُنظر: نفسه، ص١٧٩.

(٢) يقول صمّود: "ونشير في الأخير إلى العمل المهم الذي أنجزه محمد الهادي الطرابلسي، لمحاصرة (خصائص الأسلوب في الشوقيات) محاصرة تعقبت هذه المدونة في أدق جزئياتها؛ مما يسمح لصاحبها بتركيز أحكامه النقدية على أساس التحليل والوصف، ومن مزايا هذا العمل أنه يقدم للباحث مادة جاهزة يمكن الانطلاق منها لتقدير مواصفات هذه التجربة أولا، وربما خصائص اتجاه كامل في كتابة الشعر ثانيا، رغم صعوبة الربط بين الاهتمام الآني وقد انحصر فيه هذا العمل، والاهتمام الزماني، واعتمادنا على هذا العمل في محاولة تحديد بعض مظاهر الشعرية كبير، وإن كنا ربما صغنا بعض المسائل صياغة مختلفة". حمّادي صمّود، شعرية الشوقيات رأي في مقولة البدائل في الخطاب النقدي العربي، ص٥٤.

(٣) محمد عبد المطلب، قراءة القراءة في نظرية الأدب عند العرب، ص٢٥.

رسالة الدكتوراه الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

بمنزلته، مقتنعا "بأن النقد الأدبي بمختلف اتجاهاته تجاوز الآن، بشكل خاص، المقولات النقدية التي راجت في بعض الأوساط؛ حيث كان الإبداع يحاكم بسلوك مبدعه وعقيدته، لا بقوانين بنائه، وصيرورته"(١)، منطلقا من تأكيد أن شعرية شوقي لا تبنى على رؤية متكاملة بكل حمولات مفهوم الرؤية؛ إذ يعني بالرؤية هنا "علاقة المنشئ بموضوعه، وبالعالم الذي ينحت معالمه بالمادة المتوفرة لديه، وهي في هذه الحالة اللغة"(٢).

أما عن مكمن شعرية الشوقيات، فإن صعوبة الإجابة عن هذا السؤال، نابعة من صعوبة تحديد مفهوم الشعرية في التصورات النقدية العربية، وكما ذكر سلفا أنه لا يجد في "عاداتنا النقدية الخروج عن المقررات النظرية العامة، المحيطة بالخطاب الشعري إلى الإنجازات الفردية؛ فالنقد لم يعط الفردية أهميتها التي تستحقها، بل يحاسب الشاعر بما حاذى، لا بما أبدع"(٣).

وفي تصور صمّود أن في شوقي إسهامًا من أهم إسهامات الشعرية العربية في هذا القرن، ومجمل حركات التجديد لم يكن بمقدورها صرف الذائقة العربية عن شعر شوقي، ومع ذلك، فهذا الخط الشعري يكاد ينطمس، بل يجزم بأنه لم يبق من الشعراء من يسلك نهج شوقي؛ "فالانعطافات الحادة التي عرفها تاريخ العرب الحديث.. وكل أنواع الإحباط والتردي التي عاشها في بناء الدولة الوطنية تحت عوامل داخلية وخارجية"(٤)، أسهمت بشكل واضح في تغيير مَنْزَع الشعر.

في صورة تساؤل يطرحه صمّود: ما مولد الشعرية؟ ينطلق من تعريف الشعر، فيقرر بناءً على المفاهيم النقدية العربية القديمة، ما أقرّه سلفا، أن:

---

(١) نفسه، ص١٥٢.

(٢) نفسه، ص١٥٣.

(٣) محمد عبد المطلب، قراءة القراءة في نظرية الأدب عند العرب، ص٢٥.

(٤) حمّادي صمّود، في نظرية الأدب عند العرب، ص١٧٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

-أول عنصر يركز عليه النقد للتمييز بين القديم والجديد، هو الوزن، ويؤكد أن التركيز على الوزن لم يكن العنصر الصحيح لهذا الحكم، وفي رأيه أن الخطاب النقدي الرائج في مجلة شعر، كان هو المسؤول عن هذا المشكل، مؤكدا أن يونس بن حبيب، وابن طباطبا، وابن رشيق، وابن خلدون، والآن أدونيس، أجمعوا على أن تحديد الشعر بالوزن، تحديد سطحي، يقول أدونيس: "أن تحديد الشعر بالوزن، تحديد خارجي سطحي، قد يناقض الشعر، إنه تحديد للنظم، لا للشعر؛ فليس كل كلام موزون شعرًا، وليس كل نثر خاليًا بالضرورة من الشعر"(١).

-أن العرب لم تعلق شعرية الشعر بالوزن، وإن اعتبرته عنصرا مميزا.

-تنبني القصيدة الجديدة على دك مفهوم الإيقاع، "لكل قصيدة إيقاعها، وهو واحد أحد لا يتكرر، ولا يستعاد، يموت وقت تموت القصيدة بالقراءة، أو بالكتابة"(٢).

وأبرز ما يمكن استخلاصه من قراءة صمّود لشعرية الشوقيات:

-تستمد الشوقيات شعريتها من خصائص الشعر العربي، وطابعه التقليدي؛ لذلك ظهرت القصائد في صورة صنعة وثقافة لها نظامها المحدد.

-تأتي الصورة في مقدمة مظاهر التقليد، وكان من أهم خصائصها الانتظام في علاقة التشابه، وعلاقة التجاور، مولدة التشبيه، والاستعارة، والكناية، ومن ثم غلبة التشبيه المرسل جريًا على عادة القدماء، أما الاستعارة فتصريحية في الغالب، تليها مرتبة الكناية، إضافة إلى المادة القديمة المنسجمة مع مذهب التقليد؛ فمن الظبية إلى البقرة الوحشية إلى المعشوقة، ثم في الأخلاق والصفات الروحية، وغلب على الصورة تعويض المحسوس بالمحسوس، أما المجرد بالمجرد فقليل.

إلى هنا فإن صمّودا يؤكد ما وصل إليه الطرابلسي بشأن سمات شعرية الشوقيات، يروم من هذا كشف دلالة هذه السمات، يذهب صمّود إلى أن غلبة فن

(١) أدونيس، زمن الشعر، (بيروت: دار الساقي للطباعة والنشر، ٢٠٠٥م)، ص١٦.

(٢) حمّادي صمّود، في نظرية الأدب عند العرب، ص١٨٣.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

التشبيه أمر له دلالته التي تتجاوز مذهب التقليد، إلى علاقة مستعمل اللغة باللغة؛ فالتمسك بالتصريح والاكتفاء من الاستعارة بما لا يعطل الوظيفة الإفهامية، "أمر شديد الاتصال بمؤسسات الخطاب الأدبي في التراث العربي"، وهنا يؤكد صمّود نهجه الأثير في ربط الاستعمال اللغوي، بالوظيفة الإفهامية؛ فالعلاقة بين مستعمل اللغة واللغة "تفهم وتعقل"، وهنا يجب تحقيق الوظيفة التواصلية في المقام الأول، بوصفها قاعدة أساسية يعلق عليها الشاعر بعدئذ ما يشاء من أغراض، ويحقق بها ما أراد من مقاصد، ومن معاني هذا التصور عند صمّود "انصهار الوظيفة الإنشائية، والوظيفة الإفهامية، وعلى هذا قولهم: إن أحسن الشعر ما كان كالكلام"(١)، وهذا كله يأتي منسجما مع موقف الخطاب النقدي القديم، الذي يحذر وقوع الخلل في النواميس المحددة لعلاقة مستعمل اللغة باللغة.

أما ما يضيفه صمّود، فيتعلق بإمكانات اللغة الصوتية، وإيمانه بأنها من أهم مولدات الشعرية في الشوقيات. وتكمن الشعرية في مزاوجة شوقي بين الإمكانات الصوتية، وهندسة البيت، التفعيلة بمختلف تقاليدها. ويستخدم صمّود في هذه المعالجة الآليات الإحصائية؛ ليؤكد -على سبيل المثال لا الحصر- صفة التكرير، وهنا يستنبط دلالتين للتكرار؛ الأولى تحمل دلالة التعاقب، والرجوع بفعل تردد اللسان، أما الثانية -وهي نتاج الدلالة الأولى- فتكمن في الثقل والطول. أما تأويل صمّود لذلك فحسب المعنيين، في التعاقب صريح الفعل (رجع) الذي يحمل معاني العودة والإعادة، أما الطول فيتمثل في غلبة المقاطع الطويلة المنفتحة على العروض والضروب(٢). إضافة إلى توسله بالترديد؛ لتأكيد وجود المجانسة الصوتية بمختلف أشكالها، وفي هذا منزع قديم وحديث، نزوع إلى التوحد، مستعينا بما يذهب إليه (جان كوهين) في الإنشائية الفرنسية، من أن النزوع إلى التنميط الصوتي، من أهم مظاهر الشعرية في الشعر(٣).

(١) نفسه، ص١٦٠.

(٢) يُنظر: حمّادي صمّود، في نظرية الأدب عند العرب، ص١٦٤، وما بعدها.

(٣) يُنظر: نفسه، ص١٦٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

❑ ثالثًا: استدعاء الشابي:

في معالجته قصيدة الأشواق التائهة لأبي القاسم الشابي، التي تصور أنها "مفتاح من مفاتيح الديوان، ومدخل من مداخله الرئيسية، وأنها تقوم من بقية الديوان مقام النواة المولدة، والرحم المحتضن"(١)، يحصل له الإيمان العميق بأن تجربة الشابي ترتد أجزاؤها حتما إلى بنية كلية، ويشدها نظام داخلي يحدد أنساق المباني والمعاني، ويرد التنويع إلى أصول عميقة باطنة، تكفل لهذه التجربة الوحدة في التنوع(٢).

يشرع صمّود في تفكيك القصيدة من مدخل لغوي صرف بوصفه مرحلةً أولى، بعد تحديده المستوى المعجمي للنص؛ ليخرج بهذا المعجم دلالة الأشواق التائهة التي لا رسم لها ولا طريق، إنما هي بحث مرهق لا ينقطع، دلالة على "الاضطراب والحرقة والاختلاط"، ثم يفكك الجوانب الشكلية بداية بالمستوى العروضي، الذي يتسم بتنوع المقاطع؛ حيث لم يقر للقصيدة فيها قرار، ولم تلتزم نمطا بعينه، وفي ذلك دلالة على ذلك الاضطراب المتشكل في العنوان؛ فهو "إما صورة من صور التيه، والبحث الدائب عن المستقر، وإما من شعور بأن الدفق الشعري أكبر من أن يحتويه التنويع رديف الثراء... جاءت القصيدة قصائد يطابق جمعها بعض ما وعد به عنوانها"(٣)، ويلاحظ العجيمي هنا أن صمّودا لا يتقيد بالنقد التقليدي الذي يركز على وجه واحد من التقسيم، "بل يستقرئ ما يجوز أن تنصرف إليه القصيدة من وجوه التقسيم"(٤)، فيجد مثلا أن البيتين الخامس والسادس من المقطع الثاني، لهما ذات الوحدات المكونة للقافية، فكان المسوغ له أن يصلهما بالمقطع الأول لا الثاني، ثم تشكل سمة التنويع بنية شكلية ثنائية عامة، تقوم على تكرار المطلع، تضم ثنائياتٍ صغرى، تدعمها، وتحقق انسجام النص، شملت ثنائية الخبر والإنشاء، وثنائية الكون وما قبل الكون، أو

(١) حمّادي صمّود، الأشواق التائهة مدخل إلى شاعرية الشابي، ص١٦٥.

(٢) يُنظر: نفسه، ص١٦٥.

(٣) حمّادي صمّود، الأشواق التائهة مدخل إلى شاعرية الشابي، ص١٦٧.

(٤) محمد الناصر العجيمي، عرض وقراءة لدراسات في الشعرية الشابي نموذجًا، ص١٤٩.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الماضي وماضي الماضي، وثنائية الأنا والآخرين، وينتقل صمّود إلى تحليل المقاطع، مسخِّرا إمكانات التأويل، وتقرير المعاني الغائبة، من قبيل تأويله المنادى الذي لم يجد سبيلا إلى دخول مدائنه إلا "باللغة، والاختلاق، وتوهم المقابل من الموجود"(١)؛ ليجعل من ذلك البناء المعنوي، قطب الرحى في القصيدة. وعلى هذا المنوال يفكك صمّود متن القصيدة، مستنطقا الأبنية الصوتية، فالتركيبية، مستفيدا من المعرفة البلاغية؛ لتحليل الخصائص الأسلوبية ودلالات النص، "راصدا صدى ما تقوله المقابلة الكبرى (صميم الحياة × الوجود والحياة) التي انبنى عليها إنتاج معاني هذه القصيدة، ملاحظا أن هذه المقابلة ليست أسلوبًا في إنتاج المعنى، وإنما هي أس رؤيا الشابي الشعرية"(٢)، ويوظف صمّود الأبعاد التاريخية في قراءة القصيدة؛ إذ يلمس حديث الشابي عن الزمن، من خلال استخدامه الأسلوب الاستعاري، واهتمام الشابي بالزمن يشكل مرحلة بارزة على مختلف مراحل قوله الشعري، يصل صمّود إلى ذلك من خلال قراءة قصائد الديوان الأخرى. وهو يبغي من هذه القراءات وصل قصيدة (الأشواق التائهة) ببقية قصائد الديوان، التي تغلب عليها سمة الحنين العميق، والجري المضني بديلًا عن القيد، مشيرًا إلى المواطن التي تشكلت فيها هذه المعاني، ومتوسعًا في تحليل المواطن التي لها دورها في تشكيل النص؛ لتشكل مع الأشواق التائهة بنيةً كبرى في شعرية الشابي، تقابلها بنية مخالفة، ومناقضة في الظاهر، تتشكل في قصيدة (الصباح الجديد)، أما في الباطن أو في المستوى العميق، فبنية الأشواق التائهة، وبنية الصباح الجديد، تتشكل منهما معا "مرحلتان بارزتان يصدران عن معنى عميق واحد، هو الحياة، والإحساس بالزمن الحاضر، والسياق المكتنف لحياة الفنان، ولكنهما مختلفان في المعاني الفرعية المولدة عن الأصل، إلى حد يمكن معه الحديث عن مقابلة

(١) حمّادي صمّود، الأشواق التائهة مدخل إلى شاعرية الشابي، ص١٦٩.

(٢) حسين العروي، حمّادي صمّود وقضايا الشعر العربي الحديث ضمن كتاب أعمال مهداة إلى الأستاذ حمّادي صمّود، ص٩٤.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

كبرى في صلب هذا الديوان، ومنعرج حاسم في مجرى التجربة الشعرية"[١].

يؤكد العجيمي هنا أن صمّودا وإن لم يصرح بالتزامه منهجا معينا، إلا أن القراءة تفصح عن تأثره بجاكبسون في شروحه لنصوص شعرية، وأظهر هذه القرائن عند العجيمي، تتجلى في اعتماد صمّود "نظم العلاقات بين الوحدات اللغوية، وضروب تشكلها المتراوحة بين التوازي، والتطابق، والاختلاف، واستخراج الدلالة انطلاقا من هذا النظام الشكلي"[٢]. وتتفق الدراسة مع ملاحظة العجيمي أن صمّودا لم يحتفل -على غرار ما يفعل كثير من الدارسين- بالمصطلحات الكثيرة الغامضة، أو الرسوم التشكيلية المتداخلة، التي تؤثر في عملية التحليل سلبا أكثر من مساعدة القارئ، أما ما لاحظه في قوله إن "بعض الثنائيات المستخرجة لا تنتظم في مستوى واحد، من ذلك أن الثنائيات المثبتة في موطن سابق، تندرج ضمن مستويين مختلفين على الأقل؛ ففيما تنتظم ثنائية الإنشاء/ الخبر، في مستوى بلاغي أسلوبي، تندرج الأخريان ضمن محور دلالي وجودي"[٣]، فإننا نرى أن صمّودا وإن سكت بدايةً عن دلالة ثنائية الخبر والإنشاء، إلا أنه ربط فيما بعد بمنحى وجودي يكمل النسق الذي رسمه للنص، وجعل أهم خاصية في بناء القصيدة، هي "انغلاق الإنشاء على الخبر مبتدأ ومنتهى"[٤]، فأصبحت موغلة في الانفعال البارز في تصريحات مباشرة لنداء الغائب، "فجاء النداء بكل قوة يؤسس حركة الشوق والتوق، ويفتح على آفاق لا تدرك النفس حدودها"[٥]، وتفسير ذلك الانفعال، "هو دفع النص في مضايق تفتح باب الذاكرة، فتلملم في أرجائها بقايا عالم قديم، يعيد النص صياغتها جميلةً ناصعةً"[٦]،

(١) حمّادي صمّود، الأشواق التائهة مدخل إلى شاعرية الشابي، ص١٧.

(٢) محمد الناصر العجيمي، عرض دراسات في الشعرية الشابي نموذجًا، ص١٥١.

(٣) محمد الناصر العجيمي، عرض دراسات في الشعرية الشابي نموذجًا، ص١٥٢.

(٤) حمّادي صمّود، الأشواق التائهة مدخل إلى شاعرية الشابي، ص١٦٨.

(٥) نفسه، الصفحة نفسها.

(٦) نفسه، الصفحة نفسها.

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

ويؤكد اتساق ثنائية الخبر والإنشاء ضمن النسق الوجودي قوله: "تلك هي ذكرى البدء، وخروج الشعر عن وضعه؛ ليؤسس تاريخه، ويكشف مأتاه، والأغوار البعيدة الموحشة التي ولدته، إنه البحث عن الذات قبل الكون"(١).

وفي كتابه (في نظرية الأدب عند العرب) تتخذ معالجة صمّود لقصيدة الشابي (قلب الشاعر) شقين يحددهما عبد المطلب:

-الأول يقتصر على متابعة البنية المجازية في القصيدة.

-والثاني يتحدد في متابعة ظواهر التقابل والمفارقة، المترتبة على ثنائية (النور والظلام)، "وفي سياق التفكيك يحدد المؤلف ركيزة الإنتاج الدلالي في النص، وهي القلب، وهذا التحديد يوظف الإحصاء كمًّا وكيفًا، توثيقًا للمستخلصات التعبيرية.. تجاوزها إلى متابعة مجموع البنى الإنتاجية المصاحبة"(٢).

وكان صمّود قد بدأ دراسة هذا النص بطرح تساؤل عن المدخل التحليلي المناسب لسبر أغوار هذه القصيدة، منطلقًا من اعتبارات تناصية، يسلم من خلالها بأن النص الأدبي تشكُّلٌ علامِيٌّ، وجمهرة من العلاقات، مشيرا من خلالها إلى جيرار جينيت (١٩٣٠-٢٠١٨م) في نظام العلاقات(٣)؛ فالنص ليس بنية مطروحة "على أديم النص يعرفها العربي والعجمي، وإنما هي أنساق من العلاقات خفية، تدرك قبل أن تلحظ، يبينها التحليل حالما يستخرجها أولا بأول، وقد يختلقها أحيانا من حيث يظن أنه

(١) نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) محمد عبد المطلب، قراءة القراءة في نظرية الأدب عند العرب، ص٢٧.

(٣) يذكر ناتالي بييقي غروس في مدخل إلى التناص أن جينيت لا يعد التناص عنصرا مركزيا، بل يمثل علاقة واحدة من علاقات متعددة، يندرج في قلب شبكة تحدد الأدب في خصوصيته، إلا أن هذه العلاقة النصية متعالية من بين بقية العلاقات الأخرى، والتناص كما ورد في طروس جينيت يتضح "بعلاقة حضور مشترك بين نصين، أو أكثر، أي عن طريق الاستحضار، وفي الأغلب بالحضور الفعلي لنص ضمن نص آخر". جيرار جينيت، الطروس، نقلا عن: ناتالي بييقي غروس، مدخل إلى التناص، ترجمة: عبد الحميد بواريو، (دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤٣٣هـ)، ص١٧.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

يكتشفها"[١].

والذي يظهر للدراسة، أن الشعرية التي يروم صمّود هنا الإفصاح عنها وفقا لهذا الاعتبار، تتجلى فيما يُطلَق عليه التناص الداخلي. حيث يتأسس النص بناءً على نواة معنوية، يسميها ريفاتير بالمولد، ثم يعمل الشاعر على تنمية هذه النواة؛ حتى تتحول إلى أشكال وصور تعبيرية، تنسج خيوط النص كله، يأخذ هذا المولد شكلا افتراضيا قد يكون حاضرًا أو غائبًا، ثم يتشعب في صورة كلمات تنتظم في جمل تعكس بدورها نواة المولد[٢]. ومن هنا أخذ صمّود يبذل جهدًا لكشف العلاقات القائمة بين أنظمة العلامات، وأنظمة المعاني، مركزًا على أوجه التماثل بين الوحدات الكبرى. مؤكدا أن النص يحمل عدة مظاهر شكلية ومعنوية، يمكن اعتبارها مسالك مؤدية إلى هيكله العام، كما يحمل النص بنى داخل بنى، وكل بنية تسلمك إلى بنية أكبر منها، وبنيته الأم تلك التي تتأسس على المجموعات البنيوية الصغرى[٣].

ثم يفكك صمّود النص مستخرجا الصيغ الأكثر حضورا، محاولا تأويل دلالتها، كعده غلبة صيغة الجمع على القصيدة، أمرًا له دلالته عند مقابلته بالأنا المتكلم المفرد، ترتبط بنفسية الشابي، وعلامة على رأيه في الفن، ثم مواقف الرفض والثورة، وكذلك في اطراد المقابلات تتولد رؤيته الشعرية، وأسلفنا القول في مركزية مقابلة النور والظلام في القصيدة، ويفسر صمّود تلك المقابلات، مستفيدًا من كل الإمكانات اللسانية المتاحة؛ سواء في قراءة العتبات، أو في استخدام أساليب الإحصاء البسيطة، أو الإمكانات التوليدية؛ ليصل إلى ظاهرة مهمة تسيطر على النص "تتمثل في ضرورة الانتباه إلى التحول الذي يطرأ على دلالات اللغة، ووجوه تصريفها، عندما تجرى إجراء فنيا، وتعلق بها مقاصد زائدة على ما تؤديه في أصل الوضع"[٤]، ثم يقرر

(١) حمّادي صمّود، في نظرية الأدب عند العرب، ص٢٢٣.

(٢) يُنظر: حميد سمير، شعرية التواصل في التراث الأدبي تنظير وتطبيق، ص١٧٦.

(٣) يُنظر: حمّادي صمّود، في نظرية الأدب عند العرب، ص٢٢٥.

(٤) نفسه، ص٢٣٦.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

صمّود أن من أهم مظاهر حركية النص وتناميها بيتها الأخير؛ إذ يخزن عصارة الخطاب الشعري، ويربط نهايته ببدايته؛ ليدرك القارئ منه مكانة قلب الشاعر في النفاذ إلى العالم.

هَا هُنَا فِي كُلِّ آنٍ تَمَّحِي .:. صُورُ الدُّنيا وتبدو مِنْ جديدْ

وهكذا، تخلص دراسة صمّود للشابي إلى أن عالم القصيدة هو العالم الخارجي، "وأن الحياة في سياق النص، هي حياة الفن والشعر، وأن الحرية التي امتلكها الإبداع، هي الحرية في إعادة بناء العالم"(١).

تأسيسًا على ما سبق، يمكن القول إن صمّودا قد فتح بابا من أبواب النقد التطبيقي في الساحة العربية، ثم إن الظاهرة الأدبية عند صمّود، هي نقطة تجمع وتقاطع عوامل متعددة، لدرجة أنها لا تستمد وجودها من ذاتها، وإنما من وجود غيرها في داخلها، "هي نص وكاتب، ونص وقارئ، ونص وعالم، ونص ونص، والكاتب والقارئ والعالَم والنص، سياقات مؤتلفة مختلفة، ومتجاذبة متنابذة، تساهم كلها على نحو، في دلالة الأدب، وضبط مواصفاته، ومِن ثَم فالتعامل معه"(٢).

ويشير باروت في فترة متقدمة، إلى أن النقاد العرب في تعاملهم مع الشعرية، درسوا امتدادتها في حين لم يدرسوا الشعرية نفسها، يقول: "إلا أن النقد العربي في جله -وخصوصًا الجامعي الأكاديمي منه- درسها بشكل معكوس، لقد درس امتدادات الشعرية، انطلاقا من الشعرية نفسها"(٣)، ويضيف أن هناك فرقًا جوهريًّا عن الفهم البنيوي، والفهم المناسب للمناهج المساعدة حسب تعبيره؛ فالفهم البنيوي يؤكد أن الشعرية مغلقة، وقائمة بحد ذاتها، لا تعرف إلا نسقها الخاص، ولا تحيل إلا إلى ذاتها، وتحمل الرسالة على هذا شكلا فقط، والبنيوية تؤكد أن الشعرية، هي جوهر الرسالة،

(١) محمد عبد المطلب، قراءة القراءة في نظرية الأدب عند العرب، ص٢٧.

(٢) حمّادي صمّود، في نظرية الأدب عند العرب، ص٢١٨.

(٣) محمد جمال باروت، الشعرية البنيوية والمقاربات البنيوية في الفكر النقدي العربي، ص٥٣.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

وبالتالي تنفي أية امتدادات للشعرية، أما الفهم العربي كما يذكر، "ينطلق من نقطة محورية، هي أن الشعرية شكل من أشكال الوعي الاجتماعي، إلا أنه شكل خاص، ويتمتع بقوانين تطور خاصة ومستقلة نسبيا عن قوانين التطور الاجتماعي"(١)، وسيغدو التحليل البنيوي للشعرية العربية، نتيجة لذلك (خداعًا وتضليلًا)؛ إذ هو تجاهل العلاقات الاجتماعية والثقافية للوظائف الأخرى التي تؤديها الرسالة؛ سواء كانت المرجعية أو الإحالية المتعلقة بالموضوع، أو الوظيفة الندائية المتعلقة بالمرسل إليه، أو الوظيفة الانفعالية المتعلقة بالمرسل. يريد من ذلك أن الشعرية العربية لا يمكن فهمها بمعزل عن العلاقات الاجتماعية والثقافية لهذه الوظائف. فالنقد العربي ينحو هذا المنحى اضطرارا، وهو اتجاه في الفهم "يخضع البنيوية للشعرية، لا الشعرية للبنيوية"، وعنده أن هذا الأمر هو السبب الأول في إسقاط بعض المفاهيم المركزية، ومن ثم يصبح التطبيق أشبه بالتعسف على الشعرية العربية الحديثة(٢).

ويصدق على ما قدمه صمّود، واستبان لنا في هذه الدراسة ما ذهب إليه أحد تلامذته منذ ما يربو على عقدين، من أن النقاد العرب في تعاملهم مع النقد الجديد، لم يتقيدوا باتجاه محدد، وإن ركزوا على اتجاه بعينه كما فعلوا عند الأسلوبية، إنما حاولوا الإلمام بمختلف الاتجاهات؛ تنظيرًا، وتطبيقًا، ويفسر هذه الظاهرة حصول الهاجس الذي يخالج هؤلاء النقاد في التعريف، والرغبة الْمُلِحَّة في معرفة المنابع الجديدة لكل الظواهر المعرفية المتاخمة للتخصص. لهذا السبب لم يضع النقاد نصب أعينهم غاية التنظير الذي يتوفر على جهاز مفاهيمي دقيق، ويتكئ على جملة من المعطيات المعرفية في نسق متكامل. ويندرج تحت ذلك، أن هؤلاء النقاد لم يتعاملوا مع المناهج الحديثة بجعلها أجهزة قاطعة صارمة، تستوجب الخضوع التام لها؛ فقد تعاملوا معها بكثير من المرونة والتسامح، تجلَّى ذلك في مقدماتهم الممهدة لأعمالهم

(١) نفسه، ص٥٣.

(٢) يُنظر: نفسه، ص٥٤.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

التطبيقية[١].

وإن بدت لنا بعض مظاهر التحيّز في الانتقاء، إلا أن صمّودا بدا محاولًا التحرر من الأحكام القبلية والمسبقة، معتزًّا بالتراث دون ظهور النزعة التمجيدية، وهذا ما يقره أحد الباحثين في عرضه لقراءة صمّود، وأنه عُرف مسلطًا نظرة متفحصة كاشفة في انتقاد توخى موروثنا النقدي والبلاغي، ممهدًا الطريق إلى إرساء دعائم نقد مجرد للفكر النقدي العربي، وتشريحه علميًّا دون إضمار أيديولوجي. ممثلًا على ذلك بما قدمه صمّود عن تصور العرب الأوائل لمفهوم العلامة، ولمفهوم النظم، مخالفا معاصريه الذين لم يتجاوز عملهم الإسقاط لمفاهيم الحداثة على التراث[٢]، وفي تناوله للعلاقة بين اللفظ والمعنى، وإن كان قد أخل بالموضوعية في حالات عدّها الدارس شاذة، فهو يبدي رأيه بصراحة، دون أن ينحاز لتراثه، معارضًا بهذا الصنيع من التفكير الحر، الاتجاه السائد في الإعلاء من شأن التراث، دون أن يحط من قيمته[٣].

(١) يُنظر: محمد الناصر العجيمي، النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، ٤٠٧.

(٢) يُنظر: نفسه، ص٥١٠.

(٣) يُنظر: نفسه، ص٧١٣.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الخاتمـــة

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

الخاتمـــة

قامت هذ الدراسة ببحث بدراسة الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمّادي صمّود من أصولها إلى امتداداتها، وقد درست تلك الاتجاهات كل اتجاه منفردا، حاولت في بداية ذلك التناول أن أجلِّيَ أهم المرجعيات الفكرية، والخلفيات المؤسسة؛ لأنها تشكل دوافع متنوعة، ترتبط حينا بنشأة البلاغي الناقد، وبناء شخصيته، وترتبط أحيانا أخرى بالظروف السياقية، وما تتضمن من تيارات فكرية وأيديولوجية متصارعة، تدفع إلى التفكير في مناطق معينة، وإهمال أخرى في عملية عكسية لا تنفك عن السياق الفكري العام في كل حقبة زمنية.

ثم درست المنطلقات والضوابط المنهجية التي انطلق منها حمّادي صمّود في كل اتجاه، وكان قد تأكد للدراسة أن حمّادي صمّود في كل مرة يبني نسقه الخاص، ويؤسس على النتائج التي توصل إليها سلفًا، بشكل يمكن القول معه إنه قد وضع نصب عينيه منذ البداية هدفه الذي أطلق عليه (مشروع قراءة)؛ ليؤسس قراءته تلك التي لا تنفك عن التراث، وعن معاودة النظر في النصوص البلاغية والنقدية المؤسسة، وفي الوقت نفسه تنفتح على الواقع المعرفي الحديث، وتستفيد من منجزاته، إن كان في الثقافة العربية، أو الغربية.

وبصرف النظر عن القول بنجاح ذلك المشروع أو إخفاقه، فقد أكدت لنا الدراسة أن مشروع القراءة لم يكن مقتصرًا على مؤلفه الأكثر رواجا في الساحة البلاغية (التفكير البلاغي عند العرب)، بل هو المشروع القرائي الحاضر في بحثه عن نظرية للأدب عند العرب، من خلال تصورات البلاغيين والنقاد عن الشعر والنثر، وما نتج عن هذه التصورات من فهم خاص لوظيفة الصورة الفنية، وهو المشروع الحاضر في قراءته للمقامة، بما هي شكل تراثي يحتمل تنزيل التحليل الأسلوبي عليه، بالتالي يمكن قراءتها قراءةً حديثةً؛ ليقرر حينئذ تلازم التراث والحداثة تلازم الوجه والقفا، وهو المشروع الحاضر في بحثه عن الوعي الحجاجي عند

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

العرب، انطلاقا من نشأة الدرس البلاغي، مقارنةً بنشأة البلاغة اليونانية، ووصولًا إلى فترات استقرار الدرس، وتحقق النظرية البلاغية.

ويمكن أن تُختم هذه الدراسة برصد أهم النتائج التي توصلت إليها، وهي:

-إن التوجهات البلاغية والنقدية التي تأسس عليها مشروع صمّود، لم تكن وليدة صدفة، بل هي توجهات نتجت عن فضاء أكاديمي ومعرفي أتاح لصمّود -بما يمتلك من مقومات علمية- الاتصال بالثقافة الفرنسية بشكل خاص، والأجنبية بشكل عام؛ ليظفر منها بخلفية معرفية عميقة، شكلت الشخصية العلمية لحمّادي صمّود.

-إن اتكاء صمّود على المقولات التراثية، جاء عن رغبة في العودة إلى التراث، وعزيمة تروم إمعان النظر في نصوصه؛ لإيمانه التام بأن التراث البلاغي والنقدي، يزخر بالمسكوت عنه، وبالمناطق المغمورة، وبالنصوص التي تؤهل ذلك التراث لمجابهة العصر، والإسهام في النقاش الدائر في الساحة البلاغية والنقدية، بالتالي تأكيد انتفاء مقولة موت البلاغة، ثم لاعتقاد صمّود أنه لا يمكن الانخراط في العصر، ما لم تكن هناك خلفية أصيلة تبني الهوية، وتحقق الذات، وتؤكد الانتماء الحضاري.

-تُعَدُّ مقولتا الكلام العادي والكلام الأدبي، والفهم، والإفهام، والإيضاح، والإبانة، يؤطرها مفهوم البيان، مقولتين مركزيتين في تفكير حمّادي صمّود البلاغي والنقدي، أقام عليهما جملة من التصورات، وكثيرا من الاعتبارات.

-إن الأدبية التي يبحث عنها الخطاب بمختلف أنماطه، تقبع في اللغة، ولا وجود لها خارج اللغة، وإن حاول صمّود في بعض المواضع أن يخرج من تأثير هذه المقولة اللسانية، فإنه يعود إلى التأكيد أن مفهوم الجمال يندس في أحشاء النص، وأنه كامن في جوهر الأدب، لا من غيره.

-لم تكن المقولات اللسانية والأسلوبية المستخدمة في المعالجة التطبيقية -على الشعر ممثلا في نصوص الشابي، والنثر ممثلا في المقامة- مقصودة لذاتها؛ بل جاءت مصوغة منهجيًّا ضمن توجه أكبر، هو القول إنه يمكن قراءة النصوص الأدبية

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

العربية في ضوء المكتسبات، والأدوات التحليلية المستقاة من النقد الغربي، بعد قولبتها في قالب عربي.

-إن اختلاف ظروف نشأة الدرس البلاغي العربي عن ظروف نشأة نظيره اليوناني، كان كفيلا بأن تنشأ البلاغة العربية في نظر صمّود، منحسرة عند مقارنتها بالبلاغة اليونانية.

-إن البلاغة العربية لم تكن أجنبية عن ثنائية الخطابة والشعر، لكنها دمجت الخطابي والشعري على مستوى التأليف؛ مما أدى إلى الخلط بين مقاييس الأسلوب، وبلاغة الوجه.

-يستخدم حمّادي صمّود إلى جانب المفاهيم النقدية المعروفة، مفاهيم يسهم في صياغتها؛ لتعبر عن تصوراته إزاء قضايا معينة، من قبيل (المقروئية، التحويل)، عالج من خلال المفهوم الأول، قضية الغموض في إطار قضية التجريب في الشعر المعاصر، وما ينتج عنه من صعوبة في الفهم، والقراءة، والتلقي، ومن خلال المفهوم الثاني، يناقش قدرة الأدب على تطويع مادته وفق الظواهر المعاصرة، بل إن للأدب سلطةً على هذه الظواهر، فيصوغها صياغةً فنيةً تضع بينها وبين الواقع مسافةً؛ فلا يمكن الوصول إلى المعنى إلا من طرق أدبية، لا من طرق مباشرة.

-جاءت الاتجاهات النقدية عند حمّادي صمّود، متصلةً بتصوراته حول الأسلوبية النقدية، وقضايا الشعرية، متسقة مع المشروع العام المزاوج بين التراث والحداثة.

-يسعى المشروع البلاغي في الآونة الأخيرة، إلى الانفتاح على تحليل الخطاب، وإن لم نجد لصمّود إسهامًا خاصًّا يمكن أن ينص عليه، إلا أن رئاسته لوحدة تحليل الخطاب بجامعة منوبة، تعني استكمال المشروع الأوسع الذي يرومه البلاغيون والنقاد في العالم العربي المعاصر.

ويمكن أن نختم بخاتمة عامة، وهي القول إن مشروع حمّادي صمّود، لبنة في مشروع بلاغي أوسع، اتفق الباحثون العرب المعاصرون بين مشرق ومغرب، على

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

إطاره العام، ذلك الإطار الممثل في دفع البلاغة العربية بما يمكن انتقاؤه من مقولات تراثية، وبما يمكن اكتسابه من معارف عصرية، دفعا يمكّن لهذا العلم صاحب الأرومة، أن يجابه مستجدات العصر، وأن يعالج أنواع الخطابات المختلفة.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

الفهارس

- ١- فهرس المصادر والمراجع.
- ٢- فهرس الموضوعات.

قائمـة المصـادر والمراجـع

❑ أولاً: المصادر والمراجع:

- أبو بكر العزاوي. من المنطق إلى الحجاج. إربد: عالم الكتب الحديث، ط١، ٢٠١٧م.
- إحسان عباس. تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري. عمان: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٦م.
- أحمد الشايب. الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية. مصر: مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٤٥م.
- أحمد حسن الزيات. دفاع عن البلاغة. القاهرة: عالم الكتب، ط٢، ١٩٦٧م.
- أحمد درويش. الأسلوب والأسلوبية، مجلة فصول، مج٥، ع١، ١٩٨٤م.
- أحمد غنام. فلسفة النقد عند الجاحظ. سوريا: دار العراب، ٢٠١٩م.
- أحمد ويس. ثنائية الشعر والنثر في الفكر النقدي بحث في المشاكلة والاختلاف. الأردن: كنوز المعرفة، ط١، ٢٠١٧م.
- أرسطو طاليس.
  - الخطابة. الترجمة العربية القديمة، تحقيق: عبدالرحمن بدوي، الكويت: وكالة المطبوعات، بيروت: دار القلم، ١٩٧٩م.
  - منطق أرسطو. تحقيق: عبدالرحمن بدوي، الكويت: وكالة المطبوعات، ج٣، ط١، ١٩٨٠م.
- أسامة محمد بحيري. تراثنا البلاغي والمناهج الحداثية دراسات مقارنة. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٦م.

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

- أمين الخولي.

مشكلات حياتنا اللغوية. بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٥٦م.

فن القول. مصر: دار الكتب المصرية، ١٩٩٦م.

- أوليفي روبول.

هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي؟ ترجمة: محمد العمري، ضمن كتاب: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، المغرب، إفريقيا الشرق، ٢٠١٢م.

مدخل إلى الخطابة. ترجمة: رضوان العصبة، مراجعة: حسان الباهي، المغرب: إفريقيا الشرق، ٢٠١٧م.

- باتريك شارودور. دومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب. ترجمة: عبدالقادر المهيري، حمّادي صمّود، تونس: المركز الوطني للترجمة، ٢٠٠٨م.
- بدوي أحمد طبانة.

في الطريق إلى تحديد المفهوم. القاهرة: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٦٥م.

دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث. القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٦٩م.

- بسمة بلحاج رحومة الشكيلي. قراءة في بنية التفكير البلاغي العربي انطلاقا من مفهوم الخطاب. ضمن كتاب مقالات في تحليل الخطاب. تقديم: حمّادي صمّود، تونس: كلية الآداب والفنون والإنسانيات بجامعة منوبة، ٢٠٠٨م
- بسمة عروس. التفاعل في الأجناس الأدبية مشروع قراءة لنماذج من الأجناس النثرية القديمة. بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠١٠م.
- تزفتان تودروف. الشعرية. ترجمة: شكري المبخوت، رجاء بن سلامة، المغرب: دار توبقال للنشر، ط٢، ١٩٩٠م.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

- تمام حسان.
  - اللغة بين المعيارية والوصفية. بيروت: عالم الكتب، ط٤، ٢٠٠١م.
  - الأصول دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب النحو- فقه اللغة- البلاغة. القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٩م.
- توفيق الزيدي. أثر اللسانيات في النقد العربي. تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠م.
- جابرعصفور. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب. القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٤٢٤هـ.
- جار الله أبو القاسم الزمخشري. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ.
- جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، حواشي: اليازجي وجماعة من اللغويين. بيروت: دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ.
- حاتم عبيد. من الخطابة إلى تحليل الخطاب مفاهيم خطابية من منظور جديد. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٨م.
- حافظ إسماعيلي علوي. اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته. عمان: دار كنوز المعرفة، ٢٠١٨م.
- حسن ناظم.
  - مفاهيم الشعرية دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم. بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٤م.
  - البنى الأسلوبية دراسة في أنشودة المطر للسياب. بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ٢٠٠٢م.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

- حسين العروي. حمّادي صمّود وقضايا الشعر العربي الحديث. ضمن كتاب: أعمال مهداة إلى الأستاذ حمّادي صمّود. تونس: مجمع الأطرش لنشر وتوزيع الكتاب المختص، ٢٠١٩م.
- الحسين بنوهاشم.
  - بلاغة الحجاج الأصول اليونانية. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠١٠م.
  - الخطابة، الترجمة العربية القديمة. تحقيق: عبدالرحمن بدوي، الكويت: وكالة المطبوعات، بيروت: دار القلم، ١٩٧٩م.
- حفناوي رشيد بعلي. مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب. الأردن. دروب للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١١م.
- حمّادي صمود.
  - في نظرية الأدب عند العرب. جدة: النادي الأدبي الثقافي، ١٩٩٠م.
  - بلاغة الهزل وقضية الأجناس الأدبية عند الجاحظ. تونس: دار شوقي للنشر. ط١، ٢٠٠٢م.
  - التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الثالثة، ٢٠١٠م.
  - من تجليات الخطاب. الدمام: مكتبة المتنبي، ط١، ١٤٣٣م.
  - البلاغة العربية في مسالك الدرس وتصاريف الخطاب. تونس: سلسلة المنشورات الجامعية بمنوبة، ط١، ٢٠١٥م.
  - طريقي إلى الحرية. تونس: دار محمد علي للنشر، ٢٠١٧م.
  - الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠١٨.
  - بلاغة الانتصار في النقد العربي القديم- رسالة أبي بكر الصولي إلى مزاحم بن فاتك أنموذجًا. تونس: المعهد العالي للغات، د.ت.

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

- حمو النقاري. في منطق بور رويال. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، د.ت.
- حميد سمير.
  - شعرية التواصل في التراث الأدبي تنظير وتطبيق. جدة: النادي الأدبي الثقافي، ط١، ١٤٣٠هـ.
  - نموذج الحداثة وما بعدها في الفكر العربي الحديث، دار تكوين، نسخة الكترونية، د.ت.
- دي بوجراند. النص والخطاب والإجراء. ترجمة تمام حسان، القاهرة: عالم الكتب، ط١، ١٩٩٨م.
- رامان سلدن. النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة: جابر عصفور. القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩١م.
- رولان بارت. قراءة جديدة للبلاغة القديمة. ترجمة: عمر أوكان، المغرب: إفريقيا الشرق، ١٩٩٤م.
- رومان جاكبسون. قضايا الشعرية. ترجمة: محمد الولي، مبارك حنون، المغرب، دار توبقال، ١٩٨٨م.
- زكريا إبراهيم. مشكلة البنية أو أضواء على البنيوية. مصر: مكتبة مصر، ١٩٩٠م.
- زكي نجيب محمود. المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري. القاهرة: مؤسسة هنداوي، ١٩٧٢هـ.
- سعد مصلوح. في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية. القاهرة: عالم الكتب، ط٢، ٢٠١٠م.
- سمير أبو حمدان. الإبلاغية في البلاغة العربية. بيروت، باريس: منشورات عويدات الدولية، ط١، ١٩٩١م.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

- السيد إسماعيل السروي. تعريب العلوم في ضوء العبرنة الإسرائيلية. دار غريب، ط١، ٢٠٠٤م.
- شاييم بيرلمان. الإمبراطورية الخطابية صناعة الخطابة والحجاج. ترجمة: الحسين بنو هاشم، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٢٢م.
- شوقي ضيف.
  - العصر الجاهلي. القاهرة: دار المعارف، ط٧، ١٩٧٦م.
  - البلاغة تطور وتاريخ. مصر: دار المعارف، ط٨، ١٩٩٢م.
- صلاح فضل.
  - بلاغة الخطاب وعلم النص. الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٢م.
  - علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته. القاهرة: دار الشروق، ط١، ١٩٩٨م.
  - علم الأسلوب والنظرية البنائية. القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط١، ٢٠٠٧م.
- طه جابر العلواني. السياق: المفهوم – المنهج – النظرية. الرباط: الرابطة المحمدية للعلماء بالمغرب، ٢٠٠٧م.
- طه عبدالرحمن. سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد. ط٢، بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع، ٢٠١٥م.
- عبدالحق طالبي، ميشال فوكو واللغة. ضمن كتاب: فلسفة اللغة: قراءة في المنعطفات والحدثيات الكبرى. تحرير وإشراف: اليامين بن تومي، الجزائر: دار الروافد الثقافية، ط١، ٢٠١٣م.
- عبدالحكيم راضي. نظرية اللغة في النقد العربي. دراسة في خصائص اللغة الأدبية من منظور النقاد العرب، القاهرة: مكتبة الآداب، ط٣، ٢٠١٧م.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات
١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

- عبدالسلام المسدي.

التفكير اللساني في الحضارة العربية. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط٣، ٢٠٠٩م.

الأسلوبية والأسلوب. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة السادسة، ٢٠١٤م.

مباحث تأسيسية في اللسانيات، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠١٠م.

- عبدالسلام محمد رشيد. إيهاب مجيد جراد، في مفهوم القراءة. بغداد: مجلة الأستاذ، ع٢١٠، مج١، ٢٠١٤م.
- عبدالعزيز حمودة. المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية. الكويت: مطابع الوطن، ٢٠٠١م.
- عبدالعزيز شبيل. نظرية الأجناس الأدبية في التراث النثري، جدلية الحضور والغياب. تونس: دار محمد علي الحامي، ط١، ٢٠٠١م.
- عبدالعزيز عتيق. تاريخ النقد الأدبي عند العرب. بيروت: دار النهضة العربية، ط٤، ١٤٠٦هـ.
- عبدالقادر المهيري. النظرية اللسانية والشعرية في التراث العربي من خلال النصوص. تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٨م.
- عبدالقاهر الجرجاني.

الرسالة الشافية- ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٨م.

أسرار البلاغة. قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، القاهرة: مطبعة المدني، ط١، ١٤١٢هـ.

دلائل الإعجاز. قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، القاهرة: مطبعة المدني، ط٣، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات
١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

- عبدالكريم غلاب. أزمة المفاهيم وانحراف التفكير. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ٢٠١١م.
- عبدالله إبراهيم. النقد الثقافي مطارحات في النظرية والمنهج والتطبيق. ضمن كتاب عبدالله الغذامي والممارسة النقدية والثقافية، مجموعة من المؤلفين، الأردن: دار الفارس للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٣م.
- عبدالله ابن سنان الخفاجي. سر الفصاحة. تحقيق: علي فودة، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٢، ١٤١٤هـ.
- عبدالله الغذامي.
  - الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية. الكويت: دار سعاد الصباح، ط٣، ١٩٩٣م.
  - النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٥م.
- عبدالله الفيفي. الشعر الجاهلي بين الغنائية والموضوعية- قراءة في جدلية الشعر والثقافة من خلال السبع معلقات نموذجًا. القاهرة: منشورات كلية الآداب بجامعة عين شمس، ٢٠٠٧م.
- عبدالله بن عبدالرحمن بانقيب. مناهج التحليل البلاغي عند علماء الإعجاز من الرماني ٣٨٦هـ إلى عبدالقاهر الجرجاني ٤٧١هـ، الرياض: دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع. ط١، ١٤٣٠هـ.
- عبدالملك مرتاض. نظرية النص الأدبي. الجزائر: دار هومة، ط٢، ٢٠١٠م.
- عثمان، أبو الفتح ابن جني. الخصائص. تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط١، ١٣٧١هـ.
- عز الدين إسماعيل. الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية. القاهرة: دار الفكر العربي، ط٣، د.ت.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

- عز الدين المدني. الأدب التجريبي. تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٢م.
- علي أحمد سعيد أدونيس. زمن الشعر. بيروت: دار الساقي للطباعة والنشر، ٢٠٠٥م.
- علي بن محمد الجرجاني. كتاب التعريفات. تحقيق: إبراهيم الإبياري، بيروت: دار الريان للتراث، د.ت.
- عماد عبد اللطيف.
  - بلاغة المخاطب (الجمهور) نحو بلاغة جديدة. القاهرة: ندوة الأدب المقارن، ٢٠٠٦م.
  - البلاغة العربية الجديدة مسارات ومقاربات. الأردن: كنوز المعرفة، ط٢، ٢٠٢١م.
- عمرو بن بحر الجاحظ.
  - الحيوان. تحقيق: عبد السلام هارون، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط٣، ١٣٨٤هـ.
  - البيان والتبيين. تحقيق: حسن السندوبي، بيروت: دار إحياء العلوم، ١٤١٤هـ.
- عيد محمد شبايك. استثمار الأسلوب العدولي في تذوق النص القرآني. مكتبة فلسطين للكتب المصورة، ٢٠١٦م.
- فاضل ثامر. اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث. بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٤م.
- فرديناند دي سوسير. محاضرات في علم اللسان العام. ترجمة: عبد القادر قنيني، أحمد حبيبي، المغرب: إفريقيا الشرق، ١٩٨٧م.
- كمال بو منير. النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت من ماكس هوركهايمر إلى أكسل هونيث. الجزائر: منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠١٠م.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات
١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

- لطفي عبدالبديع. فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث. جدة: النادي الأدبي الثقافي، ط٢، ١٤٠٦هـ.
- مجدي أحمد توفيق. ما البلاغة. مصر: سندباد للنشر والإعلام، ٢٠١٣م.
- محمد إبراهيم شادي. ثنائيات النقد العربي. مصر: دار اليقين للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٧هـ.
- محمد الجلاصي. ابتكار المعاني خطر. تقديم كتاب: حمّادي صمّود، بلاغة الانتصار في النقد العربي القديم- رسالة أبي بكر الصولي إلى مزاحم بن فاتك أنموذجًا. تونس: المعهد العالي للغات، د.ت.
- محمد العمري.
  - أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة. المغرب: إفريقيا الشرق، ٢٠١٣م.
  - المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة. المغرب: إفريقيا الشرق، ٢٠١٧م.
- محمد الناصر العجيمي. النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية. تونس: دار محمد علي الحامي، ط١، ١٩٩٨م.
- محمد سالم الأمين الطلبة. الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٨م.
- محمد عابد الجابري.
  - بنية العقل العربي. دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة والثقافة العربية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط٨، ٢٠٠٧م.
  - التراث والحداثة -دراسات ومناقشات. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة السادسة، ٢٠٢٠م.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

- محمد عناني. المصطلحات الأدبية الحديثة. القاهرة: الشركة المصرية العالمية، لونجمان، ط٣، ٢٠٠٣م.
- محمد محمد أبو موسى.
  - خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني. القاهرة: مكتبة وهبة، ط٦، ١٤٢٧هـ.
  - مدخل إلى كتابي عبدالقاهر الجرجاني. القاهرة: مكتبة وهبة، ط٢، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
  - قراءة في الأدب القديم. القاهرة: مكتبة وهبة، ط٤، ١٤٣٣هـ.
  - مراجعات في أصول الدرس البلاغي. القاهرة: مكتبة وهبة، ط٣، ١٤٣٧هـ.
- محمد مشبال.
  - في بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات. عمان: دار كنوز المعرفة، ط١، ١٤٣٩هـ.
  - عن بدايات الخطاب البلاغي العربي الحديث نحو بلاغة موسعة. الأردن: كنوز المعرفة، ط١، ٢٠٢٠م.
- محمد بن يزيد، أبو العباس المبرد.
  - الرسالة في البلاغة. تحقيق: رمضان عبدالتواب، مصر: مكتبة الثقافة الدينية، ط٢، ١٩٨٥م.
  - الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: جمعة الحسن، بيروت: دار المعرفة، ط١، ١٤٢٥هـ.
- مصطفى بيومي عبدالسلام. دوائر الاختلاف. قراءات التراث النقدي، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢م.
- مصطفى الصاوي الجويني. مدارس البلاغة المعاصرة. مصر: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥م.

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

- مصطفى غلفان. اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة حفريات النشأة والتكوين. الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع المدارس، ١٤٢٧هـ.
- مصطفى ناصف.
  - الصورة الأدبية. بيروت: دار الأندلس، د.ت.
  - البلاغة والأسلوب. بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢م.
  - نصر الله بن محمد ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، القاهرة: مطبعة نهضة مصر، ١٩٦٠م، ط١.
- ميجان الرويلي، البازعي، سعد: دليل الناقد الأدبي. المغرب: المركز الثقافي العربي، ط٦، ٢٠١٧م.
- ميشيل فوكو، الكلمات والأشياء. ترجمة: مطاع صفدي وآخرين، مراجعة: جورج زيناتي، مطاع صفدي، بيروت: مركز الإنماء القومي، ١٩٨٩م، ١٩٩٠م.
- ناتالي بييقي غروس. مدخل إلى التناص. ترجمة: عبدالحميد بواريو، دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤٣٣هـ.
- هادي شعلان البطحاوي. مرجعيات الفكر السردي الحديث. عمان: الرضوان للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٧هـ.
- هاني فراج علي أبو بكر. الموقف النقدي وسؤال الشعرية عند قدامة بن جعفر. السعودية: مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، مج٤، ع٦، ٢٠١٥م.
- يوسف بن أبي بكر محمد بن علي أبو يعقوب السكاكي. مفتاح العلوم. تحقيق: عبدالحميد الهنداوي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٠م.

يوسف وغليسي. إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد. الجزائر: منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠٠٨م.

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

❑ ثانيًا: المجلات والدوريات:

- إيهاب الملاح. الشيخ سيد المرصفي الأستاذ الأول لطه حسين. عمان: جريدة عمان الإلكترونية، ٢٠٢٢م.
- جابر عصفور. قراءة التراث النقدي- مقدمات منهجية، ضمن أعمال ندوة قراءة جديدة لتراثنا النقدي. جدة: النادي الأدبي الثقافي، م١، ١٤١٠هـ.
- جعفر عبدالهادي. مسالك الحجاج في البلاغة العربية عند الدكتور حمّادي صمّود أنموذجًا. مجلة جامعة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العدد ١، ٢٠٢٠م.
- جميل حمداوي. النقد الثقافي بين المطرقة والسندان. المغرب: مجلة الملتقى، ع٢٧، ٢٠١٢م.
- حافظ الجمالي. ملاحظات قصيرة حول كتاب التفكير البلاغي عند العرب. سوريا: اتحاد الكتاب العرب، مجلة الموقف الأدبي، ع١٣٥/ ١٣٦، ١٩٨٢م.
- حبيب مونسي. الوجه الآخر للبلاغة العربية. الجزائر: مجلة الخطاب، ع٨، ٢٠١١م.
- حسام محمد إبراهيم. الموروث البلاغي في الدرس الأسلوبي الحديث: أحمد الشايب وشكري عياد نموذجين. الأردن: منشورات المؤتمر النقدي الثاني عشر: الموروث النقدي العربي في قراءات المعاصرين، ٢٠٠٩م.
- حسام محمد أيوب. الموروث البلاغي في الدرس الأسلوبي الحديث أحمد الشايب وشكري عياد نموذجين. الأردن: ضمن أعمال المؤتمر النقدي الثاني عشر: الموروث النقدي العربي في قراءات المعاصرين، ٢٠٠٩م.
- حسن البنا عز الدين. ملامح النقد الثقافي في الخطاب النقدي العربي المعاصر. القاهرة: مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع٦٣، ٢٠٠٤م.
- حسين مسلم. الشعرية واللسانيات إشكالية النظرية اللسانية للمنهجين الشكلي والبنيوي. البصرة: مجلة آداب البصرة، ع٧٤، ٢٠١٥م.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

- حمّادي صمود.

﴿ حوار ضمن ندوة الحداثة في الشعر، مجلة فصول. الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج٣، ع١، ١٩٨٢م.

﴿ الخلفيات الأيديولوجية في التراث البلاغي العربي. تونس: مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع٦، ١٩٨٣م.

﴿ قلب الشاعر لأبي القاسم الشابي. مجلة فصول، العدد٤، المجلد الأول، ١٩٨١م.

﴿ القوانين البلاغية ومقولة الجنس الأدبي. تونس: ضمن أعمال ندوة مشكل الجنس الأدبي في الأدب العربي القديم، ١٩٩٣م.

﴿ أتكون البلاغة في الجوهر حجاجا؟ بحث منشور ضمن كتاب دراسات لسانية- أعمال مهداة إلى الأستاذ عبدالقادر المهيري، تونس: جمعية اللسانيات. مج٣، ١٩٩٧م.

﴿ مجادلة السائد في اللغة والفكر. تونس: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية- قسم اللغة والآداب العربية، ج١، ٢٠٠٢م.

﴿ نقد على نقد – قراءة في بعض تجارب النقد المعاصر في السعودية. الرياض: السجل العلمي للدورة الثانية من ملتقى النقد الأدبي: الخطاب النقدي المعاصر في المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٨م.

﴿ أبو القاسم الشابي عودة إلى سؤال التجديد. تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، ٢٠٠٩م.

﴿ مناهج دراسة الأدب مكسب معرفي والنقد الثقافي تنويع على النقد الإيديولوجي. الرياض: مجلة حقول، ع٩، ٢٠١٠م.

﴿ البلاغة العربية وسؤال التجديد. ضمن مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، المغرب: مطبعة النجاح الجديدة، عدد ١٣، ٢٠١٩م.

- خالد الجبر. سؤال المنهج في النقد العربي المعاصر. صحيفة الرأي، ٢٠١٤م.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

- رجاء عيد. عرض ومناقشة لكتاب التفكير البلاغي عند العرب. القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ع١، مج ٥، ١٩٨٤.
- ريمة حليس. التجنيس الأدبي في النقد العربي بين الجاحظ والكلاعي التأسيس والتداول. الجزائر: مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، مج١٣، ع١، ٢٠٢١م.
- الزواوي بغورة. ميشيل فوكو في الفكر العربي المعاصر. حوار ضمن منشورات مؤسسة مؤمنون بلا حدود، ٢٠١٨، عبر الشبكة العنكبوتية www.mominoun.com.
- سامر فاضل الأسدي. البعد الإيديولوجي في تشكل النقد الثقافي العربي. بابل: مجلة العلوم الإنسانية، ع١٤، ٢٠١٣م.
- سرى سليم المعمار. منهج التذوق الأدبي عند محمود شاكر ومحمد أبي موسى. العراق: مجلة الآداب، مج١، ع١٤٢، ١٤٤٤هـ.
- سعد البازعي. ما وراء المنهج. تحيزات النقد الأدبي الغربي، الكويت: المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مج ١٠، ع٣٨، ١٩٩٠م.
- سميرة حدادي. اليامين بن تومي. التلقي العربي للنقد الثقافي بين التجاور والتحاور. الممارسة النقدية الثقافية عند إدريس الخضراوي نموذجًا. المدونة، مج٧، ع٢، ٢٠٢٠م.
- سميرة سلامي. إرهاصات نظرية التلقي في أدب الجاحظ. اتحاد الكتاب العرب، مج٢٧، ع١٠٦، ٢٠٠٧م.
- شكري محمد عياد.
  - مفهوم الأسلوب بين التراث النقدي ومحاولات التجديد. العدد١، ١٩٨٠م.
  - قراءة أسلوبية لشعر حافظ. مج٣، العدد٢، ١٩٨٣م.
- صالح هاشم، ميشيل فوكو فيلسوف القاعة الثامنة. فلسطين: مجلة الكرمل، ع١٣، ١٩٨٤م.

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات
١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

- عادل خضر. حمّادي صمّود وآخر أحفاد الرومانطيقيين قراءة في "من تجليات الخطاب". تونس: مجلة المسار، ع٤٦، ٤٧، ٢٠٠٠م.
- عبد السلام المسدي.

﴿ المقاييس الأسلوبية في النقد الأدبي من خلال البيان والتبيين للجاحظ. تونس: حوليات الجامعة التونسية، ع١٣، ١٩٦٧.

﴿ التضافر الأسلوبي وإبداعية الشعر. مج٣، العدد١، ١٩٨٢م.

- عبد العالي السراج. التجريب. إشكالية المصطلح ودلالة المفهوم- محاولات في التعريف وعرض الإشكالات رصد ومساءلة. فاس: مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، مج٢، ٢٠١٨م.
- عبد القادر المهيري. مساهمة في التعريف بآراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة. تونس: حوليات الجامعة التونسية، ع١١، ١٩٧٤م.
- عبد الله بن عبد الرحمن بانقيب. تباين الرؤى حول كتاب البديع لابن المعتز. دراسة في آراء الباحثين المعاصرين. السعودية: مجلة جامعة الملك عبد العزيز، مج٢٧، ع١، ٢٠١٨م.
- عبد الله حبيب التميمي. سحر كاظم الشجيري، سيرورة النقد الثقافي عند الغرب. العراق: مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، مج٢٢، ع١، ٢٠١٤م.
- عز الدين إسماعيل. قراءة جديدة لتراثنا النقدي. أعمال ندوة قراءة جديدة لتراثنا النقدي، جدة: النادي الأدبي الثقافي بجدة، ١٤٠٩هـ.
- عفيف دمشقية. الإبلاغية فرع من الألسنية ينتمي إلى علم أساليب اللغة. ليبيا: معهد الإنماء العربي، مج١، ع٨، ٩، ١٩٧٩م.
- علي وطفة. مقاربات في مفهومي الحداثة وما بعد الحداثة. المغرب: مجلة فكر ونقد، ع٤٣، ٢٠٠١م.
- عمر عبد المعطي أبو العينين. التعريب والأمة الواقع- التحديات- آفاق المستقبل. مصر: مجلة كلية التربية بالمنصورة، ع٥٢، ج١، ٢٠٠٣م.

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

- كمـال أبـو ديـب. حـوار ضـمن نـدوة الحداثـة فـي الشـعر. مجلـة فصـول، الهيئـة المصرية العامة للكتاب، مج٣، ع١، ١٩٨٢م.
- ليدا منصور. النقد الأدبي في فرنسـا بـين التحليـل الإيـديولوجي الجـاهز والتحليـل الحر. فصول، ع١٠٦، ٢٠٢١م.
- محمد الكحلاوي. النقد الثقافي إشكال المنهج ومـأزق النظريـة. تـونس: يتفكـرون، ع٩، ٢٠١٦م.
- محمد الناصـر العجيمـي. عـرض كتـاب دراسـات فـي الشـعرية الشـابي نموذجًـا. فصول، مج١٠، ع٣، ٤، ١٩٩٢م.
- محمد الهادي الطرابلسي.
  - خصائص الأسلوب في الشوقيات. مج٣، العدد١، ١٩٨٢م.
  - معارضات شوقي بمنهجية الأسلوبية المقارنة. العدد١، ١٩٨٢م.
- محمد الولي. مدخل إلى الحجاج- أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان. عـالم الفكـر، ع٢، مج٤٠، ٢٠١١م.
- محمد أمـين العـالم. لغـة الشـعر العربـي وقدرتـه علـى التوصـيل. ألكسـو: المجلـة العربية للثقافة، ع١، ١٩٨٢م.
- محمـد جمـال بـاروت. الشـعرية البنيويـة والمقاربـات البنيويـة فـي الفكـر النقـدي العربي. سوريا: مجلة الموقف الأدبي، ع١٣١، ١٩٨٢م.
- محمد عبدالمطلب.
  - التكرار النمطي فـي قصـيدة المـديح عنـد حـافظ دراسـة أسـلوبية. مـج٣، ع٢، ١٩٨٣م.
  - قراءة ثانية في شعر امرئ القيس. مج٢، ع٤، ١٩٨٤م.
  - النحو بين عبدالقاهر وتشومسكي. مج٥، ع١، ١٩٨٤م.

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

- محمد مريسي الحارثي. تعقيب على محاضرة حمّادي صمّود: الإبلاغ في الشعر الحديث. جدة: محاضرات النادي الأدبي الثقافي بجدة. علامات في النقد، مج١٢، ج٤٥، ٢٠٠٢م.
- مسلم حسب حسين. الشعرية واللسانيات إشكاليات النظرية اللسانية للمنهجين الشكلي والبنيوي. العراق: مجلة آداب البصرة، ع٧٤، ٢٠١٥م.
- منير مهادي. النقد والمنهج. من السؤال إلى المساءلة. الجزائر: مجلة جامعة عمار ثليجي بالأغواط، ع٥٣، ٢٠١٧م.
- مها بنسعيد. المشروع البلاغي لمحمد مشبال: بلاغة الحجاج نحو مقاربة بلاغية حجاجية لتحليل الخطابات. الأردن: مجلة أفكار، ع٣٧١، ٢٠١٩م.
- نزار جبريل السعودي. تفاعل النقد الثقافي مع المناهج النقدية والمعارف المتعددة: قراءة لأهم المفاهيم الرئيسية. الإمارات: مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج١٤، ع٢، ١٤٣٩هـ.
- نعمان بو قرة. ملامح التفكير التداولي البياني عند الأصوليين. إسلامية المعرفة، ع٥٤، ١٤٢٩هـ.

❑ ثالثًا: الرسائل الجامعية:

- محمد عبدالبشير مسالتي. الجاحظ في قراءات الدارسين المحدثين. الجزائر: جامعة سطيف ٢، ٢٠١٤م.
- محمد عبدالرزاق بو عافية. البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة من خلال مشروع محمد العمري. الجزائر: مذكرة ماجستير، جامعة محمد لمين دباغين، ٢٠١٥م.

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــــــــــــــــوع	الصفحة
الإهـــــــــــــــداء	٣
ملخص الدراسة	٤
المقدمـــــــــــــة	٦
التمهيـــــــد: قراءة المعطى البلاغي والنقدي: سؤال في النشـأة والتطور	١٩
أولاً: نشأة البلاغة العربية والسؤال المعرفي	٢٠
❑ أولاً: البلاغة العربية وسؤال البيان	٢١
❑ ثانيًا: البلاغة العربية وسؤال الإعجاز	٢٤
❑ ثالثًا: البلاغة العربية وسؤال الانزياح	٢٩
ثانيًا: الواقع البلاغي المعاصر ومساءلة السؤال	٣٢
❑ أ- إسهامات ما قبل منتصف القرن العشرين	٣٣
❑ ب- الاتجاهات البلاغية الحديثة	٤٠
الفصل الأول: السياق الثقافي وأصول الاتجاه البلاغي	٤٥
المبحث الأول: مرجعيات الفكر وأصول التفكير	٤٨
❑ أولاً: في ماهية مرجعيات الفكر	٤٨
❑ ثانيًا: مرجعيات الفكر عند حمّادي صمّود	٤٩
أولاً: قـراءة التـــراث	٥٨
ثانيًا: الانفتاح على اللسانيات والتطبيق الأسلوبي	٦١

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧ Ali Fattani

الموضـــوع	الصفحة
ثالثًا: التصورات الحجاجية	٦٩
المبحث الثاني: الحـــدود و المفاهيـــــم	٧٣
❑ أولاً: المفاهيم العامة	٧٦
❑ ثانيًا: المفاهيم الخاصة	٨٦
الفصل الثاني: سؤال المنهج ومقولات القراءة	١٠٥
المبحث الأول: حدود المنهج ومقولات القراءة التراثية	١٠٨
❑ الصورة البيانية: التشبيه وتجليات الفهم والإفهام	١١١
❑ البيان والوظيفة الإفهامية	١٢٣
❑ النظم والروابط المنطقية	١٢٧
❑ البديع وتضييق الحدود الفنية	١٣٢
❑ النزعة المعيارية وتقنين الأبعاد الفنية	١٣٥
المبحث الثاني: تحيزات المنهج في القراءة الأسلوبية	١٤١
❑ أولاً: تحيزات المنهج: قراءة في المفهوم	١٤١
❑ ثانيًا: السياق المعرفي لمشروع صمّود الأسلوبي	١٤٣
❑ ثالثًا: مقولات القراءة اللسانية الأسلوبية	١٤٧
❑ الوجه والقفا: المقامة من منظور أسلوبي	١٧٤
المبحث الثالث: تحولات المنهج في مقولات القراءة الحجاجية والانفتاح على تحليل الخطاب	١٧٩
❑ أولاً: السياق المعرفي لبلاغة الحجاج	١٧٩
❑ ثانيًا: النمط الثقافي الإسلامي (الشعر والقرآن وانحسار الدرس البلاغي)	١٩١

رسالة الدكتوراه: الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات ١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani

الموضـــوع	الصفحة
❑ ثالثًا: مضمون العلاقة بين الحجاج والبلاغة العربية	١٩٤
الفصل الثالث: مسارات الاتجاه النقدي بين التنظير والتطبيق	٢٠٦
المبحث الأوّل: سؤال النقد ومقتضيات القراءة النقدية	٢٠٨
❑ أولاً: الإبـــــــــلاغ	٢٠٩
❑ ثانيًا: القراءة والمقروئية	٢١٨
❑ ثالثًا: الموقف من النوع الأدبي	٢٢٨
❑ رابعًا: الموقف من المقاربة الثقافية	٢٤٣
المبحث الثاني: استدعاء الشابي والكشف عن الوظائف الشعرية	٢٦١
❑ أولاً: مفهوم الشعرية عند صمّود	٢٦٢
❑ ثانيًا: استحضار خصائص الأسلوب في الشوقيات	٢٦٧
❑ ثالثًا: استدعاء الشابي	٢٧١
الخاتمـــــــة	٢٧٩
الفهـــــــارس	٢٨٤
قائمــة المصـادر والمراجــع	٢٨٥
فهـرس الموضوعـــات	٣٠٣

رسالة الدكتوراه. الاتجاهات البلاغية والنقدية عند حمادي صمود الأصول والامتدادات
١٤٤٥/٠٧/٢٧
Ali Fattani